

مارلين ستون

يوم كان الرب أنثى

«نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة»



ترجمة: حنا عبود



يوم كان الرب أنتى

• يوم كان الرب أتى «نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة»

• تأليف: مارلين ستون

• ترجمة: حنا عبود

• الطبعة الأولى ١٩٩٨

• جميع الحقوق محفوظة للناسر ©

• الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تليكس: ٤١٢٤١٦

• التوزيع في جميع أنحاء العالم:

• الأهالي للتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تليكس: ٤١٢٤١٦

١ - ٢٩١,٢ س ت و ي ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي

٤ - ستون ٥ - عبود مكتبة الأسد

مارلين ستون

يوم كان الرب أنثى

«نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة»

ترجمة: حنا عبود

الأهالي

العنوان الأصلي للكتاب:

WHEN GOD WAS A WOMAN
MARLIN STONE
A HARVEST BOOK - 1978

يعقوب والجسر وأحلام العذارى

هذا كتاب جديد، لا لأن المؤلفة تأتي بجديد من عندها، بل لأن الوقائع التي تقدمها هي آخر المكتشفات الجديدة التي أحدثت ثورة في التفكير الحديث إلى درجة أنها تغير القناعات الموروثة تغييراً كاملاً أو شبه كامل. فهو ليس كتاباً سجالياً لأن الوقائع العنيدة التي قدمتها المؤلفة لا تقبل سجلاً ونقاشاً. ومع أنها قدمت مقطوعات من الكتابات والخطابات لأبرز عضوات الحركة النسوية منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم، فإن الوقائع تظل صاحبة السيادة تبسط حضورها في معظم الفصول، فالقضية النسوية اليوم لا ينقصها إلا هذه الوقائع التي قدمتها المؤلفة لوقف السجلات الإنشائية التي بلغت أحياناً حد المهاترات.

وبما أن الوقائع هي اللغة الغالبة والقاهرة التي نحمينا من تسلسل الثقافة الدعائية اللاوية، فإني سوف أروي هذه الواقعة التي تدل على مدى تغلغل الأفكار المغلوطة التي تنقصها الوقائع في ثقافتنا المعاصرة. فمنذ أكثر من ربع قرن ترجمت المجلد الرابع من المؤلفات الفلسفية لجورجي بليخانوف. ومررت معي كلمة **Philistinism** فترجمتها النزعة الفلسطينية. ولكنني أردت أن أوضح للقارئ المقصود بهذه النزعة مثلما أوضحه لنفسه أيضاً حيث لم تمر معي هذه الكلمة من قبل. استعنت بمعجم المورد فوجدت تحت مادة **Philistine** مايلي: الفلسطيني القديم اللامثقف أو اللامبالي بالثقافة. المادي. عدو التقدم أو الأفكار التقدمية. ذو علاقة بقدماة الفلسطينيين. غير مثقف، غير مستير. (يبدو أننا لسنا في حاجة إلى تطبيع فنحن مطبوعون مسبقاً).

في كل المعجمات التي أملكها والتي تبلغ مايقارب الخمسين معجماً، من معجم الجيب وحتى معجم وبستر الكامل لم أجد شيئاً غير ماوجدته في معجم المورد. إذن انتهى الأمر ولا مجال للبحث فمن مفكر كبير من أمثال بليخانوف وحتى معجم وبستر (الموثوق) ثمة إجماع على تفسير النزعة الفلسطينية بأنها العداء للثقافة. فوضعت تفسير هذه النزعة بين هلالين (خدمة للقارئ؟) من دون أن أدرك وقتها أنني أسمح لثقافة شائهة مغلوطة دعائية منحازة أن تتسلل إلى قناعة القارئ.

وقتها اقتنعت على مضض أن الفلسطينيين القدامى كانوا نجسين قدرين عديمي الثقافة، وأنى لي أن أعصى بليخانوف وكل هذه المعجمات الصغيرة والضخمة، إلى أن قرأت هذا الكتاب منذ عشر سنوات فندمت أيّ ندم على ما فعلت. وإذا قبض أن يعاد طبع الكتاب فإنني سأصحح قبل أي شيء الخطأ أو الخطيئة المتاخمة للجريمة التي غشني بها بليخانوف ودفعني المعجمات إلى اقترافها. فالشعب الفلسطيني، كما تثبت الكتابة، من أعظم شعوب العالم وأقدمها وهو الذي أشاع حضارة المحبة والسلام والتسامح والتضحية في أصقاع واسعة فكان له أثره في كريت وصقلية واليونان وحتى في مصر الأقرب إلى دينها من أي دين آخر، ناهيك عن الحضارة الإنسانية الراقية والمهذبة والمثقفة والهادئة التي أشاعها في أرض كنعان، وعلى الأخص في جنوبها...

ولكن لو كنا نعرف الخطيئة لما اقترفناها.

كيف؟ كيف فاتني عندما ترجمت بليخانوف أن أرجع إلى التوراة وأقرأ ما فعله أنصار يهوه بهذا الشعب العظيم، في أرض كنعان، حتى أعرف ما فعلوه به من تشويه سمعة؟ كيف فاتني أن أقرأ ما فعله العبريون غبّ دخولهم مباشرة بالفلسطينيين ولم انتبه إلى حيلة مليكهم ياهو الذي زعم أنه صار من أنصار الدين الفلسطيني فدعا جميع كهنة هذا الدين الإنساني العظيم إلى المبدع خادعاً كاذباً منافقاً. وفي المبدع قضى على الجميع من دون أي استثناء؟ كيف فاتني أن أعود إلى ما فعله موسى وهارون وهوشع وإليشع وإيليا وغيرهم وغيرهم...؟

إن الوقائع العنيدة التي تبسطها المؤلفة تبين أن مانعبره الآن مظاهر رقي وجداني في مثبولوجيا اليونان وكريت (أيام مينوس) وصقلية وجنوب إيطاليا وبعض أصقاع الأناضول، بل حتى في إسبانيا وصولاً إلى الجزر البريطانية... حتى آخر جزيرة في الشمال إنما تطورت من النظرة الفلسطينية الإنسانية، بذرة المحبة والثقافة السلمية والنظرة الإنسانية.

الآن صرنا نعرف لماذا ورثنا هذا المفهوم عن النزعة الفلسطينية. إن أصحاب يهوه وأفراخ الأفاعي التي أنسلوها وعمّت أصقاعاً كثيرة في العالم هم الذين أسسوا هذا المفهوم. فالفلسطيني قدر لأنه لا يصلي كالعبري وغير مثقف لأنه لا يؤمن بيهوه المجرم السفاك، ومادي لأنه لا يتسلح بسلطة الغائب لقهر الإنسان كما فعل ويفعل الإسرائيلي، وهو معاد للثقافة فعلاً، لأنها ثقافة الغزاة والغزوات والمغتصبين والاعتصابات التي غيرت القنوات بالسيف وليس بالحقيقة والوقائع. يبدو أن الفلسطيني منذ آلاف السنين يحمل صليب آلامه ليدفع ثمن محبته وتهذيبه وإنسانيته.

لولا الأركيولوجيا الحديثة لكننا أسرى الثقافة الإعلامية العبرية الدعائية التي ظهرت قديماً بعد التدمير الشامل الذي قام به العبريون لكل الثقافة القديمة في هذه المنطقة. إن التدمير الدموي المريع للثقافات القديمة أتاح الفرصة للثقافة الدعائية التي تعتمد على أحكام القيمة لا يكون لها مرجعية مادية تغدو مادة دعائية لأغراض سياسية فتتسلل من دون عائق ثم تستخدم كأنها مسلمات حقيقية. إن الأركيولوجيا ليست علم آثار وحسب بل إنها علم تصحيح أحكام القيمة التي شوّهت ثقافتنا وغيّرت قناعاتنا من دون أي مستند واقعي.

ولا أريد من القارئ أن يذهب إلى الظن أن الكتاب ينتصر للفلسطينيين من العبرين المشوهين لكل الثقافات الإنسانية انتصاراً عاطفياً، فهذه نتيجة يستخلصها بنفسه، لأن الحقيقة أن الكتاب اعتمد الاكتشافات الأركيولوجية وجعلها تنطق بنفسها. ليس هذا فقط وإنما بسطها بسطاً علمياً جافاً. بل أيضاً جعل من التوراة شاهداً على صدق حفريات المنطقة. فهناك إصحاحات ومقاطع وآيات ما كنا لنذكر النواة الاستهدافية التي فيها لولا الجهود الأركيولوجية الحديثة التي أنقذتنا من وهم أحكام القيمة ومن التوراة التي استخدمتها استخدماً دعائياً. إنها أضخم كتاب دعائي عرفه العالم، بل أكبر كتاب من حيث التأثير وتسريب الأحكام مثل أفاعي الليل، فحتى زعيمنا بليخانوف، وهو ماهو، لم تكن لديه الحصانة ولا الحصافة ولا الحذر ليقف أمام الأحكام القيمة التوراتية موقف المتسائل. أليس غريباً أن الذين قضوا على الحضارة (الحضارات كلها قديمة) في هذه المنطقة هم الذين تسلموا إلى عقولنا؟ ألا يشبه هذا فلماً أمريكياً نزداد تصديقاً لبطله كلما ازداد عدد الطلقات التي يصرع بها الآخرين؟

يقال الاعتراف بداية التكفير. وما إنني اعترف بمدى تأثير الإعلام الحبيثة المتسللة، فلا أريد للقارئ أن يذهب به الظن أن الكتاب مقتصر على الفلسطينيين وإتصافهم وإبراز الصيغة الإنسانية التي وضعوها للحياة والنظرة الراقية التي رأوا بها الكون والوجود. إن الكتاب يتحدث عن مناطق كثيرة جداً: سومر وأكاد وبابل وأوغاريت وكريت وقبرص واليونان ومصر... ولكن حتى لو لم يتكلم إلا عن الفلسطينيين لكان ذلك كافياً، إذ أن تلك الثقافات كلها لاقت المصير ذاته الذي فرضه الكهنة اللاويون - أحفاد الهندو أوروبيين - على الثقافة الفلسطينية، بل على الفلسطينيين. وسوف يلمس القارئ من هذا الكتاب أن اللاويين هم ذاتهم الذين أطاحوا بتلك الثقافات، لافرق بين فصيل وفصيل، سواء في مصر أو كنعان أو العربية أو إيران أو ما بين النهرين أو

الهند أو كيليكا أو الأناضول (راجع الفصل الخامس: واحد من عرقهم). إنهم كلهم هند وأوروبيون أو قل إنهم كلهم لاويون: وحدهم أنصار يهوه، وحدهم الذين تجلّى لهم يهوه بكل كيانه فعانوه ورأوه وكلموه وجعلهم أوصياء على وصاياء... وحدهم... وحدهم... أول من استخدم سلطة الغائب للقمع والملاحقة والتدمير والغزو الدموي... أول من صنع الوهم واستخدمه سلاحاً فتاكاً. ولأول مرة في تاريخ البشرية لم تعد التهمة توجه من الواقع المرئي والملموس بحيث يكون دليلها منها وفيها ترافقها حشيات عينية، بل صارت التهمة تهبط من السماء بلسان يهوه وتنفذ على يد اللاويين كهنته المخلصين. فحتى يتم الإجهاز على أي كائن ليس من الضروري تقديم أدلة على أنه ألحق الضرر المادي أو أساء الجوار أو احتل العقار أو ضرب أو شتم أو خان الذم... لا أبداً. يكفي أن يكون من الأمم حتى يباد ومدن قومه بكاملها: أبنية وسكاناً وهياكل.

والمسألة ليست مسألة إبادة مدن بكل مافيهما، فقد يفعل زلزال واحد كل ذلك. المسألة أبعد من ذلك بكثير. إنها مسألة سياسية لتغيير الصيغة القائمة بصيغة يهوه القادمة، أي صيغة اللاويين التي وضعت لتخدم العبريين. هذه هي المسألة الخطيرة كما تبيتها المؤلفة، وهي التي غيرت صيغة الحياة التي وضعها الفلسطينيون أو قل إنها استبدلت بصيغة يهوه. الصيغة الفلسطينية تقوم على اقتصاد أدبي راق، فقد كانت لديهم مئات الأعياد والاحتفالات ولم يعرفوا طيلة آلاف السنين أي نوع من أنواع الحروب الدينية على الإطلاق. أما صيغة العبريين أو قل صيغة اللاويين (لأن كثيراً من العبريين انضموا إلى الفلسطينيين في عباداتهم وأعيادهم واحتفالاتهم) فتقوم على اقتصاد سياسي، أي على امتلاك العالم مادياً، لذلك كانت الأوامر تأتي من عند خبير كبير في الاقتصاد السياسي لاحتلال أرض الغير وتدمير كيان الآخرين وتسخير كل شيء للحيازة المادية. ولذلك، لأول مرة في التاريخ ظهرت الحروب الدينية باستخدام سلطة الغائب. وهذا وحده يفسر لنا المجازر التي ارتكبت ضد الفلسطينيين في أريحا وحاصور وجازر وحبرون وصيدا... وبقية المدن التي ترصد المؤلفة مذابحها والغدر بها.

بهذه المجازر والحروب تم القضاء على الصيغة الفلسطينية الراقية التي كانت فيها المرأة تتمتع بأعظم مكانة تصل إلى حد القدسية. ولأول مرة في التاريخ تحتل المرأة مرتبة ثانوية، بل تصل إلى أدنى مراتب الكائنات الحية. وغزة الشمال (راجع الفصل الرابع) هم أول من غير الصيغة الأدبية في التاريخ، وجعلوها صيغة

اقتصادية، وهو التغيير الذي جعل وضع المرأة يتدهور إلى درجة لا تكاد تصدق بالمقارنة مع وضعها السابق فقد مُنعت عموماً من المشاركة في الحياة العامة وحرّم عليها سلك الكهنوت الذي كان شبه خاص بها، بل مُنعت من التعليم وغير ذلك مما سيطّلع عليه القارئ.

من هذه النقطة تنطلق مارلين ستون مؤلفة هذا الكتاب. وهي نقطة هامة وخطيرة في أن معاً غيّرت مفاهيمنا السابقة عن التزوحات الكبرى في المنطقة. فهذه التزوحات لم تتجه من الجنوب إلى الشمال، كما كنا نعتقد أو نتوهم، وإنما مصدرها الشمال ومركزها الأكبر كان قرب بحر قزوين. وبمتابعة مجاري الأنهار ومساقطها يبرز أمامنا مخطط الإندياح الشمالي المخيف الذي غيّر العالم... وغير الظروف التي كانت فيها المرأة مقدسة فانقلبت المفاهيم فما كان مقدساً صار مدنساً وما كان سامياً صار منحطاً ومنبوذاً. وحتى اليوم ما يزال قسم كبير جداً من البشرية يتبع الخط الذي رسمه اللاويون أخلاف الهندوأوروبيين، أو كما تؤكد المؤلفة بأنهم فصيل منهم.

وقد أفاد الباحث المصري لويس عوض من هذه المكتشفات وأعاد النظر في لغات منطقة الشرقين الأدنى والأوسط وأسس لقيام علم لغوي جديد في كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية».

إن المؤلفة مارلين ستون لا تنظر إلى المرأة كجنس مستقل، ولا تكتب مأساتها وكأنها موضوع قائم بذاته. إنها تتقصى الصيغة التي كانت سائدة والتي كانت المرأة تمثل فيها مكانة مرموقة، ثم تتابع الغزاة الشماليين في تحركاتهم وتحطيمهم لعناصر الصيغة وتقف وقفة طويلة في فلسطين لتبين أن من دفع ضريبة هذه المأساة كانت الحياة نفسها وقد تغيرت صيغتها، فلم تكن النساء وحدهن صرعى غزاة الشمال وفي مقدمتهم اللاويون والعبريون، بل شعوب بكاملها، لكن الثقافة الإعلامية المتسللة استطاعت تغيير القنوات حتى هذه الأيام، وهنا دفعت المرأة الضريبة الكبرى. وندفع معها هذه الضريبة نتيجة الاجتياحات الحرية والفكرية التي قام بها غزاة الشمال، فالجنوب - كما هو اليوم تماماً - ضحية ولم تظهر منه أي هجرة قبل غزاة الشمال، على النقيض مما كان في أذهاننا أو في أوهامنا إن أردت الدقة. إن مأساة العالم جاءت من الشمال... وما تزال.

لو أن مارلين ستون نحت جانباً الوقائع والمكتشفات، ولفة الأرقام واكتفت باتخاذها أساساً ونقطة انطلاق في كتابة قصة غزاة الشمال شعراً أو بلغة أدبية خيالية

لكننا أمام أعظم ملحمة عرفها العالم، بل لو أنها اكتفت بسرد قصة ليليت السومرية وكيف استخدمها اللاويون ذلك الاستخدام الديني اليهودي الإعلامي وحولوها من انثى مقدسة إلى شيطانة ليلية لكننا أمام ملحمة إنسانية رائعة قل نظيرها.

كل ما يمكن أن نقوله إن هدف المؤلفة لم يكن أدياً خيالياً بل كان كشفاً للجذور العميقة ليهوه رمز غزاة الشمال، الذي، أو الذين، ضربت الصيغة الإنسانية للحياة على يديه أو على أيديهم.

لقد تمكنت ثقافة يهوه أن تفرض نفسها في كثير من ميادين الحياة والمجتمع، بل إن بعض الأبحاث العلمية جداً في العصر الحديث ما تزال تعكس أصداء يهوه بصدد المرأة فقر أو تستتج أن تقصير المرأة في بعض المجالات لا يعود إلى الثقافة الذكورية التي أهملتها وهتمتها وأقنعتها بضعفها وجعلتها مصدر الشرور كلها بلا استثناء، حتى إن خلفاء يهوه رأوا أن النجاسة ناشئة من لعنة يهوه، وإنما يرجع إلى طبيعتها الفيزيولوجية التي لا يمكن التدخل فيها، فكأنها هكذا خلقت وكأنها هكذا سوف تبقى وإن ظهرت آلاف الأنواع من علوم الامتنساخ. آلاف السنوات من القمع والتهميش لم تفعل شيئاً ولن تفعل شيئاً مادامت البيولوجيا ثابتة ٢٢٢.

والحقيقة أنها لم تبق ثابتة بل تخلّفت كثيراً عما كانت عليه في صيغة الحياة التي سبقت ظهور غزاة الشمال من اللاويين أنصار يهوه، فانتزعوا منها جميع الوظائف تقريباً عدا الولادة والإرضاع والاهتمام بالمطبخ، المتعة الثانية للذكر إلى جانب السرير. إنها حقاً مخلوق تemis ومتخلف لا لأنها هكذا هي بل لأن إرادة يهوه فرضت عليها ذلك.

يبد أننا نستطيع القول إن ميداناً واحداً من الحياة لم تستطع ثقافة يهوه من فرض نفسها فيه (لأنها أصلاً ضده) وهو ميدان الأدب والفن، ميدان الاقتصاد الأدبي، إذ ما تزال المرأة فيه مشرقة رائعة تنضج بالحبة والتضحية وتلهم البشر ابداعاتهم وتبث فيهم العطف والمحبة. وعندما أراد ديلاكروا رسم الحرية اختار لها امرأة. وأنا أعتقد أن تحرير يهوه للفن والرسم والنحت مرجعه إلى نظرتة العدائية إلى المرأة وتحولها إلى أداة إنتاج ككل شيء في اقتصاده السياسي، لأن كل التماثيل والرسومات كانت للمرأة ومن وحيها، فلا يعقل أن يسمح بالفن والمرأة مقدسة فيه. لكن المرأة ظلت في الفن والأدب كما كانت من قبل. إنه الميدان الوحيد الذي لا وجود فيه لليهوه إلا ماندر.

ولا أقول هذا وحسب، بل أذهب أكثر من ذلك فأرى أن التقاليد الأدبية المتبعة هي الوحيدة التي تعكس الصيغة القبيحية، الصيغة الفلسطينية أو قل صيغة الاقتصاد الأدبي. ولهذا فإن موقف المؤلفة مارلين ستون من المرأة لم يضاف شيئاً إلى موقف التقاليد الأدبية. وسوف اكتفي بالإشارة إلى أحدث أثر أدبي يعكس هذا الموقف وهو رواية «جسر بنات يعقوب» للكاتب الفلسطيني حسن حميد. فقد رافقت ولادة هذا الأثر منذ أن كان فكرة، وشاهدت الكاتب يمزق المسودات الأولى والثانية... إلى أن مكنته أدواته الفنية من رسم الهيكل العام. والنتيجة التي يخلص إليها هي ذاتها التي انتهت إليها مارلين ستون، مع أنني متأكد كل التأكد أن هذا الكاتب لم يطلع على الكتاب، ولم أتداول معه أي موضوع من موضوعاته. كيف وأنا لم أكن قد قرأته. وذهلت عندما قرأت الرواية كاملة، وكنت عندئذ قد قرأت كتاب مارلين ستون. إن الموقف هو ذاته بينه وبينها. إن بنات يعقوب رضين بالإذلال، رضين بأن يكن أدوات، رضين بأن يتصرف بهن أبوهن كيفما يشاء لا لأنهن يردن ذلك من تلقاء أنفسهن، فهن بشر وتراودهن أحلام بشرية، وهن إناث وتراودهن أحلام الإناث. ولكنهن فعلمن مافعلن انصياعاً لنصائح أو قل أوامر أبيهن تحت ذريعة أن يهوه والأجداد يريدون ذلك. وبالتدريج استطاع أبوهن الذكر أن يتترع منهن أحلامهن البشرية والأنثوية وأن يستبدلها بأحلام مشروعة هو مشروع الامتلاك المادي للعالم، فعشن في الواقع وهن مغتربات عنه، وأوهمن أنفسهن بأن أحلام يعقوب الذكر هي أحلامهن، واعتقدن أنهن يحققن ذاتهن باعتباره أحلام الذكر فازددن اغتراباً، وازدذن اضطراباً. وكلما ازددن اغتراباً ازددن اقتراباً من أبيهن الذكر باعتباره الأذكى والأعقل والأقوى عسى يهديهن إلى ماينشدن. ولكن عبثاً فما دام مشروع يعقوب مشروعاً مادياً لا أدبياً فإن المرأة سوف تتحول إلى أداة بكل معنى الكلمة. وهذه هي النتيجة ذاتها التي انتهت إليها مارلين ستون: تحويل المرأة من كائن بشري إلى أداة إنتاج...

لو لم أكن مطلعاً على مجريات العمل الفني لقلت إن الكاتب الفلسطيني سطا على كتاب مارلين ستون، أو أنه استفاد منه، أو استغل النتيجة التي انتهت إليها. ولكنه الأدب الذي لا يستطيع إلا أن يكون هكذا. وكل كاتب يجب أن يكون عمره خمسة آلاف عام على الأقل. وهذا هو عمر حسن حميد الذي يتابع تقاليد الفلسطينيين القدامى، فأثبت فعلاً أنه عديم الثقافة وغير مستنير بمنظور يهوه ومشروع يعقوب، لا بمنظور بليخانوف الذي خدعني فاستدرجني فأخجلني. وهو مثل قداماه مايزال يحمل صليب آلامه بسبب اللاويين على رجاء القيامة. بل أكثر من ذلك فمازال

الشمال شمالاً والجنوب جنوباً... والبقية يعرفها القارىء.

إن المرأة القديمة المقدسة ماتزال تعيش في اقتصادنا الأدبي وليس في الاقتصاد السياسي الذي ابتكره اللاويون منذ آلاف السنين. والصراع الأساسي اليوم هو بين هذين الاقتصادين: إما الصيغة الأدبية الفلسطينية للحياة وإما الصيغة اللاوية، صيغة الاقتصاد السياسي وتحويل المرأة إلى أداة...

أما الميادين الأخرى غير الأدبية فقد أفلحت المؤلفة مارلين ستون في إبرازها بهدوء وثقة وإيمان معتمدة على أحدث ما كشفت عنه الأركيولوجيا من وقائع، أقصد من جرائم اللاويين الهندوأوروبيين.

إن الكتاب رافد جديد للاقتصاد الأدبي فوجدت ترجمته واجباً، ومن هذا الباب أطمع أن تكون قراءته واجباً أيضاً. فالعالم يتحرر في ظل ثقافة يهوه الذكورية، والمركة لا مهرب منها.

حنّا عبود

القلاطية. غرة حزيران ١٩٩٧

يتمتع الرجل بامتياز كبير وهو أنه يملك رباً يصدق على القانون الذي يكتبه، وبما أن الرجل يمارس سلطة حاكمة على النساء فمن صالحه أن تكون هذه السلطة موهوبة له من الكائن الأعلى. فالرجل عند اليهود والمحمديين والمسيحيين، إلى جانب آخرين، هو سيد بموجب حق إلهي، لذلك فإن الخوف من الله يقمع أي نزوة تمرد لدى الأثنى المسحوقة.

سيمون دي بوفوار - الجنس الآخر - ١٩٤٧

قال رئيس الأساقفة ك. ل. مايرز إن الكهنوت الأسقفي هو «مفهوم مذكر»

«الكاهن هو رمز الله شاء أم أبى. فالله في تصور العهدين القديم والجديد مشخص في تصور مذكر». قال ذلك في تقرير ألقاه بين ٢٦٠ مندوباً في كاتدرائية النعمة.

وجاء في التقرير «المسيح هو مصدر الكهنوت. فجنس المسيح ليس مصادفة، وذكريته ليست عارضة».

سان فرنسيسكو كرونيكل - ٢٥ أكتوبر ١٩٧١

في البدء كانت إيزيس: أقدم القدماء كانت ربة نشأ منها كل شيء. كانت السيدة الكبرى، سيده قطري مصر، سيده الحماية، سيده السماء، سيده بيت الحياة، سيده كلمة الله. كانت منفردة. كانت في كل أعمالها العظيمة والمدهشة ساحرة حكيمة، وأعظم من جميع الآلهة.

طيبة - مصر - القرن الرابع عشر قبل المسيح

أنت ياربة شمس أرينا إلهة مكرمة. اسمك يعلو الأسماء كلها. وقداستك تعلو كل المقدسات، وحدك المكرمة ياربة الشمس، وحدك أنت العظيمة ياربة شمس ارينا، فلا يلدانيك أي إله آخر شرفاً وعظمة....

بوغازمسكوي - تركيا - القرن الرابع عشر قبل المسيح

إلى تلك التي ييدها الحسم، ربة كل الأشياء، إلى سيدة السماء والأرض التي تتلقى الضراعة، التي تستمع إلى الشكوى، والتي تبتهج للصلاة، إلى الإلهة الشفوقة التي تحب الحق عشتار الملكة التي تزيل كل اضطراب. إلى ملكة السماء، ملكة الكون، الملكة التي سارت في العماء الخفيف فخلقت الحياة بقانون المحبة، ومن العماء خلقت الانسجام ومن العماء أمسكت يدينا وأرشدتنا.

بابل - من القرن الثامن عشر إلى السابع عشر قبل الميلاد

اسمعي أيتها الأقاليم مديح الربة نانا، مجدي الخالقة، وسبحي المقدسة، وسبحي الممجدة، وتقرئي من السيدة الجبارة.

سومر - القرن التاسع عشر قبل الميلاد

مقدمة

كيف حصل هذا؟ كيف اكتسب الرجال السيطرة التي تسمح لهم الآن بتنظيم العالم على ضخامة تنوعه وتقرير أي الحروب التي يجب أن يشنوا عندما يحين وقت وجبة الغداء؟

هذا الكتاب هو نتيجة إجاباتي عن ذينك السؤالين والأسئلة المشابهة التي يطرحها كثير منا عن وضع النساء في مجتمعنا ففسأل وتسأل واحدتنا الأخرى: وحتى لو أجبتنا عن هذه الأسئلة يبرز سؤال آخر. ماذا نتوقع من مجتمع يعلم أولاداً، ذكوراً وإناثاً، لعدة قرون، أن الاله الذكر خلق الكون و كل ما فيه، وجعل الرجل على صورته المقدسة - ومن ثم، وكتفكير تالي خلق المرأة لتساعد الرجل مناصفة له في كل مساعيه؟ صورة حواء التي خلقت من أجل زوجها، ومن زوجها، إنها المرأة التي أنتجت لسقوط البشرية، صارت بطرق كثيرة صورة لكل النساء. كيف ظهرت هذه الفكرة إلى الوجود؟

قليل من النساء الذين يعيشون في مجتمعات تتبع اليهودية والمسيحية والإسلام، لايتبينون لقصة حواء التي انساقت وراء كلمة الحية في جنة عدن، فأكلت الثمرة المحرمة ثم أغوت آدم فأكلها. ولكن عموماً أثناء السنوات الانطباعية للطفولة نتعلم أن هذا العلم وهو أكل التفاحة الطيبة من شجرة معرفة الخير والشر هو الذي سبب خسارة الفردوس، وطرد آدم وحواء بالتالي كل الجنس البشري، من هذا المنزل الأول للبركة والرضى. ويجعلوننا نفهم أنه نتيجة هذا العمل قرر الله أن تخضع المرأة لسيادة الرجل - الذي كان في ذلك الوقت قد حصل على حق إلهي بالسيطرة عليها - من تلك اللحظة حتى الآن.

إلا أن طرد آدم وحواء من جنة عدن ليس آخر الأخبار وإنما هنا أحداث معاصرة أثرت في نساء اليوم بصورة أكثر مباشرة. وفي النضال من أجل تحقيق وضع متساو للنساء في مجتمع ماتزال تسوده قيم وأخلاقيات - العقائد اليهودية - المسيحية (التي نفذت بعمق إلى كل أركان حضارتنا المعاصرة) سرعان ما نتأكد أن اختياراً عميقاً لأسطورة الخلق هذه، إلى جانب أصولها التاريخية سوف يمدنا بالمعلومات الأساسية.

إنه يجعلنا نفهم الدور الذي لعبته الأديان المعاصرة في القمع الأولي والمستمر وفي إخضاع النساء - وأسباب هذا.

في مراحل ما قبل التاريخ وفي المراحل التاريخية المبكرة من التطور البشري وجدت أديان قدس فيها الناس خالقهم، باعتباره أنثى. فالربة العظمى - الجدة المقدسة - عُبدت منذ بدايات العصر النيوليثي ٧٠٠٠ سنة قبل المسيح حتى إغلاق آخر معبد للربة عام ٥٠٠ بعد المسيح. بعض الباحثين المؤثوقين يمدون عبادة الربة بعيداً في الماضي حتى العصر الباليوليثي الأعلى الذي يمتد إلى ٢٥٠٠٠ سنة قبل المسيح. ومع ذلك فإن أحداث التوراة التي يعلمونها لنا على أنها وقعت في بداية الزمن، إنما حصلت في الحقيقة ضمن المراحل التاريخية. ويعتقد معظم دارسي الكتاب المقدس أن إبراهيم، أول نبي للاله العبري/ المسيحي يهوه والمعروف أكثر باسم جيهوفا عاش ليس قبل ١٨٠٠ قبل المسيح والأرجح أنه تأخر حتى عام ١٥٥٠ قبل المسيح.

والأهم هو التحقق من أن كلا الدينين وجدا في آن واحد لآلاف السنين - بين شعوب متجاوزة جداً. وكل الأدلة الأركيولوجية والميثولوجية والتاريخية تكشف أن الدين الأنثوي، الذي لم يزل زوالاً طبيعياً كان ضحيته قرون من الاضطهاد والقمع المستمرين على يد محاميي الأديان الجديدة التي جعلت الآلهة الذكور هي الأعلى. ومن تلك الأديان الجديدة انحدرت أسطورة خلق آدم وحواء وقصة الفردوس المفقود. كيف كانت حياة النساء اللواتي عشن في مجتمع قدس خالقه أنثى حكيمة وبأسلة؟ لماذا حارب أعضاء الأديان الذكورية المتأخرة بمثل هذه العدوانية لقمع العبادة السابقة - بل الإجهاز حتى على ذكرها؟ ما هي الدلالة الحقيقية لأسطورة آدم وحواء، ولماذا ومتى كُتبت؟ إن الإجابات التي اكتشفناها تشكل مضامين هذا الكتاب. لقد كتبت في «يوم كان الرب أنثى» قصة قمع الطقوس النسائية لشرح الأحداث التاريخية والأوضاع السياسية التي أدت إلى كتابة الأسطورة اليهودية/ المسيحية عن السقوط والفردوس المفقود والأهم من ذلك إلقاء اللوم في تلك الحضارة على المرأة وحواء، وعلى النساء منذ ذلك الوقت.

تمهيد

مع أن الدين يبدو لكثير منا اليوم آثاراً أرشيفية من الماضي (وعلى الأخص العهد القديم الذي ظهر قبل المسيح بقرون كثيرة) فإن هذه الكتابات مازال تعتبر لدى كثير من آبائنا وأجدادنا أو أجدادنا الأقدم إنجيلاً مقدساً وكلمة مقدسة. وبالتالي فإن معتقداتهم الدينية وبالتالي النماذج السلوكية والاجتماعية تركت انطباعها فينا بطرائق شتى. وبالفعل فإن الماضي القديم لم ينح بعيداً كما نتخيل أو نؤمن.

والواقع لو أننا فهمنا تماماً كيف ولماذا حاز الرجل صورة الفرد الذي ينجز أعظم المآثر وأهمها بينما كانت المرأة متدنية إلى دور المساعد الصبور، وبالتالي جرى التأكيد أن هذا إنما هو حالة طبيعية للعلاقات بين الذكر والأنثى، فلا بد أن نرتحل إلى تلك الفترات القصية في التاريخ البشري. فعلينا اكتشاف الأصول القديمة للحضارات البشرية والتطور الأولي للأنماط الدينية. وهذه مهمة غير سهلة، كما سوف ترى.

إنها لصدمة أن نتحقق كيف كتب القليل عن الآلهات المؤنثة اللواتي عبدن في معظم الفترات القديمة للوجود البشري، وإثارة لسخطنا عندما نواجه حقيقة أنه حتى المادة الموجودة قد تجاهلها كلها تقريباً الأدب الشعبي والثقافة العامة. إن معظم المعلومات والنتائج الإنساني المهمة بالدين الأنثوي الضخم التي ازدهرت قبل آلاف السنين من ظهور اليهودية والمسيحية والعصر الكلاسيكي لليونان قد نبشت من الأرض لتدفن ثانية في نصوص أركيولوجية غامضة أبعدت إلى الرفوف بعناية في محفوظات الجامعة والمكتبات المتحفية. قلة قليلة من هذه المعلومات يسمح بها فقط باعتبارها تنتمي إلى الجامعة أو من أجل شهادة جامعية.

تصدّيت للمسألة منذ سنوات طويلة. وقد دفعني إلى طواف نصف العالم - من سان فرانسيسكو إلى بيروت. أردت معرفة المزيد عن الدين القديم للرية. وفي طريقي اطلعت على ما في المكتبات والمتاحف والجامعات ومواقع الحفريات في الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأدنى وابتغالي من مكان إلى مكان جمعت معلومات من مصادر كثيرة التنوع فتفحصت كل جملة صغيرة وكل صلاة أو شذرة أسطورية بين آلاف المعلومات المختلفة.

وإذ جمعت هذه المادة عن الآلهات الأنثوية القديمة، وجدت أن كثيراً من الأساطير القديمة استُخدمت كدرامات طقوسية. وقد مثلت في الاحتفالات الدينية للمهرجانات المقدسة، متطابقة مع النشاطات الطقوسية الأخرى. وقد كشفت التماثيل واللوحات الجدارية والمخطوطات والألواح الطينية والبردى التي سجلت الأحداث والليجنادات والصلوات شكل الدين وأوضاعه وطبيعة الآلهات المقدسة. وقد وجدت شروحات في أدب أحد البلدان عن الدين أو عن آلهات في بلدان أخرى. والأهم هو التحقق أن أساطير كل ثقافة تفسر أصولها لم تكن دائماً هي الأقدم. نسخ أكثر جدة حلت محل النسخ السابقة وأزاحتها، ومع ذلك تعلن صراحة أن «هذا ما حدث في بداية الزمن».

كتب البروفسور إدوارد تشيرا من جامعة شيكاغو عن الأسطورة البابلية لخلق الإله مردوخ السماء والأرض: إن «مردوخ، الإله الجديد لهذه المدينة الجديدة، لم يكن محقاً أبداً أن ينسب لنفسه مجداً في إنجاز هذا العمل العظيم.... لكن بابل في عصر حمورابي كانت عاصمة المملكة، فيستطيع مردوخ الذي استعادته جيوش حمورابي، أن يعلن الآن أنه الإله الأعظم في البلاد». وقد شرح البروفسور تشيرا أيضاً أنه في آشور، حيث صار الرب آشور تدريجياً الإله الأعلى قدم الكهنة الآشوريون التكريم لأشور وذلك عن طريق وضع اسم إلههم الخاص مكان اسم مردوخ، بكل بساطة. لكن عملهم لم يكن كاملاً ولم ينفذوه بدقة، ففي بعض الأماكن ظل اسم مردوخ يبرز.

في الصعوبات التي واجهتها لدى جمع المادة لم أستطع الاستفادة من الكتابات والتماثيل القديمة التي لابد أن تكون قد دمرت عن سابق قصد وتصميم. إن سجلات المواقف العدائية لليهودية والمسيحية والمحمدية (الإسلام) تجاه النتاج الإنساني المقدس للأديان التي سبقتها تدل أن ذلك قد حدث وعلى الأخص في مسألة الربة التي عبدت في كنعان (فلسطين). إن المذابح الدموية وتدمير التماثيل (أي الأصنام الوثنية) والمعابد مسجلة في صفحات من الكتاب المقدس بعد هذا الأمر الذي أصدره يهوه «تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سوارهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان» (تشية ١٢: ٢ - ٣) لاشك أن الهجمات المستمرة كما سجلها العهد القديم، دمرت كثيراً من المعلومات النفيسة التي لا يمكن استرجاعها.

وفي المراحل المتأخرة اشتهر المسيحيون في العالم كله بتدميرهم الأيقونات المقدسة

والأدب الذي ينتمي إلى ماسموه الأديان «الوثنية» أو «الكافرة». كتب البروفسور جورج ميلوناس أنه خلال حكم الامبراطور المسيحي ثيودوسيوس «بات المسيحيون وعلى الأخص في المدن الكبرى كأنطاكية والإسكندرية المضطهدين (بكسر الهاء - المترجم) وبات الوثنيون مضطهدين (بفتح الهاء - المترجم) فقد دمروا المعابد والأنصاب بالنار وأسأوا معاملة القائمين فيها والقيمين عليها». وبما أن عبادة الآلهة القديمة قمعت، وبما أن المعابد دمّرت أو أغلقت أو حولت إلى كنائس مسيحية، كما حدث باستمرار، فإن التماثيل والسجلات التاريخية أيضاً حطّمتها الآباء الإرساليون للمسيحية.

ومع أن التدمير كان ضخماً إلا أنه لم يكن شاملاً. فلحسن الحظ لم يروا كثيراً من الأشياء، وهي البقايا التي تخبر بلسانها الخاص عن طبيعة تلك الطقوس والمعتقدات «الوثنية» المرعبة. فالعدد الضخم لتشخيصات الربة التي اكتشفت في حفريات المراحل النيوليثية والتاريخية للشرقين الأدنى والأوسط يشير إلى المزايا الأثوية الواضحة لكل تلك التماثيل التي أزعجت المدافعين عن الإله الذكر. فمعظم «الأصنام الوثنية» ذات أثداء.

إن كتاب الكتاب المقدس اليهودي/ المسيحي، كما نعرفه حُرّفوا عن قصد الهوية الجنسية للمعبود الأنثوي الذي كانت تقدسه الشعوب المجاورة لليهود في كنعان وبابل ومصر. فالعهد القديم ليس فيه حتى كلمة واحدة عن «الربة». ففي الكتاب المقدس يشار إلى الربة باسم إيلوهيم، كجنس ذكري، ثم ترجم الاسم إلى كلمة الله. بيد أن قرآن المحمدين كان واضحاً كل الوضوح. فنحن نقرأ فيه «إن الله لا يحب الكافرين... إن يدعون من دونه إلا إناثاً» (الآية الأولى من سورة آل عمران ٣٢ والثانية من سورة النساء ١١٧ - المترجم).

وبما أن كمية كبيرة من المعلومات أمكن التقاطها من مكتبات الجامعة والمتحف، فقد واجهت مشكلة أخرى وهي الانحياز الجنسي والديني لكثير من الباحثين الموسوعيين في القرنين التاسع عشر والعشرين. إن معظم المعلومات المتاحة في كل من الأركيولوجيا والتاريخ الديني القديم جمعها وناقشها مؤلفون ذكور. إن السيادة المطلقة للباحثين الذكور، وحقيقة أنه تقريباً جميع الأركيولوجيين والمؤرخين واللاهوتيين من كلا الجنسين ترعرعوا في مجتمعات يطوقها الدينان اليهودي والمسيحي المتوجهان توجهاً ذكورياً كان لهما تأثير كبير في المضمون والسعة والقليل من المعلومات التي لا تستحق أن يشار إليها. كتب البروفسور ر. ك. هاريسون عن دين الربة: «هناك سمة

من أبرز سماته وهي سمة الفسق والفجور والعردة في طقوسه التعبدية» وعلى الرغم من اكتشاف معابد الربة في كل حفرة من الحفريات النيوليثية والتاريخية تقريباً، يكتب ويرنر ليلر أن الإلهة الأنثى عبدت أساساً على «الهضاب والتلال» فيردد بكل بساطة كلمات العهد القديم. وكتب البروفسور و. ف. أولبرايت، وهو أحد الباحثين الكتاب في أركيولوجيا فلسطين، عن الدين الأنثوي بأنه «عبادة ذات طبيعة معردة وميثولوجيا الفسق والعري الشهواني». وتابع فقال «وقد أحلت إسرائيل ببساطتها الرعوية وصفاء حياتها وحدانيتها الرفيعة وقانونها الأخلاقي الصارم محل تلك العبادة». ومن الصعب أن نفهم كيف يمكن تعديل هذه الكلمات أكاديمياً بعد أن نقرأ عن المذابح التي دبرها العبريون لسكان كنعان الأصليين والتي صورها سفر يشوع، وعلى الأخص من الإصحاح التاسع حتى الحادي عشر. ويوافق البروفسور س. ه. هوك في مجموعة مقالاته المعنونة «الأسطورة والشعائرية والملوكية» صراحة: «إنني أومن إيماناً راسخاً أن الله اختار إسرائيل لتكون أداة الوحي».

وقد كتب أولبرايت نفسه «غالباً ما يقال إن الصيغة العلمية للأركيولوجيا الفلسطينية أضعفتها المفاهيم الدينية المسبقة للباحثين الذين حفروا في الأرض المقدسة. حقاً إن بعض الأركيولوجيين قدموا إلى فلسطين بدافع اهتمامهم بالكتاب المقدس، وإن بعضهم تلقى تدريباً سابقاً باعتبارهم باحثين توراتيين». بعد ذلك ينطلق ليرفض هذا الاحتمال من الضعف، مقيماً نتيجته على حقيقة أن التواريخ المشيرة إلى المواقع ومنتجات فلسطين القديمة، من قبل الباحثين الذين ساهموا في الحفريات الأولى أثبتت أنها حديثة جداً وليست موهلة في القدم كما كان متوقعاً. إن مسألة ما إذا كانت أو لم تكن المواقف والعقائد الموروثة في تلك «المفاهيم الدينية المسبقة» المفترضة قد أثرت في تحليل وتوصيف الرموز والشعائر والطبيعة العامة للدين القديم لم تطرح حتى للمناقشة.

ينظرون إلى الدين الأنثوي في معظم النصوص الأركيولوجية باعتباره «عبادة الخصوبة» مما يكشف المواقف تجاه الجنسانية التي تتمسك بها مختلف الأديان المعاصرة وهذا ما يمكنه أن يؤثر في الكتاب. ولكن الحقيقة الأركيولوجية والميثولوجية لتقديس الإلهة الأنثى كخالقة ومقنونة للكون ونبية ومانحة المصائر الإنسانية ومبدعة وشفافة وصيادة وقائدة جريئة في المعركة، تبين أن «عبادة الإخصاب» قد تكون تبسيطاً كبيراً لمركب البنية اللاهوتية.

اهتممت أكثر بالدلالات، بالمعنى الضمني للمعنى وظلاله، فلاحظت أن كلمة

«عبادة» ذات الدلالات الضمنية الأقل دقة أو حضارة من كلمة «دين» كانت تقريباً تطبق على عبادة الآلهات الأثوية ليس من قبل كهنة الكنيسة بل من قبل الأركيولوجيين والمؤرخين المفترض أنهم موضوعيون. كانت الشعائر المرتبطة بيهوه (جيهوفا) اليهودي/ المسيحي دائماً توصف من قبل هؤلاء الباحثين باعتباره «ديناً». فلدى رؤيتهم كلمات من أمثال «الله» و«هو» فإنهم يكتبونها بحرف كبير بينما كلمات من أمثال «ملكة السماء» و«الربة» و«هي» تكتب بحرف عادي للدلالة على درجة أقل، فرحت أجرب عليها الطريقة الأخرى، فلاحظت كيف أن التغيرات الصغيرة تؤثر في المعنى كما تؤثر في الانطباع الانفعالي.

ضمن أوصاف المدن والمعابد المدفونة منذ أمد طويل كتب الأساتذة الأكاديميون عن الربة الفعالة جنسياً على أنها «غير خاصة» أو «عدوانية لا تحتمل» أو «خالية من الأخلاق» بينما الآلهة الذكور وصفت بأنها «مراحة» بل حتى «نشيطه». إن الطبيعة الجنسية الواضحة للربة متعارضة مع ألوهيتها المقدسة، مما حير في ذلك أحد الباحثين إلى أن استقر أخيراً على عنوان محير حقاً وهو البغي/ العذراء. إن النساء اللواتي اتبعن العادات الجنسية القديمة للإيمان بالربة عرفوا بلغتهن الخاصة باعتبارهن النساء المكرسات أو المقدسات أشاروا إليهن باعتبارهن «بغايا الطقوس». إن اختيار الكلمات هذه يكشف مرة أخرى أخلاقاً تحمل الأنانية العرقية وعلى الأخص تلك القائمة على مواقف توراتية. ومع ذلك فإن استخدام كلمة «بغاء» كترجمة لعنوان النساء اللواتي كن معروفات باسم قادش وقادش تعني المقدس، يدل على نقص استيعاب البنية اللاهوتية والاجتماعية التي حاول شرحها وتفسيرها أولئك الكتاب.

أوصاف الآلهات الأنثى باعتبارها خالقة الكون أو مبدعة أو مانحة الثقافة توجز فقط بسطر أو بسطرين، هذا إذا أُشير إلى ذلك، فالباحثون يتخلصون بسرعة من مظاهر الأنثى تلك كما لو كانت غير جديرة بالمناقشة. وعلى الرغم من حقيقة أن لقب الربة في معظم الوثائق التاريخية للشرق الأدنى هو ملكة السماء، فقد أصبر بعض الكتاب على تلقيها فقط «أم الأرض» الأبدية.

فالأنثى المقدسة التي احترمت كمقاتلة أو صيادة أو جنديّة بأسلة أو رامية سهام رشيقة وصفت أحياناً بأنها ذات صفات رجولية فيشيدون بذلك إلى أن قوتها وشجاعتها جعلتها نوعاً من النزوة أو الشذوذ الفيزيولوجي. فقد رفض ج. - مارينجر، بروفيسور أركيولوجيا ما قبل التاريخ فكرة أن تكون جماجم الأيائل تذكارات صيد ل قبيلة بليوليثية. ما السبب؟ لأنها وجدت في قبر امرأة. يكتب «الهيكل العظيم هنا هو

لامرأة، مما يجعلنا نستبعد احتمال أن تكون جماجم الأيائل وقرونها ذكريات صيد. ألا يحكم هؤلاء المؤلفون على طبيعة النساء الجسدية الموروثة وفقاً لمثل الطراز الغربي الهشة والهزيلة في هذه الأيام؟

وبالتالي فإن كاهنات الربة، اللواتي يقدمن المشورة والإرشاد في معابد حكمتها النبوية وصفن بأنهن ملائمت لهذه المهمة باعتبار النساء أكثر «استبصاراً» أو «انفعالية» فيصلحن كوسائل ملائمة للإلهام الإلهي. وهؤلاء الكتاب أنفسهم يحملون الأهمية السياسية للنصيحة المقدمة أو إمكانية أن تكون هؤلاء النسوة قد حظين بالاحترام باعتبارهن حكيما وعارفات قادرات على تقديم المواقف المرشدة الأساسية. ومما يثير الغرابة أنهم لا يشيرون أبداً إلى هذه الصفات الانفعالية أو القوى الاستبصارية عندما يجري الحديث عن الأنبياء الذكور ليهوه. وقد علّق غير هارد فون راد «... كانت النساء دوماً هن اللواتي يظهرن ميلاً إلى العبادات التنجيمية الغامضة».

وعندما يجري نقاش عن الآلهة الأنثوية والذكورية فإن كلمة «الأرباب» المفضلة على «الآلهة» هي التي يختارها كتاب الدين القديم المعاصرون. إن الترجمات المتضاربة حتى البسيطة منها، من ترجمة درايفر «لقد كنس من الحقول النساء جامعات القضبان» حتى ترجمة غراي «كان يطوف في الحقول ويساعد النسوة الحاطبات» تطرح أسئلة عن دقة استخدام بعض الكلمات المختارة في الترجمات. صحيح أن اللغات القديمة هي لغات من الصعب تماماً حلّ ألغازها ومن ثم ترجمتها إلى كلمات وجمل معاصرة. في بعض الحالات هناك كمية معينة من التخمين الثقافي تبرز أماننا، وهذا مفيد مؤقتاً، ولكن هنا قد تطفو على السطح المواقف التي تشكلت سلفاً.

ولسوء الحظ هناك أمثلة من الترجمات غير الدقيقة والتعليقات والافتراضات والتأملات المنحازة التي اختلطت اختلاطاً بريئاً في تفسيرات مواقف وعقائد العصور القديمة. إن الانحياز الذكوري، مع المواقف الدينية المسبقة التصور الذي يظهر في كل من المسائل الكبيرة والصغيرة يطرح بعض الأسئلة الملحة جداً والهامة بصدد موضوعية تحليل المادة الأركيولوجية والتاريخية المتاحة في الوقت الحاضر. إنه يقتضي إعادة اختبار النظريات والنتائج المسلم بها منذ أمد طويل وإعادة تقييمها حيثما تشير الدلائل الفعلية، ومراجعتها.

في عام ١٩٦١ قام بوصف سلسلة من الأخطاء البروفسور ولتر أميري الذي أسهم في حفريات بعض القبور المصرية القديمة. يخبرنا أن «الوضع الزمني وحالة ميراث -

نيت غير مؤكدين لكن هناك سبباً لافتراض أنها قد تكون خليفة زير والحكم الثالث للأسرة الأولى» ويكتب السير فلنדרزبيري عن حفر هذا القبر فيقول «في عام ١٨٩٦ اكتشف دي مورغان، ثم مدير مصلحة العاديات في النجادة قبراً عملاقاً قيل من جملة ما قيل، إنه كان مدفن حورآح، أول ملك في الأسرة الأولى. لكن أبحاثاً متأخرة يثبت أن الأرجح أن يكون ضريح نيت - حوتيب والدة حور - آح». ويخبرنا أيضاً أنه «على صولجان نارمر هناك شكل موضوع في محفة مظلمة اعتقد أول الأمر أنه لرجل، ولكن مقارنته بأشكال مشابهة محفورة في الخشب المجلوب من سقارة أظهرت أن هذا غير محتمل وأنه يمثل امرأة بالتأكيد». ولكن على الرغم من سجلاته الخاصة لهذه السلسلة من الافتراضات أن أدوات الدفن الغنية والمحفات الملكية في الماضي كانت للرجال، أكثر مما كانت للنساء، يعود ويصف قبر الملك نارمر فيقول «إن هذا الصرح هام بالمقارنة مع قبر نيب - حوتيب في النجادة، ولا نستطيع إلا أن نستنتج أن هذا كان قبر الملك الجنوبي وأن مكان المدفن الحقيقي ما يزال قيد الاكتشاف...» ومع أن بعض الفراعنة لم يشيدوا قبرين، فإن المرء قد يتوقع نتيجة مطلقة وانصرافاً ضمناً عن احتمال أن يكون قبر الملكة في تلك المرحلة من السلالات المصرية الأقدم، أكبر من قبر الملك وأغنى زينة وفخامة.

وصف أ. أناتي في كتابه «فلسطين قبل العبريين» فئة من الأسويين وصلت مصر. وفي هذا الوصف يشرح أن الرجال هم الذين وصلوا وأحضروا معهم بضائعهم وقرودهم وزوجاتهم وأولادهم وأدواتهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية. ووصف أناتي لأقدم ظهور للربة لا يقل توجهاً ذكورياً عن ذلك. يكتب «كما خلق هؤلاء الرجال في العصر البابليوني الأعلى شكلاً أنثوياً يمثل الربة تمثيلاً واضحاً أو يمثل الخصوبة... فالمضامين السيكلوجية للربة الأم هي على درجة كبيرة من الأهمية... فهناك نجد صورة للرجل المفكر، لرجل ذي منجزات عقلية مثلما هو ذو منجزات مادية أيضاً» ألا يمكن أن تكون الجدات الأنثويات لأولئك النساء اللواتي جُعِلَتْ أسماؤهن في قوائم مع القروود والبضائع الأخرى نساء مفكرات، نساء ذوات منجزات عقلية مثلما هن ذوات منجزات مادية؟

لاحظت الدكتوراة مرغريت موراي من جامعة لندن، لدى كتابتها عن مصر القديمة عام ١٩٤٩ أن كل سلسلة الأحداث التي تحيط بالعلاقات «الرومانتيكية» لكليو باترا التي حازت على عرش مصر بجدارة شرعية لم تفهم فهماً صحيحاً بسبب الانحياز الذكوري. وتستخلص أن «المؤرخين الكلاسيين، وقد تشربوا عادات الإرث الذكوري

والزواج الأحادي، إلى جانب النظر إلى النساء على أنهن من ملكيات رجالهن، أساؤوا تماماً فهم الأوضاع وبالتالي شرحوها للعالم شرحاً خاطئاً.

هذه أمثلة قليلة جداً من التحيزات الجنسية والدينية التي واجهتها. وكما يكتب سيروس غوردون، بروفيسور دراسات الشرق الأدنى والرئيس السابق في جامعة برانديس في ماساشوستس «نحن نتلقف المواقف كما لو كانت موضوعاً من موضوعات عملية التعليم. وفوق ذلك فإن المواقف تتحدد بما نراه، وما نخفق في رؤيته، في الموضوع. وهذا هو السبب في أن الموقف هام كالموضوع في العملية الثقافية» أسئلة كثيرة ترد إلى الذهن. كم كان تأثير الأديان المعاصرة كبيراً في الباحثين الذين كتبوا النصوص المتاحة في هذه الأيام؟ كم وكما افترض الباحثون ببساطة أن الذكور لعبوا دائماً دوراً مهيمناً في القيادة والابتكار الإبداعي، وأسقطوا هذا الافتراض على تحليلهم الثقافات القديمة؟ لماذا يفكر كثير من الناس المثقفين في هذا القرن بأن الثقافة اليونانية الكلاسية هي أول ثقافة كبرى في حين دخلت اللغة المكتوبة في الاستخدام وشيدت المدن الكبرى قبل هذا الوقت بخمسة وعشرين قرناً على الأقل؟ والأهم من ذلك لماذا دائماً نستنتج أن عصر الأديان «الوثنية» عصر عبادة الآلهة الأنثوية (هذا إن أشير أصلاً إليهن ولو إشارة) كان عصر ظلام وفوضى، عصرًا سرائياً شيطانياً، من دون أي رؤية أو عقلانية تلصقان افتراضاً بالأديان الذكورية المتأخرة، في حين ثبت أركيولوجياً أن أقدم قانون وحكومة وطب وزراعة وعمارة وتعدين وعربات ذات دواليب وسيراميك ونسيج ولغة مكتوبة قد تطورت في المجتمعات التي كانت تعبد الربة؟ ربما نجد أنفسنا مندهشين من الأسباب التي أضاعت ببساطة المعلومات التي كانت متاحة عن مجتمعات عبادت لآلاف السنين الخالقة القديمة للكون.

وعلى الرغم من العقبات الكثيرة نقبُت وجمعتُ المعلومات الموجودة وبدأت أقارن وأربط بين ما جمعت. وإذا أخذت على عاتقي هذه العملية فإن أهمية وقلم وتعقيد هذا الدين الذي كان في الماضي بدأت تتكشف أمامي. والأغلب أن أعثر على إشارة للربة، وجزء من الليجندة، ومرجع غامض بين أربعمئة أو خمسمئة صفحة من مؤلفات الباحثين. موقع معبد مهجور في كريت أو تمثال في المعرض في أستانبول مع قليل من المعلومات المرافقة أو لاشيء... بدأت أجد موقعه في اللوحة العامة.

بذلت جهوداً لأجمع كل ذلك معاً، ثم بدأت أخيراً استوعب الواقع بمجمله. لم يكن مجرد مخطوط لصلاة قديمة، ولا مجرد أثر فني يجثم على رف المتحف خلف

الزجاج، كان أكثر من حقل معشب مع أجزاء من الأعمدة المكسورة أو كان أحجاراً أساسية دعمت في يوم من الأيام معبداً قديماً. وبوضع هذه القطع جنباً إلى جنب انكشف اللغز عن بنية شاملة لدين كبير منتشر انتشاراً جغرافياً واسعاً أثر في أعداد ضخمة من الناس عبر آلاف السنين. ومثل أديان هذه الأيام، كان ديناً متكاملأ في نماذج وقوانين المجتمع، فالأخلاق والمواقف مرتبطة بتلك العقائد اللاهوتية ووصلت إلى الأعماق حتى العقول المتشككة أو الملحدة.

أنا لا أدعو إلى عودة الدين الأنثوي القديم ولا إلى بعثه. ولكن كما كتبت شيلدا كوليتز «أملنا كنساء إما يكمن في الحاضر والمستقبل وليس في الماضي الميثولوجي الذهبي...» وإني أمل أن نستخدم الوعي المعاصر لتقديس الإلهة الأنثى كخالقة حكيمة للكون وكل مظاهر الحياة والحضارة والذي كان منتشرأ في يوم من الأيام، لوقف القمع والتزيف في الصور الرجولية والمبالغات والعادات والقوانين التي تطورت كبردة فعل على عبادة الرببة من قبل قادة الأديان الذكورية المتأخرة. ولسوف أظهر أن الأكاذيب الأيديولوجية للمدافعين عن الآلهة الذكور المتأخرين قد فرضت على العبادة القديمة بقصد تحطيمها وتحطيم عاداتها التي ماتزال باقية في الثقافة والقانون والأدب والاقتصاد والفلسفة والسيكولوجيا ووسائل الإعلام والمواقف الإعلامية العامة، بل فرضت حتى على اللادينيين في هذه الأيام.

ولا أنوي تحقيق ذلك كنص أركيولوجي أو تاريخي. إنها دعوة إلى كل النساء للاشتراك في البحث لمعرفة من نحن حقاً، فنبداً بمعرفة لإرثنا الماضي بإعتباره أكثر من شذرة محطمة ومدفونة في حضارة الذكر. علينا البدء بإزالة الغموض في دراسة الأركيولوجيا والدين القديم، واكتشاف الماضي بأنفسنا من دون الاعتماد على الشروح والتفسيرات والترجمات والآراء والتصريحات التي قدمت لها. وعندما نجمع المعلومات سوف نكون في وضع أفضل لفهم وشرح الاتراضات الخاطئة في الأنماط المكررة المبتذلة التي ابتدعت للنساء كي يوافقن ويتبعن الادعاءات الواردة في الأديان ذات التوجه الذكوري ذلك أن أي ميزة خاصة، وفقاً للكلمة المقدسة، كانت عادية أو طبيعية بينما أي انحراف هو عام وغير أنثوي بل آثم أيضاً. وكما أن كثيراً من عقائد اللاهوتيات اليهودية/ المسيحية يُنظر إليها في ضوء نشأتها السياسية وفي تسرب هذه العقائد لتكون أساساً في فهم الحياة الدنيوية، فإننا كنساء سنكون قادرات على رؤية أنفسنا كائنات بشرية ناضجة تعتمد على ذاتها. بهذا الفهم نصبح قادرات على النظر إلى أنفسنا ليس كمساعدات دائمت بل كفاعلات، ليس كداعمات مزركشة

ومناسبة للرجال، بل كأفراد نساء مسؤولات عن حقهن. إن صورة حواء ليست صورتنا عن المرأة.

كما أن هذا البحث دعوة إلى كل الرجال - أولئك الذي تساءلوا عن الأسباب الكامنة وراء أدوار الإناث وصورهن ووراء أدوار الرجال وصورهم في المجتمع المعاصر، وإلى أولئك الذين لم يدرسوا الموضوع من قبل. دعوة تصل إلى حد الأمل بأن نعي الأصول التاريخية والسياسية للكتاب المقدس، والدور الذي لعبته اللاهوتيات اليهودية /المسيحية في صياغة الموقف تجاه النساء والرجال في هذه الأيام، فذلك يؤدي إلى فهم أكبر وتعاون أوثق واحترام متبادل بين النساء والرجال أكثر مما هو الآن. وبما أن الرجال يهتمون بتحقيق هذا الهدف، فإن اكتشاف الماضي يقدم فهماً أعمق وأكثر واقعية للأنماط المكررة الجنسية لهذه الأيام وذلك بإخضاعها لمنظور تطورها التاريخي.

وكما في كل عمل ضخم أو دراسة هامة يكون ثمة كثير من الناس الذين يقدمون المساعدة خلال العمل، وإني مدينة لهم بالتقدير الكبير. أولاً أريد أن أشكر والدتي وأختي وابنتي لتشجيعهن العاطفي لي طيلة سنوات البحث. كما أود أن أعبر عن امتناني لكارمن كاليل وأورسولا أوين من هيئة «فيراغوليمند» القسم النسوي في «كوارتيت بوكس ليمند» في لندن، اللتين انفقنا وقتاً طويلاً وجهداً واهتماماً شخصياً بتحرير الأصل ونشر الكتاب في انكلترا، وإلى جويس أنجلسون وديرا مانيت ودونا شردر وأن كرونهاس وكل الآخرين في دار ديال الذين بدورهم قدموا إسهاماً كريماً لهذه الطبعة. وبعد هؤلاء ثمة مدرء المتاحف وهيئات المتاحف وأمناء مكاتب المتاحف والجامعات والعاملون في مواقع الحفريات، فهم من الكثرة بحيث ترددت في إعلان أسمائهم خوفاً من أن أنسى اسماً لأحدهم، فهم جميعاً قدموا مساعدة جلى. ثم هناك الأركيولوجيون والمؤرخون الذين استخدمت كتبهم. (هناك الكثير منهم ممن وجدت لديهم شذرات خاطفة وحتى أولئك الذين عمدوا إلى تجاهل وجود إلهة أثنى). ومع أن بعض التعليقات والاستنتاجات سببت لي رعباً غريباً بأن هيمنة الذكر هي هيمنة طبيعية، فإن كتبهم في اكتشاف وتفسير نتائج الماضي جعلت كتابي هذا ممكناً. وكلني أمل بأن ماقلته وما سأقوله في بقية هذا الكتاب، سوف يترك بعض التأثير في إدراكهم المستقبلي لعابدي الرتبة.

إن المؤلفات الكريمة لستيفن لونغدون ويراندون وأدوارد شيرا وميروس غوردون وولتر هنز و ا. و. جيمس وجيمس ميلارت وه. و. ف. ساغس وج. ب. بتشارد و

ر. ا. ويت هي مؤلفات ذات فائدة خاصة. ولكني أولاً أقدم شكري للأساتذة النساء من أمثال المرحومة مارغريت موراي والمرحومة جيني هاريسون وأ. دوغلاس فان بيرنز وسيبيل فون كليس ريدن وفلورنس بينيت وريفكا هاريس وجاكيثا هوكس، فأنا مدينة لهنّ لتقديمهنّ معلومات هامة جداً مع إدراك فريد من نوعه، وبالتالي لتشجيعي على مسألة الموضوعية فيما كتبه الآخرون، ولإرشادي السير في المادة فاصلة بين الرأي والواقعة - وربما الأهم من ذلك - أن ألاحظ ما جرى إهماله.

ومع أن الأركيولوجيا والدين القديم يبدوان حقلين منفصلين أشد الانفصال أو يبدوان حقلين غامضين، فإنني آمل أن يشجع كتابي الناس على اكتشاف هذه الموضوعات بأنفسهم، بحيث أننا في يوم ما قد نفهم أحداث الماضي بصورة أفضل، ونقدم ما كان مهملاً أو مخبوءاً عن عمد تقديماً علنياً فتتحدى بذلك الكثير من الافتراضات الهشة التي تجاهلت الوقائع.

الفصل الأول

حكايات مع وجهة نظر

مع أننا نعيش وسط أبنية فولاذية سامقة وتجهيزات مطبخية فورميكية وشاشات تلفزيونية الكترونية، ثمة شيء مافينا، نساء ورجالا، يجعلنا نربط بالماضي ارتباطاً عميقاً. ربما رطوبة مفاجئة لكهف شاطلي أو حزم أشعة الشمس التي تتخلل أوراق الأشجار الكثيفة في أيكة ظليلة من الأشجار الباسقة توقظ في أعماق عقولنا الخبيثة أصداء العصر القديم والقصي، فتعيدنا إلى الآثار الأولى للحياة البشرية على هذا الكوكب. وبما أن الناس ترعرعوا وربوا على أديان اليوم الأبوية، الأديان التي تؤثر فينا حتى في معظم الأركان الدنيوية لمجتمعنا فربما ظلت هناك ذاكرة حائرة وعميقة للمقامات والمعابد المقدسة التي تشرف عليها الكاهنات اللواتي كن يخدمن في دين الإلهة الأصلية الرفيعة. في البدء صلى الناس لخالقة الحياة، لسيدة السماء. وفي فجر الدين كان إله امرأة. فهل تذكرون ذلك؟

منذ سنوات شعرت أن شيئاً ما يغريني في اكتشاف الليجنادات ومواقع المعابد والتمائيل والطقوس القديمة للآلهات الإناث، فجزني خلفاً إلى عصر كانت فيه الربة فائقة القدرة، وتعمل فيه النساء ككاهنات لها، يشرفن على شكل الدين وطقوسه.

ربما كانت خبرتي وعلمي كنتاجة دفعتني إلى تقصي منحوتات الربة الموجودة بين بقايا مذابح ماقبل التاريخ والمساكن الأولى للكائنات البشرية. ربما كانت نزعة صوفية رومانتيكية تلبستني في يوم ما، ولكنني اعترف الآن بكل سرور، أنها قادتنني عبر سنوات إلى إعادة جمع المعلومات عن أديان الأنثى القدسية وتقديس الآلهات الإناث. وحاولت مراراً التخلص من إعجابي بهذا الموضوع على أساس أنه موضوع خيالي ولا يرتبط أبداً بعلمي (كنت أبنى وقتها محيطاً نحتياً الكترونياً) - على أي حال وجدت نفسي دائماً أتابع الصحف الأركيولوجية واستنطق النصوص في المتاحف وأكروام المكتبات الجامعية.

وإذ كنت أقرأ تذكرت أنني في زمن ما من حياتي أخبروني - ووافقت على الفكرة - أن الشمس العظيمة والقوية عبدت باعتبارها ذكراً، بينما قدس القمر الرمز الغامض واللطيف للحب باعتباره أنثى. وكما أدهشني أن أكتشف سجلات عن ربّات الشمس في بلاد كنعان والأناضول والعربية وأستراليا بينما ربّات الشمس لدى شعوب الاسكيمو واليابان وخاسيس الهند كن مصحوبات باخوة تبعلهن كنّ رمزاً للقمر.

كما تمثلت يوماً ما فكرة أن الأرض متوحدة بالأنثى «الأرض الأم» التي تلقت تلقياً سليماً البذور، بينما كانت السماء على نحو طبيعي وموروث ذكراً فدخلت مرموزات قدرته الذكورية في المفاهيم المجردة. كما وافقت على هذا من دون طرح أي سؤال - إلى أن علمت أن كل الآلهات الإناث تقريباً في الشرقين الأدنى والأوسط كنّ يلقبن بملكة السماء. ليس هذا وحسب بل في مصر عرفت الربة القديمة نوت بأنها تمثل السموات بينما ابنها/ زوجها جيب كان يرمز للأرض.

والأدهش من ذلك كله هو اكتشاف سجلات كثيرة عن الخالقات الإناث لكل الوجود، وهن آلهات عزى إليهن ليس فقط خلق الشعوب الأولى، وإنما خلق كل الأرض وفوقها السموات. وهناك سجلات لهؤلاء الربّات في سومر وبابل ومصر وإفريقيا وأستراليا والصين.

في الهند كانت الربة ساواسفاتي تكرم باعتبارها مخترعة للأبجدية الأولى، بينما في إيرلندا الكلتية احترمت بريجيت باعتبارها الإلهة الكبرى للغة. وكشفت النصوص أن الربة نيدادا في سومر هي التي كرمت باعتبارها إحدى اللواتي كن من أوائل من اخترع الألواح الطينية والكتابة. لقد ظهرت في هذا الموقف قبل أي إله ذكر حل محلها فيما بعد. إن الكتابة الرسمية للسماء السومرية كانت امرأة. والأهم من ذلك أن الدليل الأركيولوجي عن الأمثلة الأولى للغة المكتوبة المكتشفة وجد أيضاً في سومر، في معبد ملكة السماء في أريك، فقد كتبت هذه الأمثلة هناك منذ أكثر من خمسة آلاف سنة. ومع أن للكتابة يقال عنها عادة إنها من صنع الرجل، ومهما جرى السعي لتأكيد ذلك، فإن مجموعة العوامل المذكورة أعلاه تقدم دليلاً مقنعاً أن المرأة كانت فعلاً هي التي نقشت العلامات الدلالية الأولى للغة في الطين الرطب.

وتماشياً مع هذه النظرية المقبولة عموماً بأن النساء كن مسؤولات عن تطوير الزراعة، باعتبارها امتداداً لنشاطات جني الثمار، فإن آلهات إناثاً في كل مكان

يُعزى إليهن تقديم هذه الهبة للحضارة. في بلاد ما بين النهرين، حيث عثرنا على بعض الأدلة للتطور الزراعي، قدمت الربة ننيل لأنها قدمت لشعبها المعلومات الأولى عن طرائق الزراعة والحصاد. وفي كل مناطق العالم تقريباً مجدت الآلهات الإناث باعتبارهن شافيات يهين الأعشاب والجذور والنباتات والوسائل الطبية الأخرى عن طريق الكاهنات اللواتي يلتحقن بالمقامات فيقمن بدور الأطباء لكل من يتعبد هناك.

بعض الليجنندات وصفت الربة على أنها محاربة قوية شجاعة، على أنها قائدة في المعركة. إن عبادة الربة باعتبارها محاربة جريئة هو المسؤول على ما يبدو عن التقارير الكثيرة التي أخبرتنا عن الجنود الإناث، والتي أشار إليهن الإغريق الكلاسيون على أنهم الأمازونيّات. إن الدراسة العميقة للتقدير الذي تكنه الأمازونيّات للإلهة الأنثى تبين بوضوح أن النساء اللواتي عبدن ربة محاربة كن يصطلن ويحاربن في ديار ليبيا والأناضول وبلغاريا واليونان وأرمينيا وروسيا وكن أبعد ما يكون عن الخيال الأسطوري مما جعلنا كثير من كتاب اليوم تؤمن بهن.

ولا أستطيع أن أقدر مدى بعد الصور المعاصرة عن صور ما قبل التاريخ ومعظم المواقف التاريخية القديمة تجاه القدرات الفكرية والعقلية للنساء، إذ في كل مكان تقريباً بُجلت الربة كمستشارة ونبيه حكيمة. فسردين الكلتية كانت ربة الثقافة والمعرفة في ليجنندات ليرلندا قبل المسيحية، فكاهنات الربة غايا قدمن صكمة الرؤيا المقدسة في حرمانات معابد ما قبل الإغريق، بينما ديمتر الإغريقية وإيزيس المصرية كان ينظر إليهما كمانحات للقانون ومنفذات عاقلات للحكمة والحق والمشورة والعدالة. وكانت الربة المصرية ماعت تمثل النظام الدقيق والإيقاع وحقيقة الكون. وكانوا يشيرون إلى عشتار ما بين النهرين على أنها مديرة ونبيه الشعب ومسيدة الرؤيا بينما السجلات الأركيولوجية لمدينة نمرود، حيث تعبد عشتار، كشفت أن النساء استخدمن كقضاة ومستشارات في المحاكم القانونية.

وكلما قرأت أكثر اكتشفت أكثر. فعبادة الآلهات الإناث في كل منطقة من العالم تمثل صورة للمرأة لم أصادفها من قبل. ونتيجة ذلك بدأت أتأمل قوة الأسطورة وأدرك تدريجياً هذه الليجنندات باعتبارها أكثر من حكايات طفولية بريئة كما تظهر للوهلة الأولى. إنها قصص مع وجهة نظر معينة.

فالأساطير تقدم أفكاراً ترشد الإدراك وتفرض علينا أن نفكر ونلمس بطريقة

خاصة، وعلى الأخص عندما نكون يافعين تأثرين. والأرجح أن تصور افعال الناس الذين كوفروا أو عوقبوا لسلوكهم، وإننا لنجرؤ أن ننظر إلى هذه كأمثلة نفتديها أو نتجنبها. وهكذا فإن كثيراً من القصص تخبرنا من الأزمنة القديمة بما يكفي لأن نفهم مواقفنا ونستوعب العالم حولنا ونتعرف على أنفسنا. فأخلاقنا ومواقبنا وسلوكنا وقيمنا وحس الواجب وحتى حس المرح تتطور عادة من الحدودات والخرافات الطفولية. فمنها نتعلم ما يقبل اجتماعياً الآن من المجتمع الذي جاءتنا منه. إنها تحدد الخير والشر، والصواب والخطأ وما هو طبيعي وما هو غير طبيعي لدى أناس ينظرون إلى الأساطير أنها ذات معنى. ومن الواضح أن الأساطير والليجنندات التي نشأت من - ورؤجت ل - دين إلالة إثنى، بُجّلت كحكيمة ومقدامة وقوية وعادلة كما قدمت صوراً مختلفة جداً للرجولة التي تلقيناها على يد الأديان ذات التوجه الذكوري في هذه الأيام.

أسبوعان بعد خلق الكون:

كلما فكرت في سلطة الأسطورة تعاظمت صعوبة تجنب التساؤل عن التأثيرات الكثيرة التي تركتها تلك الأساطير المصاحبة للأديان التي تعبد الآلهة الذكور على تصوري بما تعنيه أنني ولدت امرأة، حواء أخرى، جدة إيمان طفولتي. أخبروني وأنا طفلة أن حواء صنعت من ضلع آدم، وخلقت لتكون رفيقة حياته ومساعدته ومؤنسة وحدته. وكما لو كان هذا التعيين للرفيقة الثانية الدائمة التي لم تخلق لتكون قائدة، غير كاف للضغط على خططي المستقبلية كعضوة فعالة في المجتمع، علموني أيضاً أن حواء كانت غيبية حمقاء. وشرح لي من هم أكبر مني سنأ أنها خدعت بسهولة بوعود الأنفى الغادرة. لقد عصت الله وحرضت آدم على العصيان ذاته وبذلك دمرت الشيء الجميل - وهي الحياة المباركة السابقة في جنة عدن. أما لماذا لم يظنوا أن آدم بالمقابل هو مخلوق أحمق أيضاً فإنها مسألة لا تستحق النقاش. ولكن بما أنني متوحدة بحواء التي قدمت كرمز لكل النساء، فإن اللوم يقع علي بطريقة غامضة - فقد رأى الله أن خطيئتي كانت سبباً لكل شيء فاختر عقابي بقراره: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك (تكوين: ١٦).

وحتى عندما كنت فتاة صغيرة علموني أنه بسبب حواء سوف أحمل عندما أكبر أولادي بأوجاع وآلام. وكما لو أن هذا ليس جزاء كافياً، إذ بدلاً من تعزيتي أو

التعاطف معي أو الإعجاب بشجاعتي كان علي أن أعاني الآلام مع الذنب، خطيئة الشر الذي يقع علي كعقاب لمجرد كوني امرأة، ابنة حواء. وزيادة في السوء يفرضون علي أن أقبل أن الرجال كرمز لآدم لابد أن يسيطروا علي - ان يحكموني. وتمشياً مع الإله الذكري الكلي القدرة الذي أتوقع منه الحق والكلمة لأعجب به واحترمه بورع وقور فإن الرجال كانوا أكثر حكمة من النساء. وهكذا فرض علي الصبر والخنوع كأثني من الصفحة الثالثة من التوراة التي تشكل ألف صفحة وهي الكتاب المقدس اليهودي مسيحي.

إلا أن قانون سيادة الرجل كان بداية فقط. فالأسطورة تصف حماقة حواء بحيث لاتنسى هذه الحماقة ولا يمكن تجاهلها. ثم درسنا كلمات أنبياء العهد الجديد، الذين استغلوا مراراً وتكراراً ليجنّد الفردوس المفقود ليشرحوا، بل ليثبتوا أن النقص الطبيعي موجود في النساء إن الدروس التي ألقيت في جنة عدن كانت تؤثر فينا دائماً. الرجل خلق أولاً. المرأة خلقت من أجل الرجل. الرجل فقط خلق على صورة الله. ووفقاً للتوراة ولأولئك الذين يسلمون بها باعتبارها كلمة مقدسة فإن الإله الذكر يفضل الرجال والحقيقة أنه خلقهم متفوقين تفوقاً طبعياً. وحتى الآن لا أستطيع أن أخفي دهشتي كم وكم قرئت هذه المقاطع من العهد الجديد من موقع السلطة لمنبر الأحد أو من الكتاب المقدس العائلي الذي ينزله الأب أو الزوج من الرف - والمرأة الوريعة تصغي لـ:

لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تسلط على الرجال بل تكون في سكوت لأن آدم جبل أولاً ثم حواء وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي... (تيموثاوس الأولى ٢: ١١ - ١٤ والآية الأخيرة من هذا المقطع هي: ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبت في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل ونعتقد أن هذه الآية صدى للتربية اليونانية التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الأم - المترجم).

لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل لتصمت نسائكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل أن يخضعن لما يقول الناموس أيضاً. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلمن في الكنيسة (كورنثوس الأولى ١١: ٣ و ٧ و ٩. والمرجعية الصحيحة هي ما يلي: كورنثوس الأولى ١١: ٨ و ١٤: ٣٤ و ٣٥ - المترجم).

والغريب أنني لم أصبح متدينةً جداً، على الرغم من الجهود المستمرة لأساتذة مدرسة الأحد. والحقيقة أنني عندما بلغت سن المراهقة رفضت كل ما قدمته لي الأديان. ولكن هناك شيئاً ما عن أسطورة آدم وحواء ما يزال قائمة ويتخلل الثقافة في مستواها الأشد عمقاً. إنها تظهر وتعود إلى مثل أساس رمزي للأشعار والروايات. لقد شرحت لي مرئياً في لوحات اساتذة الفن الزيتية العظيمة التي تبرز من الأضواء المسلطة في مراحل تاريخي الفني. وتشير دعابة المنتجات في المجلات الرفيعة أن اختيار المرأة للعطر المناسب يمكنها من تجنب الكارثة تماماً ودائماً. وحتى هذا كان أساس النكات المهينة في الرسوم المضحكة لمجلات الأحد. ويبدو أن المرأة في كل مكان تغري الرجل على ارتكاب الخطيئة. وقد وافق على ذلك كل مجتمعنا فأدم وحواء يمثلان صورة الرجال والنساء. فالنساء مغويات جنسياً إغواء خفياً مديراً خطيراً، ولكنها في الوقت ذاته حمقاء وخفيفة العقل. إنهن بحاجة ضرورية للرجل المتقدم ليحفظهن ضمن الأصول - ويبدو أن كثيراً من الرجال يرغبون في ذلك كما أشارت النصوص المقدسة.

وإذ بدأت الأساطير الأخرى التي تشرح خلق الحياة، والقصص التي تعزو هذا العمل إلى نوت أو حاتور في مصر، ونامور أو ننهورساغ في سومر ومامي أو تيامات أو أورورو في أجزاء أخرى لبلاد ما بين النهرين. وماوا في إفريقيا، صرت أرى أسطورة آدم وحواء على أنها خرافة مختلفة تماماً، ومحاولة غير بريئة لشرح ما حدث في البداية الأولى للوجود. ولكن ليس بعد ذلك بكثير بدأت أفهم كم كانت خبيثة تلك التفاصيل في هذه الأسطورة الخاصة.

في عام ١٩٦٠ علق المختص الميثولوجي جوزيف كامبل على أسطورة آدم وحواء فكتب:

«هذه الفكرة الميثولوجية الغربية، وما تزال حقيقة غريبة طويلة ألفتها عام قبلها فيه العالم الغربي كأنها سجل يعتمد اعتماداً مطلقاً على حادث يظن أنه وقع بعد أسبوعين من خلق الكون فتفرض بقوة مسألة في غاية الأهمية عن تأثير الميثولوجيات المراوغة والمعارضة بوضوح وتصرفات الميثولوجيا ببنية العقيدة البشرية ومجرى الحضارة الناجم عن ذلك».

ويشير البروفيسور شيرا أن «التوراة لاتقدم لنا قصة واحدة عن الخلق بل تقدم العديد منها، ويبدو أن القصة التي وردت في الإصحاح الأول من سفر التكوين هي التي

صارت النموذج الشائع بين عموم الناس... وقد دخلت دخولاً قوياً في دوائر البحث ثم يناقش الخلافات بين أديان هذه الأيام والعبادة القديمة فيقول:

«نبحنا منذ سنوات قليلة بجمع قطع من عدد ضخم من الألواح للحصول على القصة الكاملة لأسطورة سومرية قديمة. وقد اعتدت أن أسميها النظرية الداروينية للسومريين. فلا شك أن الأسطورة شاعت شيوفاً واسعاً لأن نسخاً كثيرة منها قد ظهرت إلى الوجود. وتتفق هذه الأسطورة مع قصة التوراة في أن المرأة تلعب دوراً مهيمناً، تماماً مثل حواء. لكن التشابه ينتهي هنا. فحواء المسكينة أدانتها كل الأجيال اللاحقة بسبب عملها، بينما أله البابليون جدتهم المرأة الأولى تأليهاً كبيراً.

وكلما قرأت الآن الأساطير الأخرى تلك، اتضح لي أن المرأة النمطية الكبرى في الأديان القديمة، كما مثلتها الربة، كانت مختلفة تماماً، من عدة وجوه عن المرأة حواء. ثم إنني لاحظت أن كثيراً من ليجندات النشأة والتكوين جاءت من أرض كنعان ومصر وبابل، وهي تماماً الأرض التي نشأت فيها أسطورة آدم وحواء. والليجنادات الأخرى عن الخلق جاءتنا من الأدب الديني الأسطوري لشعب لم يعبذيهوه (جيهوفا) العبريين، وإنما كان أقرب جيران أولئك العبريين الأوائل.

الفصل الثاني

من كانت؟

لم تكن فترة طويلة قبل أن تأخذ القطع المختلفة للدليل مكانها وقبل أن تأخذ التواصلات شكلاً. عندئذ فهمت. فعشتاروت الإلهة «الوثنية» التي يحتقرها العهد القديم هي (برغم الجهود التي بذلها الكتبة التوراتيون في استخدام الجنس المذكور لحو هويتها) هي عشتارتي - الربة العظيمة، كما عرفت في كنعان وملكة سماء الشرق الأدنى. فهؤلاء المتعبدون الوثنيون في التوراة كانوا يؤدون صلاتهم لإله امرأة - وكانت تعرف بحسب الأمكنة: اينين، ايتانا، نانا، نوت، أنات، أناتاليا، عستار، إيزيس، أوسيت، أشيرا، عشتارت، أتوريت، أثار، حاتور - الجدة المقدسة الكثيرة الأسماء. ولكن كل اسم من هذه الأسماء، في اللغات واللهجات للأقوام التي يقدمونها، يدل على الربة العظمى. فهل كان مجرد مصادفة أنه خلال كل هذه السنوات في مدرسة الأحد لم أتعلم أن عشتاروت كانت امرأة؟.

ومما يشير الدهشة أن الدليل الأركيولوجي الذي أثبت أن دينها كان موجوداً وانتعش في الشرقيين الأدنى والأوسط لآلاف السنين قبل وصول ابراهيم الأبوي، أول نبي مذكر للإله يهوه. لقد تتبع الأركيولوجيون عبادة الربة حتى المجتمعات النيوليثية ٧٠٠٠ قبل المسيح تقريباً، وبعضهم وصل إلى الثقافات الباليوليثية العليا ٢٥٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. ومن نشأتها النيوليثية تكرر ظهورها حتى العصور الرومانية. ومع ذلك فإن باحثي التوراة يوافقون أن إبراهيم عاش في كنعان (فلسطين) بين ١٨٠٠ - ١٥٥٠ قبل المسيح.

من كانت هذه الربة؟ لماذا أنثى، وليس ذكراً، رُفعت إلى مصاف الإلهة العليا؟ فما أهمية عبادتها وانتشارها، ومتى بدأت هذه العبادة حقاً؟ وإذا أُلقي على نفسي هذه الأسئلة، أذهب في السير بعيداً في العصور النيوليثية والباليوليثية. ومع أن الربة قد عبت في كل أصقاع العالم، فقد ركزت اهتمامي على الدين كما تطور في الشرقيين الأدنى والأوسط، لأن هذه المنطقة كانت أرضاً لولادة اليهودية والمسيحية والإسلام.

وقد وجدت تطور دين الإلهة الأنثى في هذه المنطقة متداخلاً مع البدايات الأولى للدين كما تم اكتشاف ذلك في كل مكان في الأرض.

الفجر في جنة عدن الباليوثية العليا:

المرحلة الباليوثية العليا، وإن اكتشفت مواقعها في أوروبا، فإنها الأساس التخميني لدين الربة كما ظهرت في العصر النيوليثي في الشرق الأدنى. وبما أنها سبقت عصر السجلات الكتابية ولم تفض مباشرة إلى مرحلة تاريخية تساعد على تفسيرها، فإن المعلومات عن الوجود الباليوثي لعبادة الربة في هذا العصر تبقى معلومات تأملية. إن نظريات نشأة الربة في هذه المرحلة موجود بجوار عادات الأمومة في عبادة الجدود. وهي نظريات قائمة على ثلاثة اتجاهات منفصلة عن بعضها كأدلة.

الاتجاه الأول يقوم على التشابه الانتروبولوجي في شرح التطور الأولي للمجتمعات الأمومية (الانتماء إلى الأم) وأدت دراسات القبائل «البداية» في القرون القليلة الماضية إلى التحقق أن بعض الشعوب «البداية» المنعزلة، حتى في قرننا، لم تمتلك الفهم الواعي لعلاقة الجنس بالحمل. فالتماثل يدل على أن الشعب الباليوثي قد يكون في مستوى مشابه من الوعي البيولوجي.

ككتب جاكيتا هوكس عام ١٩٦٣ أن «... الشعوب الاسترالية وقلة من الشعوب البدائية الأخرى لم تفهم الأبوة البيولوجية أو توافق على رابطة ضرورية بين الجماع الجنسي والحبل». وفي السنة ذاتها لاحظ البروفسور س. ج. ف. براندون، أستاذ الدين المقارن في جامعة مانشستر في انكلترا «كيف يكون الطفل في الرحم كان شيئاً سرياً عند الرجل البدائي... حسب نظرة المرحلة التي تفصل بين التلقيح والولادة فمن المحتمل أن أهمية الحمل والولادة معروفة قبل التحقق أن هذه الظواهر هي نتيجة الحمل الذي يعقب الجماع».

يكتب ليونارد كوتزل «جيمس فريزر ومرغريت ميد وبقية الأنثروبولوجيين أكدوا أنه في المراحل الأولى جداً لتطور الإنسان، قبل فهم سر الإنجاب البشري، قبل فهم ارتباط الجماع بالولادة، قدست المرأة باعتبارها واهبة الحياة. فالنساء وحدهن يمكنهن إنسال نوعهن، ولم يكن دور الرجل في هذه العملية معترفاً به».

وطبقاً لهؤلاء المؤلفين، وأيضاً لكثير من المؤلفين الذين كتبوا في هذا الموضوع، فإن البشر في كل المجتمعات البشرية القديمة لم يكونوا قد فهموا بعد فهماً واعياً علاقة الجنس بالتناسل. وبذلك فإن مفاهيم الأبوة لم تكن قد أدركت بعد. ومع كل

الشروحات الميثولوجية المختلفة المرافقة فإن الأطفال كانوا بكل بساطة يولدون من النساء.

فإن كانت هذه هي الحالة، إذن لابد أن يُنظر إلى الأم على أنها الأب الوحيد لأسرتها، على أنها منتجة الجيل التالي. ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يتخذ الأطفال اسم قبيلة الأم أو عشيرتها. فالتسلسل السلالي في الأسرة لابد من أن يظل ضمن خط المرأة، فينتقل من الأم إلى الابنة، وليس من الأب إلى الابن، كما هي العادة الجارية في المجتمعات الغربية في هذه الأيام. ويشار إلى هذه البنية الاجتماعية باسم الأمومة أي القائمة على النسب إلى الأم. ففي هذه الثقافات (الشائعة بين الشعوب «البدائية» حتى هذه الأيام وكذلك في المجتمعات التي برزت تاريخياً في عصر اليونان الكلاسيكي) ليس الأسماء وحسب بل أيضاً الألقاب والملكيات والحقوق الإقليمية تمر من خلال الخط الأنثوي بحيث تظل ضمن نطاق الأسرة.

تستنتج هو كس أنه في استراليا في المناطق التي لم يبرز فيها مفهوم الأبوة ولم يفهم «... هناك الكثير من الأدلة تبين أن السلالة الأمومية والزواج المحلي الأمومي (ينتقل الزوج إلى منزل أسرة زوجته أو قربتها) كانت عامة وكان وضع المرأة رفيعاً». وتكتب أن هذه العادات ظلت سائدة في أجزاء من إفريقيا وبين دراويد الهند وماتزال بقايا منها في ميلانيسيا وميكرونيسيا واندونيسيا.

والاتجاه الثاني للدليل يدرس بدايات المعتقدات والطقوس الدينية وارتباطها بالسلالة الأمومية. لقد كانت هناك دراسات عديدة عن الحضارات البليوليثية واكتشافات مواقع مأهولة بالسكان وشعائر ترتبط ارتباطاً واضحاً بدفن موتاهم. ويدل هذا أنها، وقد تطورت مفاهيمهم الأولى عن الدين، قد اتخذت شكل عبادة الأجداد. أيضاً هناك تماثل يظهر بين الشعب الباليوليثي والمفاهيم والشعائر الدينية التي لوحظت بين كثير من القبائل «البدائية» التي درسها الأنثروبولوجيون في القرنين الماضيين. وعبادة الأجداد تظهر بين الشعوب القبلية في العالم كله. ويقول مارينجر إنه حتى زمن كتابته ١٩٦٥ كانت بعض القبائل في آسيا ماتزال تصنع تماثيل صغيرة تعرف باسم دزولي. ويشرح ذلك فيقول «فالوثان إناث وتمثل البدايات الأولى للقبيلة بكاملها».

وهكذا ما إن تطورت المفاهيم الدينية لأبكر إنسان عاقل حتى بدأ البحث عن المصدر المطلق للحياة (وربما هذا هو جوهر التفكير الميثولوجي). ففي هذه المجتمعات الباليوليثية العليا - التي قد تكون الأم فيها اعتبرت الأب الوحيد للأسرة، فكانت عبادة

الأجداد أساس الطقس المقدس، وسجلات الجدودية لم تعرف إلا من خلال الخوالة - وربما يكون مفهوم خالق الحياة قد صيغ عن طريق صورة العشرة للمرأة التي كانت جدتهم الأولى والعظمى، ولذلك قدست الصورة وعبدت كجدة مقدسة.

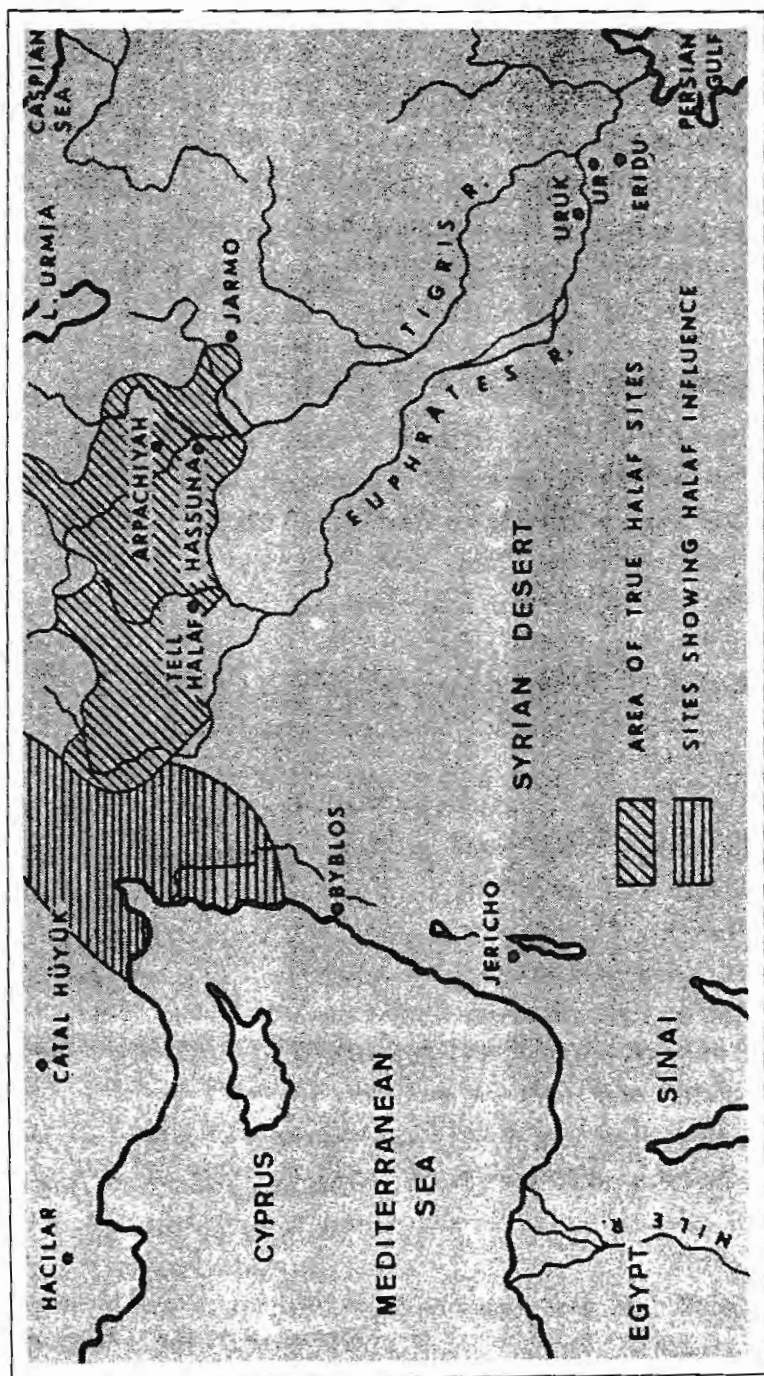
الاتجاه الثالث للدليل، وهو الأكثر بروزاً، مأخوذ من المنحوتات الكثيرة للنساء التي عثر عليها في الثقافات الغرافيتية - الأورليغانية للعصر الباليوليثي الأعلى. وبعض هذه المنحوتات يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠٠ قبل المسيح. فهذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجارة والعظام والطين والتي تدل عادة على أشكال فينوس، وجدت في المناطق التي كانت تعيش فيها المجتمعات المستقرة. لقد اكتشفت بالقرب جداً من بقايا الجدران الغائرة لما يظن أنها كانت المساكن البشرية المصنوعة الأولى في الأرض. ويذهب مارينجر إلى أنه صنعت أثلام أو ضغوطات في الجدران لتعليق الأشكال. وقد وجدت تماثيل النساء هذه، وبعضهن حوامل على ما يبدو، في المواقع الغرافيتية - الأورليغانية المنتشرة انتشاراً واسعاً حتى أطراف إسبانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وروسيا. وقد ظهرت هذه المواقع والتماثيل لتغطي مرحلة لا تقل عن عشرة آلاف سنة.

يقول مارينجر «يبدو أنه من المحتمل جداً أن الأشكال الأنثوية كانت أوثاناً لعبادة «الأم العظمى» وقد مارسها صيادو الماموت الأورليغانيون غير البداية، الذين سكنوا المناطق الأوروبية الآسيوية التي تمتد في جنوب فرنسا حتى بحيرة بيكال في سيبيريا» (ومن منطقة بحيرة بيكال في سيبيريا نشأت على مانعتقد القبائل التي هاجرت إلى أميركا الشمالية في الفترة نفسها، وهناك تطوروا إلى الهنود الأميركيين).

وفي كتاب الكسندر مارشاك «جذور الحضارة» هناك نص لأبراموفا المختصة الروسية بعصر الباليونيث يقدم شرحاً مختلفاً قليلاً وهو أنه في الدين الباليونيثي «كانت صورة المرأة/ الأم... صورة معقدة، وهي تشتمل على أفكار مختلفة مرتبطة بالأهمية الخاصة للنساء في المجتمع العشائري الأول. لم تكن ربة ولا وثناً ولا أم الرب بل كانت أم العشرة... وقد انعكست أيديولوجيا قبائل الصيد في هذه المرحلة من حياة العشرة الأمومية في التماثيل الصغيرة الأنثوية».

الصباح النيوليثي:

الارتباطات بين التماثيل الصغيرة الأنثوية الباليوليثية والظهور المتأخر للمجتمعات عابדות الربة في المراحل النيوليثية للشرقين الأدنى والأوسط غير محددة، وإنما افترضها



خريطة ١ - بعض أقدم المستوطنات البشرية (٧٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م.)

كثير من الباحثين. ففي الموقع الغرافيتي لقيستونيك في تشيكوسلوفاكيا، حيث كانت أشكال فينوس لم تتشكل وحسب بل كانت تقوى بالشيء في تنور، كما وجدت مرتبة في قبر امرأة عثروا عليها. كان عمرها أربعين عاماً تقريباً. وكانت مزودة بالأدوات ومغطاة بشفرات مصنوعة من عظام كنف الماموت ومصبوغة بالمغرة الحمراء. وفي موقع نيوليثي في شانيدار، على الامتداد الشمالي لنهر دجلة، عثروا على قبر آخر، يرجع تاريخه إلى عام ٩٠٠٠ قبل المسيح. كان مدفناً لامرأة شابة، كذلك صبغت بالمغرة الحمراء.

وإحدى الروابط الأبرز بين المرحلتين كانت التماثيل الصغيرة الأنثوية التي برزت في المجتمعات النيوليثية من خلال ظهورها في الفترة التاريخية للسجلات المكتوبة، وهي تمثل الربة. فمنحوتات الثقافات الباليوليثية والمراحل النيوليثية تجعلنا نلاحظ أن الأشكال الباليوليثية «... تشبه شياً كبيراً الأم أو الربة الأرض لدى الشعوب الزراعية الأوروبية في العصر النيوليثي، ولابد أن تكون أسلافاً لها». ويلاحظ جيمس هذا التشابه فيقول عن التماثيل النيوليثية «كثير منها ينتمي بوضوح إلى الأنماط الكبرى الغرافيتية - الباليوليثية. ولكن ربما يكون الشيء الأكثر أهمية حقيقة أن المواقع الأورينغاسية قد اكتشفت الآن بالقرب من الأناضول زهاء ستين ميلاً من مجتمع عابد الربة النيوليثي لهايسيلار في الأناضول (تركيا) وفي موساداغ شمال سوريا (وكانت جزءاً من كنعان).

يصف جيمس ميلارت المدير المساعد السابق للمؤسسة البريطانية للأركيولوجيا في أنقرة، والمدرس الآن في معهد الأركيولوجيا في لندن، الثقافات الكبرى النيوليثية في الشرق الأدنى فيرى أنها تمتد من ٩٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ قبل المسيح. فيكتب أنه خلال ذلك التاريخ «ظهر الفن على شكل حفريات حيوانية وتماثيل صغيرة للإلهة الفاتكة، الإلهة الأم».

ظهرت المجتمعات النيوليثية مع أقدم الأدلة على التطور الزراعي (وهو ما يميزهم كنيوليثيين). لقد ظهوروا في مناطق سميت فيما بعد باسم كنعان (فلسطين ولبنان وسوريا) وفي الأناضول (تركيا) وعلى طول الروافد الشمالية لنهري دجلة والفرات (العراق وسوريا). وقد يكون من الأهمية أن كل هذه الثقافات امتلكت الزواج البركاني من أقرب المواقع إليها - الأناضول. وأحد هذه المواقع، قرب بحيرة فان، يمتد مباشرة من السهوب الروسية إلى الشرق الأدنى.

الموقع المعروف الآن باسم أريحا (في كنعان) كان سكانه بحلول ٧٠٠٠ قبل

المسيح يعيشون في بيوت من القرميد الجصبي، بعضها فيه تنانير ومدافئ وحتى حفريات الصواري الباب. معابد جصية مستطيلة ظهرت إلى الوجود. وتكتب سبيل فون كليست ريدن عن أريحا «تشير المكتشفات المختلفة إلى حياة دينية ناشطة. وهناك أشكال طينية للأثني مع أيد مرفوعة إلى الصدر تشبه أوثان الإلهة الأم التي انتشرت أخيراً في الشرق الأدنى، ويكتب ميلارت أيضاً عن أريحا «لقد صنعوا بدقة أشكالاً طينية لنموذج الربة الأم».

وتمركز مجتمع نيوليثي آخر في جارمو شمال العراق في ٦٨٠٠ قبل المسيح تقريباً. ويخبرنا ساغس أستاذ اللغات السامية أنه في جارمو «وجدت تماثيل صغيرة من الطين لحيوانات وكذلك للربة الأم: والربة الأم الممثلة بهذه التماثيل الصغيرة يبدو أنها كانت الشخصية المركزية في الدين النيوليثي».

واستوطنت هاسيلار، التي تبعد ستين ميلاً عن الأوريفناسيان في الأناضول زهاء عام ٦٠٠٠ قبل المسيح. وهنا أيضاً عثروا على أشكال للربة. ففي حفريات كاتال حيوك القرية من السهول الكيليكية في الأناضول، القرية اليوم من فونيا، اكتشف ميلارت مالا يقل عن أربعين معبداً يرجع إلى عام ٦٥٠٠ قبل المسيح وما قبل. وقد ظهرت ثقافة كاتال حيوك منذ ألف سنة من هذا التاريخ. وبين ميلارت «تسمح لنا التماثيل أن نتعرف على الآلهة الرئيسية التي عبدها الشعب في كاتال حيوك. والآلهة الرئيسية كانت ربة تتجلى في ثلاثة أوجه، كامرأة شابة أو كأم ولود أو كامرأة عجوز». ويرى ميلارت أنه قد تكون هناك أغلبية من النساء في كاتال حيوك، كما دلت على ذلك مدافن النساء. في كاتال حيوك نثرت على الأجساد مغرة حمراء جداً. وكل مدافن المغرة الحمراء تقريباً كانت للنساء. ويعتقد أيضاً أن الدين ترافق أساساً مع دور النساء في التطور الأولي للزراعة. ويضيف «ويدو أنها شبيهة تماماً بعبادة الربة التي كانت تدبرها النساء...».

وبحلول عام ٥٥٠٠ قبل المسيح تقريباً كانت البيوت قد شيدت وتتألف من مجموعة غرف حول باحة مركزية، وهو طراز يستخدمه كثير من مهندسي هذه الأيام. وقد وجدت في المواقع على طول الروافد الشمالية لنهر دجلة، وفي مجتمعات عرفت باسم مرحلة حسونة. فهناك كما في المجتمعات النيوليثية الأخرى وجد الأركيولوجيون أدوات زراعية مثل المحرقة والمنجل وجرار الغلال الخاصة بالحبوب والتنانير الطينية. أيضاً يقول البروفسور ساغس «أيضاً تظهر الأفكار الدينية لمرحلة حسونة في أشكال طينية للربة الأم».

حضارة من أعظم الحضارات المعقدة للشرقين القديمين الأدنى والأوسط أقيمت على ضفاف دجلة الشمالي وامتدت غرباً حتى نهر الخابور. وقد عرفت باسم حضارة حلف وظهرت بأماكن مختلفة في عام ٥٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. ففي مواقع حلف هذه اكتشفوا مدناً صغيرة بشوارع مرصوفة. صاروا يستخدمون المعدن وهو ما جعل حضارات حلف تدخل مرحلة سماها الأركيولوجيون بالعصر النحاسي.

ويكتب ساغس بعد دراسة صورة على مزهرية من السيراميك أنه «من مرحلة حلف يبدأ تاريخ اختراع العربة ذات العجلات». لقد وجدوا تماثيل صغيرة للربة في كل مواقع حلف، ولكن هذه الأشكال في المدينة الحلفية الأرياشية (العربية - المترجم) توافقت مع الأفاعي والفؤوس المزدوجة والحمام، وكلها رموز مرتبطة بعبادة الربة كما عرفت في المراحل التاريخية. وإلى جانب هذا ظهر الحزف السيراميكي المزخرف في أبنية الأرياشية (العربية - المترجم) التي عرفت باسم تولوي. كانت عبارة عن غرف مستديرة الشكل يرتفع قطرها إلى ثلاثة وثلاثين قدماً مع سقف للتهوية. وكانت الأبنية المستديرة مرتبطة بمماش طويلة مستطيلة يصل طولها ثلاثة وستين قدماً. وبما أن التماثيل الصغيرة للربة اكتشفت قريباً من التولوي فقد استخدمت أيضاً كمعابد.

وفي ٤٠٠٠ قبل الميلاد ظهرت أشكال الربة في أور وأوروك، وكلتاها تقعان على الطرف الجنوبي لنهر الفرات، ليس بعيداً عن الخليج الفارسي. وفي هذه الفترة نفسها تقريباً ظهرت في مصر حضارات البادية والعمارتية وهي من الحضارات النيوليثية. وفي تلك المواقع ظهرت الزراعة في مصر لأول مرة. وفي مجتمعات مصر النيوليثية هذه اكتشفت أيضاً تماثيل صغيرة للربة.

انطلاقاً من هذه النقطة وما بعد، ومع اكتشاف الكتابة ظهر التاريخ في كل من سومر (جنوب العراق) ومصر في عام ٣٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. وفي كل منطقة للشرقين الأدنى والأوسط عرفت الربة واشتهرت في العصور التاريخية. ومع أن القرون الكثيرة المتعاقبة حولت وغيّرت الدين من دون شك بطرق مختلفة، فإن عبادة الإلهة الأنثى ظلت قائمة في المراحل الكلاسيكية لليونان وروما. ولم تقم هذه العبادة حتى زمن الأباطرة المسيحيين لروما وبيزنطة، الذين أغلقوا آخر معابد الربة عام ٥٠٠ بعد المسيح.

الربة - بصفات الإله التي يراها الناس اليوم:

تدل المتوجات الإنسانية الفنية الأركيولوجية أنه في كل المجتمعات النيوليثية والنحاسية المبكرة كانت الجدة المقدسة توجد باعتبارها إلهة عليا. وفي هذه الآونة لم تقدم الحياة البشرية وحدها فقط بل أيضاً المواد الغذائية. ويظن دوسون أنه لابد أن تكون الزراعة المبكرة قد نمت حول معابد الربة الأم، فأصبحت مراكز اجتماعية واقتصادية، وكذلك أمكنة مقدسة صارت نواة مدن المستقبل.

يقبس جوزيف كامبل في كتابه «الميثولوجيا البدائية» من شميدت فيتحدث عن هذه الثقافات المبكرة «هنا كانت النساء اللواتي ظهرن فائقات لم يحلن بالأولاد فحسب، بل كن أيضاً المنتجات الرئيسيات للطعام. وتأكيد ذلك فإن من الممكن أن يحرثن ويحصدن، فجعلن الأرض ذات قيمة وأصبحن بالتالي المالكات لها. وهكذا تسلمن السلطة الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب الاحترام». ويضيف هوكس في عام ١٩٦٣ أنه «ثمة أسباب كثيرة للافتراض أنه في ظل ظروف الأسلوب النيوليثي للحياة كان نظام حق الأم والعشيرة سائداً، وكانت الأرض تورث عن طريق السلالة الأمومية».

ومع أن الربة ظهرت في بدايتها الحاكمة الوحيدة فإنها في مرحلة غير محددة من الزمن ظهر لها ابن أو أخ (وذلك بحسب المكان الجغرافي) فكان عشيقها وزوجها. وقد يبرز من خلال رمزية المراحل التاريخية المبكرة ويفترض أنه كان جزءاً من الدين الأنثوي في العصور القديمة جداً. ويكتب البروفسور جيمس «سواء كان هذا يعكس أو لايعكس نظاماً بدائياً للتنظيم الاجتماعي الأمومي، وهذا غير محتمل فإن الحقيقة تبقى أن الربة في البداية كانت لها الأسبقية على الإله الفتى الذي راققها كابن أو زوج أو عشيق».

وكان هذا الفتى هو الذي يرمز إلى الدور الذكوري في الاتصال الجنسي السنوي المقدس مع الربة. (عرف هذا الطقس منذ العصور التاريخية ولكن يظن عموماً أنه عرف في مرحلة الدين النيوليثية). وقد عرف بلغات مختلفة باسم داموزي أو تمور أو أئيس أو أدونيس أو أوزيريس أو بعل، وقد توفي هذا الزوج في شبابه فسبب فترة سنوية من الحزن والنواح بين أولئك الذين يقدمون الولاء للربة. فالرمزية والطقوس المرتبطة به سوف نشرحها بأسهاب في فصل يدور عن الزوج المذكر، ولكن حينما يظهر هذا الزوج الشاب المتوفى كإله ذكر، يبرز حضور دين الربة، فالليجنندات والطقوس النواحية

تشابه تشابهاً كبيراً في كثير من الحضارات. علاقة الربة بابنها أو في بعض الأمكنة علاقتهما بشاب وسيم يرمز إلى الابن، عرفت في مصر في عام ٣٠٠٠ قبل المسيح، وظهرت في الأدب السومري القديم، ثم ظهرت في بابل والأناضول وكنعان وبقيت في الليجندة اليونانية الكلاسية عن أفروديت وأدونيس كما عرفت في روما قبل المسيحية في طقوس سيبييل وأتيس، ومن الممكن أن تكون قد أثرت في رمزية وطقوس المسيحية الأولى. إنها وجه من أكبر وجوه الدين الذي تفرع إلى مساحات واسعة تغطي حيزاً كبيراً من الجغرافيا والتاريخ.

ولكن حالما نرح سكان الثقافات النيوليثية القديمة هابطين من أوروبا، ومن الممكن أن تكون سلاسل الثقافات الغرافيتية - الأورينغاسية، اندفعت موجات أكبر من سكان الشمال وانحدرت إلى الشرق الأدنى. ويظن أن هذه الثقافات كانت من سلاسل الثقافات الميزوليثية (١٥٠٠٠ - ٨٠٠٠ قبل المسيح) والميغوليميزية والكونندية في أوروبا الشمالية. وكما سوف أوضح فيما بعد بصورة أوسع، لم يكن وصولهم بالترجيع على مراحل انتشارهم في المناطق، كما هو الأمر لدى شعوب الربة، وإنما كان سلسلة من الغزوات العدوانية فانتزعوا بالغزو منطقة إثر منطقة من شعوب الربة.

هؤلاء الغزاة الشماليون الذين عرفوا باسم الهندوأوروبيين أحضروا دينهم معهم وهو يقوم على عبادة الشاب المقاتل وأو الرب الأب الفائق. ويحدد وصولهم تاريخياً وأركيولوجياً بعام ٢٤٠٠ قبل المسيح ولكن ربما تكون عدة غزوات قد حدثت قبل ذلك. فطبيعة الغزاة الشماليين ودينهم وتأثيرهم في الشعب العابد للربة ستلقى المزيد من الشرح والمناقشة في الفصلين الرابع والخامس. إلا أن النموذج الذي ظهر بعد الغزوات كان مزيجاً من لاهوتين. قوة أحدهما أو الآخر تختلف من مدينة إلى مدينة اختلافاً ملحوظاً. وإذا استولى الغزاة على المزيد من الأراضي وتابعوا التكاثر والاستقواء طيلة ألفي سنة تالية جمع دينهم بين الآلهة المؤنثة والآلهة المذكورة ولكن ليس كمتساوين بل بتفوق الذكر كزوج مسيطر أو حتى كقاتل للربة. ومع ذلك فإن الأساطير والتماثيل والدليل الوثائقي تكشف الحضور الدائم للربة وبقاء العادات والطقوس المرتبطة بالدين، على الرغم من جهود الغزاة في تحطيم العبادة القديمة أو التقليل من شأنها.

ومع أن الأمثلة أكثر قدماً للغة المكتوبة التي اكتشفت في كل مكان في الأرض ظهرت في معبد ملكة السماء في أريك في سومر، قبل ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح فإن الكتابة في ذلك الوقت تبدو أنها استخدمت أولاً في حسابات الشغل المتعلق بالمعبد.

وقد عدلت المجموعات الشمالية عندما وصلت طريقة الكتابة فعرفت باسم الكتابة المسمارية (إشارات صغيرة حادة تضغط في الطين الطري) فاستخدموها في أدبهم ومسجلاتهم الخاصة. ويعلق البروفسور شييرا «من الغريب أن نلاحظ أن كل الأدب العملي الموجود كان يسجل في شكل مكتوب بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح بقرن أو قرنين». وما إذا كان هذا يفترض أن اللغة المكتوبة لم تعتبر وسيلة للأساطير والليجنندات قبل ذلك الوقت أو أن الألواح الموجودة دمرت وأعيدت كتابتها، تبقى مسألة مفتوحة. لكن لسوء الحظ فإن ذلك يعني أن علينا الاعتماد على الأدب الذي كتب بعد بداية الغزوات والغارات الشمالية. ومع ذلك فإن بقاء وانتعاش الربة ككائن أعلى في مناطق معينة والعادات والطقوس والصلوات ورمزية الأساطير وأيضاً دليل مواقع المعبد والتماثيل تمدنا بكمية كبيرة من المعلومات عن عبادة الربة حتى في ذلك الوقت. إنها تسمح لنا نوعاً ما بملاحظة نجاح التحولات التي برزت في ألفي السنة التالية، ومكنتنا في العودة خلفاً لنفهم طبيعة الدين كما وجد في العصور التاريخية القديمة والعصور النيوليثية.

وكما أشرت من قبل فإن عبادة الإلهة الأنثى قد اشتملت في جزئها الأعظم على إضافة صغيرة لدراسة نماذج المعتقدات الدينية في الثقافات القديمة، لكن معظم الباحثين يفضلون مناقشة المراحل التي حازت السيادة فيها الآلهة الذكور. ففي كثير من الكتب هناك إشارة خاطفة للربة تسبق عادة الأطروحات الطويلة عن الآلهة الذكور الذين حلوا محلها. معظم سوء الفهم نابع من الاستنتاجات الغامضة أن تقديس الإلهة الأنثى كان حادثاً منعزلاً أو أنه كان في حيز صغير أو أنه كان غير مألوف أو طارئ. وبما أن معظم الكتب تهتم بمنطقة جغرافية واحدة معينة، فكان هذا جزئياً نتيجة حقيقة أن الربة كانت متوحدة باسم أو أسماء نوعية كانت مألوفة لدى سكان ذلك المكان، أما الارتباطات العامة فلا إشارة إليها.

على أي حال، بالتمحيص الدقيق بات واضحاً أن الكثير من الأسماء التي استخدمت في مناطق مختلفة إما كانت ألقاباً متنوعة للربة العظمى، كانت صفات من أمثال ملكة السماء أو سيدة المكان العالي أو الحاكمة السماوية أو سيدة الكون أو حاكمة السموات أو لبوة المجمع المقدس أو جلالتها، هكذا ببساطة. وقد يضاف عادة اسم المدينة أو العاصمة مما يجعل الاسم أكثر تخصصاً. على أي حال نحن لانواجه ألقاباً مؤلفة من الآلهات المشوشة، وإنما نواجه تنوعاً من الألقاب الناجمة عن اللغات واللهجات المختلفة. فإذا أخذنا بهذه النظرة الواسعة والشاملة يغدو واضحاً أن الإلهة

الأثنى في الشرقيين الأدنى والأوسط كانت تقدر كربة - تماماً مثلما يفكر الناس في هذه الأيام بالإله.

في كتاب سترونغ وغارستانغ «الربة السورية» عام ١٩١٣ جرى شرح بعض الروابط «بين البابليين والساميين الشماليين كانت تسمى عشتار وهي عشتاروت التي في التوراة وعشتارتي عند الفينيقيين. وكان اسمها في سوريا أثار وفي كيليكيا اتخذ اسمها شكل أتي (أثيه).

في ترجمة روبرت غريفس لكتاب «الحمار الذهبي» الذي كتبه كاتب روماني في القرن الثاني بعد الميلاد نلاحظ أن الربة نفسها هي التي تقدم الشرح والتفسير:

«أنا الطبيعة، أنا الأم الكونية، أنا سيدة كل العناصر، الطفل البدائي للزمن، حاكمة كل الأشياء الروحية، ملكة الموتى وأيضاً ملكة الخالدين، التجلي الوحيد لكل الأرباب والربات، لإيماءة مني تحكم أعلى القمم المشرقة في السماء وأنفاس البحار كلها والصمت الحزين للعالم السفلي. ومع أنني عبت بأوجه كثيرة، وأطلقت علي ما لا يعد ولا يحصى من الأسماء واستعطفت بكل طرق الطقوس المختلفة، فإن جميع أهل الأرض تقدسني.

الفريجيون الأوائل سموني ييسينوتيكيا، أم الآلهة، والأثينيون الذين ولدوا من تربتهم الخاصة سموني أرتيميس السيكروية، وعند سكان جزيرة قبرص أنا أفروديت البافية، وعند رماة السهام في كريت أنا وكنينا وعند الصقليين أصحاب اللغات الثلاث اسم برومبيرين الستيجية، وعند الأليوسيين أم الحبوب القديمة. بعضهم عرفني باسم جونوا وآخرون باسم ييلونا المعارك، وآخرون باسم هيكاتي، وآخرون باسم راموميا ولكن كلا العرقين من الأثيوبيين، التي تشرق الشمس على أراضيهم أول ماتشرق، والمصريين المتفوقين في العلم القديم وعبادتي في احتفالات تليق بألوهيتي، سموني باسمي الحقيقي، سموني الملكة إيزيس».

لقد كانت إيزيس هي الترجمة اليونانية للربة المصرية أوسيت.

إن التشابهات في التماثيل والألقاب والرموز من أمثال الأفعى والبقرة والحمامة والفأس المزدوجة وعلاقة الابن/ العشي الذي يموت فيحزن عليه سنوياً والكهنة الخصيان والاتصال الجنسي السنوي المقدس والعادات الجنسية للمعبد، وكلها تكشف الروابط الأساسية والمتداخلة بين عبادة الآلهة الأثنى كما اتسعت مكاناً وزماناً من السجلات القديمة لسومر حتى اليونان وروما الكلاسية.

إن تقديس الإلهة المرأة وعبادتها في أجزاء كثيرة من العالم القديم شكلت اختلافات حول القيمة، فالنسخ تختلف قليلاً عن المعتقدات الثيولوجية الأساسية ذاتها، تلك التي نشأت في المراحل القديمة للحضارة البشرية. ومن الصعب فهم شدة وأهمية التيجيل المقدم للربة عبر مرحلة تقدر إما بخمسة وعشرين ألف سنة (كما يشير إلى ذلك الدليل الباليوئيثي الأعلى) أو حتى سبعة آلاف سنة فوق أميال من الأرض متجاوزاً الحدود القومية والمساحات الضخمة للبحر. فمن الضروري أن نستوعب القوة المديدة والانتشارية وتأثير هذا الدين الذي جرى اعتناقه في يوم من الأيام.

طبقاً للشاعر والميثولوجي روبرت غريغز فإن أوروبا النيوليثية بكاملها، إذا ما حكمنا بناء على المتوجات والأساطير الباقية كان لديها نظام متجانس من الأفكار الدينية القائمة على الربة الأم الكثيرة الألقاب، والتي عرفت أيضاً في سوريا وليبيا... فقد اعتبرت الربة العظمى خالدة لا يعترتها تغير، كليتة القدرة، ولم يكن مفهوم الأبوة قد دخل بعد في الفكر الديني.

والدين نفسه الذي يناقشه غريغز كان موجوداً حتى أبكر من ذلك في مساحات تعرف اليوم باسم العراق وإيران والهند والعربية السعودية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر وسينا وليبيا وسوريا وتركيا واليونان وإيطاليا، وكذلك في ثقافات جزر من أمثال كريت وقبرص وصقلية وسردينيا. وتوجد أمثلة كثيرة عن العبادة ذاتها في مراحل أوروبا النيوليثية التي بدأت عام ٣٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. وقد تابع التواتادي دانان أصلهم حتى الربة التي أحضرها معهم إلى إيرلندا قبل دخول الثقافة الرومانية بزمن طويل. والكتيون الذين يشكلون اليوم الجزء الأعظم من سكان إيرلندا وسكوتلاندا وويلز وبريتاني عرفوا عند الرومان باسم الغال. وقد اشتهروا بأنهم يرسلون كهنتهم إلى المهرجان المقدس للربة سييل في يسينوس والأناضول في القرن الثاني قبل المسيح. وهناك دليل عن حفريات في كارناك والمعابد الغالية في شارترز ومونت سان ميشيل في فرنسا يفيد أن هذه الأمكنة كانت في يوم ما مواقع للربة العظمى.

من الهند حتى البحر المتوسط... حكمت بتفوق:

نوقشت حالة الربة العظمى وأصولها في دراسات عديدة عن الديانة القديمة. وقد انتصب الاهتمام الأول لهؤلاء الباحثين على الابن/ العاشق والانتقال من الأديان المؤنثة إلى الأديان المذكرة ولكن كل تقرير من تقاريرهم يكشف أن الحالة الأصلية للربة هي أنها كانت إلهة فائقة.

في عام ١٩٦٢ وصف جيمس ميلارت الثقافات من ٩٠٠٠ - ٧٠٠٠ قبل المسيح في كتابه «الحضارات الأولى للشرق الأدنى». وقد أشرت من قبل أنه استنتج أنه في ذلك الوقت ان الفن ظهر على شكل حفريات حيوانية وتماثيل صغيرة للإلهة الفائقة، الربة الأم». ويكتب أنه في كاتال حيوك في الألف السابعة «كانت الإلهة الأساسية ربة...». وفي وصفه موقع هاسيلار، وهي مجتمع نيوليثي في ٥٨٠٠ قبل المسيح، يلفت نظرنا إلى حقيقة أن التماثيل الصغيرة تصور الربة وكان دور الذكر ثانوياً كابن أو عشيق».

هناك شكل للربة من هاسيلار موجود الآن في متحف أنقرة وركبت معظم قطعه التي عثر عليها في هاسيلار وكاتال حيوك من قبل حفريات ميلارت، ففراققتها تناقض تناقضاً غريباً مع المعمارية المعاصرة والديكور. ويبدو أن هذا المنحوت الخاص للربة يصورها وهي تمارس الحب، مع أن شكل الذكر مكسور ولا يمثل إلا شذرة صغيرة من خصره وفخذه وساق واحدة. وهناك احتمال أن هذا الطفل أكبر من أن تحمله إليها، فهو أقرب إلى المراهق الشاب، وربما كان الابن/ العاشق للإلهة الأنثى منذ ثمانية آلاف سنة.

وكذلك في كتاب «عيلام العالم المفقود» المنشور عام ١٩٧٣ يناقش الدكتور هنز، مدير مؤسسة الدراسات الإيرانية في جامعة كوتنجن في ألمانيا، أيضاً عبادة الربة في الشرقيين الأدنى والأوسط. فالأمة العيلامية كانت شرق سومر تماماً، وكانت الثقافتان في المراحل التاريخية المبكرة وثيقتي الصلة. ويكتب الدكتور هنز «إن المكان الأرفع في هذا العالم احتلته ربة - وهذا نموذج عام لعيلام... لقد كانت - الأم العظمى - للعيلاميين. والحقيقة أن الأسبقية كانت للربة، التي تقف بعيداً فوق كل الأرباب العيلاميين وتشير إلى التكريس الأمومي في هذا الدين».

ويصف الدكتور هنز الربة بأنها كانت مشهورة في مراكز مختلفة في الديار العيلامية ثم يخبرنا «في الألف الثالث ظلت أمهات الأرباب العظيمات تحتل قمة الباثيون العلامي إلا أن تغيراً حصل أثناء الألف الثاني. فحالما استسلم عصر الأمومة القديم في عيلام أمام النهوض التدريجي لموقع الرجال فإن تنظيمياً مناسباً برز بين الأرباب... فأتت الألف الثالث كان (حومبان زوج الربة) ما يزال يشغل المكان الثالث، ولكن أواسط الألف الثاني انتصب على رأس الباثيون».

وفي تفسيره لظهور الإلهة الأنثى بين الساميين الذين يضمون العرب والعبريين أكد

روبرتسون سميث في كتابه النبوي عام ١٨٩٤ «دين الساميين» أن الإلهة الأنثى في الديانة السامية قدمت كنتيجة مباشرة لتجاوز عبادة الأجداد ونظام القرابة الأمومي. وقد كتب في ذلك الوقت:

«الباحثون المحدثون في الأسرة يجعلونها في أعلى درجة، فلا يحتمل أن تكون العلاقة الجسدية بين الرب وعابديه التي وجدت آثارها في كل المنطقة السامية مفهومة أصلاً على أنها علاقة أبوية. لقد كان دم الأم وليس دم الأب هو الذي شكل الرابطة الأساسية للقرابة بين الساميين وكذلك بين الشعوب القديمة الأخرى، في مرحلة المجتمع هذه، إذ كان يعتقد أن الإله القبلي هو أبو الأرومة، لابد أن تكون الربة وليس الرب هي موضوع العبادة».

كتب البروفسور هنري فرانكفورت في كراسته عام ١٩٤٨ عن «القرابة والأرباب»: «في ما بين النهرين الربة هي العليا لأنهم يرون أن مصدر الحياة كلها هو الأنثى. ولذلك فإن الرب أيضاً انحدر منها وسمي ابنها مع أنه أيضاً زوجها. ففي طقس الزواج المقدس فإن الربة تلمس بالمبادرة في كل مكان. وحتى في حالة القوضى فإن الأنثى تيامات هي القائدة وليس أبسو إلا ملحق لها».

وفي المجلدات الاثني عشر المكرسة لدراسة الدين القديم و «البدائي» المنشورة عام ١٩٠٧ كتب السير جيمس فريزر عن الربة المصرية إيزيس (أوسيت) وابنتها/زوجها أوزيريس (أوسار). وبالإضافة إلى مجلدات «الغصن الذهبي» الاثني عشر نشر أيضاً كتاباً منفصلاً (أوتيس وأدونيس وأوزيريس) واستخدم فيه عدة مقاطع من «الغصن الذهبي» وفي كلا العملين يشدد أنه وفقاً للميثولوجيا المصرية كانت إيزيس الإله الأقوى في الزوجين. وقد ربط هذا بنظام الملكية والإرث الممارس في مصر، الذي يصفه بأنه «قرابة الأم» ويشير إلى العاشق الشاب للربة على أنه «التشخيص الميثولوجي للطبيعة» ويفسر أن ما كان يستدعي هذا الشكل لابد أن يكون الزواج الجنسي من الإلهة الأنثى العليا. وعلى حالة الشاب ووضعه في الدين علق «في كل حالة (أئيس وأدونيس وأوزيريس) يبدو أن الأصل أن الربة كانت شخصية أكثر قوة وأكثر أهمية من الرب».

وقد ناقش هـ. ج. روز في كتابه المنشور عام ١٩٢٨ «مفكرة الميثولوجيا اليونانية» دور الذكر الشاب في الاتصال الجنسي المقدس فوصفه أنه «شريكة الناقص» ملاحظاً «ربما إننا نتعامل مع ليجندات تمثل الربة لا باعتبارها متزوجة بل باعتبارها تشكل اتصالات مؤقتة مع أحدهم ينقص عنها كثيراً وهي عملية تميز تماماً الربات الشرقيات

اللواتي هن أمهات ولسن زوجات وإلى جانبهن يفرق عشاقهن في إهمال نسيي». وفي كتاب ا. و. جيمس «الآلهة القديمة» المنشور عام ١٩٦٠ نجد وصفاً للعلاقة بين الربة وابنها/زوجها. إنه يفسر تفوقها على هذا النحو:

«كانت هي المسؤولة عن شفائه وإحيائه الذي عليه يعتمد تجديد الطبيعة. ففي التحليل الأخير كانت إينانا/عشتار وليس داموزي/تموز المصدر المطلق للحياة وإعادة تجديدها، وإن كان الرب الشاب كوكيل لها أداة في هذه العملية... ومع توطيد الزوجية والتأهيل صارت وظيفة الذكر في عملية التناسل أكثر وضوحاً وحيوية وكان على الربة الأم أن ترف إلى زوج حتى تلعب دورها كمنسلة، وإن كان كما في ماين النهرين مثلاً ابنها/زوجها الشاب أو خادماً. والحقيقة أنه من الهند حتى البحر المتوسط حكمت بتفوق، والأغلب أن تظهر كربة غير متزوجة».

آرثر إيفانز، الباحث الاكسفوردي البارز والأركيولوجي المرموق الذي نقب تحت الأرض بل إنه أعاد جزئياً بناء القصر الملكي في كنوسوس في جزيرة كريت، علق في عام ١٩٣٦ «لاشك أن كثيراً من العنصر الذكوري قد أكد ذاته في الهيمنة على الحكومة، في الأيام العظيمة للحضارة المينوسية لكن الدين استمر يعكس المرحلة الأمومية للتطور الاجتماعي. ومن الواضح أن الربة كانت متفوقة...».

وكتب إيفانز مناقشاً الأناضول التي كانت وثيقة الصلة بكريت المينوسية من خلال التبعية والتجارة «عبر جزء كبير من الأناضول، نتعرف مرة أخرى على عبادة الأم العظمى ذاتها مع زوجها الذكر التابع، العاشق أو الولد، كما قد تكون الحالة». باحث أو كسفوردي آخر من أواخر القرن التاسع عشر ل. ر. فارنل كتب عن كريت منذ ١٨٩٦، في سلسلة من المجلدات بعنوان «العبادات في الولايات اليونانية» علق «إننا قد نستنتج بإطمئنان من الأدلة المتاحة أن الدين الأقدم لكريت كان مخصصاً على نحو رئيسي لربة عظمى، بينما الإله الذكر المدموج حتماً في عبادة الربة كان تابعاً ويقبع في الخلف».

كتب روبرتسون سميث عن وضع الربة في الجزيرة العربية التي كان قد قال عنها إنها المقدسة الأساسية باعتبارها أصل الأرومة. وصف تحول السلطة التي برزت عندئذ فقال «كانت الربة والرب في الدين العربي زوجين، الربة هي المتفوقة والرب، ابنها هو الإله الأقل مقاماً. وحدث بالتدريج تغير انتقلت فيه خصال الربة إلى الرب، وهكذا انحط وضع الأثنى أدنى من الذكر».

واستخلص سميث أن الربة ظلت معروفة في الدين الأبوي التالي وزعم أن عبادتها صارت ملحقة بـ «العبادات» التي عثروا على أصولها في «عصور القرابة الأمومية». ثم ناقش العصر عندما:

«... انتزع التغير في قانون القرابة الأم من مركزها السابق القديم في الأسرة وحول إلى الأب القسم الأعظم من سلطتها وتكريمها... وققدت النساء حق اختيار أزواجهن، وصارت الزوجة خاضعة لسيادة زوجها... وفي الوقت نفسه صار أطفالها لأغراض الوراثة وواجبات الدم، أعضاء في عشيرته لا في عشيرتها. وكلما سار الدين خطوة مع القوانين الجديدة للأخلاقية الاجتماعية المترتبة على هذا التطور، صارت الأم المقدسة المستقلة الشريك التابع للإله الذكر... أو إذا كان تفوق الربة شديد الوطادة جداً مستعصياً على الاندثار، فإنها قد تغير جنسها، كما في جنوب الجزيرة العربية حيث تحولت عشتار إلى أثنار الذكر».

والخلاصة يلاحظ أنه بالإضافة إلى قبول قرابة الذكر، فإن المرأة أنزلت منزلة التابع ولم يعد الوضع الرئيسي للابن بيد المرأة، بل بيد الرجل. ومع أن سميث قدم التغير وكأنه يجري كغير طبيعي، كما أشرت وكما سأشرح ذلك مطولاً فيما بعد، فإن التحول تفاق بالعدوان العنيف والمذابح المريعة والصراعات المخيفة في كل أرجاء الشرقين الأدنى والأوسط.

بعد قراءة هذه الدراسات وغيرها في الموضوع، لم يعد ثمة أي شك في ذهني عن وجود الدين الأنثوي القديم، ولا أن المرأة في أقدم الأنظمة الثيولوجية كانت تقدر باعتبارها الكائن المقدس الأساسي والقاتل. وهذا الدين، الذي انتشر في كل العالم القديم مع أمثاله واختلافاته المحلية، هو الذي سوف أصفه في بقية هذا الكتاب. وسوف نقسمه أيضاً حسب أسمائه الخاصة وأمكنته، كما تتيح لنا ذلك المادة المتاحة، بيد أننا لانستطيع تجنب ملاحظة التشابهات والتماثلات العديدة للدين كما عرف ومورس في ثقافة ما مع أشكاله وطقوسه في ثقافة أخرى. ذلك أن هذا الدين الذي سبق الأديان الذكورية بالآلاف السنين كان أيضاً دليلاً دامغاً. ولكن هذه المعلومات، وإن أرضت فضولي، إلا أنها تبرزه بروزاً كبيراً فقط. بيد أن الأهم عندي هو التساؤلات عن وضع النساء اللواتي عشن فعلاً في مجتمعات بُجلت فيها الجدة المقدسة.

الفصل الثالث

النساء حيث قدست المرأة

السؤال الأكثر إلحاحاً - وربما السؤال الذي كان سبباً لظهور هذا الكتاب - هو هذا: ما تأثير عبادة الإلهة الأنثى على حالة النساء في الثقافات التي وجدت فيها؟ أشار هنز وإيفانز ولانفدون وكثير غيرهم إلى المجتمعات التي تعبد الربة القديمة على أنها أمومية. فماذا يعني هذا تماماً؟

من السهولة أن ندخل في النمط السجالي للتعليل هنا، كأن نقول مثلاً، لقد عبدوا الربة فلا بد أن تكون النساء قد حققن حالة رفيعة، أو لأن النساء حققن حالة رفيعة عُبدت الربة، مع أن هذين العاملين، إذا اعتبرنا أوضاع المجتمعات التي تعبد الآلهة الذكور اليوم، قد يكونان وثيقي الصلة. ومع ذلك لا بد من أخذ مختلفة الآراء في هذا الموضوع، حتى تلك التي يضطرب فيها السبب والنتيجة أو التي تدرك فيها الأحداث المترامنة على أنها متعاقبة. وما نريده هو استيعاب قدر الإمكان علاقة الدين الأثري بوضع النساء.

في كتاب «الجنس المسيطر» يكتب م. فارتنغ في ألمانيا عام ١٩٢٣ مؤكداً أن جنس المعبود كان يحدد جنس أولئك الذين في السلطة:

«الجنس الحاكم يمتلك السلطة لينشر نظراته الخاصة ويسعى لتعميم أيديولوجيته النوعية. فلا بد لاتجاهات الجنس التابع أن تعارض فيجمع هذا الجنس بمزيد من القوة حسب نسبة السيطرة التي يمتلكها الجنس السائد. والنتيجة أن خليطاً من الآلهة الذكور ترافق عادة مع الرجال السائدين وخليطاً من الآلهات الإناث مع سيادة النساء».

وذهب السير جيمس فريرز إلى أن الحالة الرفيعة للنساء مسؤولة أساساً عن تقديس وتقدير الإلهة الأنثى. ويستشهد بعشيرة ييلو في ميكرونيسيا حيث اعتبرت النساء متفوقات على الرجال سياسياً واجتماعياً. كتب «هذه الأفضلية للربات على الأرباب في عشيرة اسلاندي ييلو تُفسر تفسيراً صحيحاً بالأهمية الرفيعة للنساء في النظام الاجتماعي للشعب».

ويربط روبرتسون سميت اختيار جنس الإلهة الفائقة بوضع سيطرة الذكر أو الأنثى داخل العائلة. ويرى نتيجة نظام القرابة أن الهوية الجنسية لرأس الأسرة تفرض الهوية الجنسية للإلهة الفائقة.

كل هذه الأمثلة عبارة عن أمثلة أن جنس المعبود تقرر السيطرة القائمة لجنس على الآخر - وهو في حالة الربة الوضع الأسمى للنساء في الأسرة وفي المجتمع. وإلى جانب هذه النظريات هناك كثير من المادة الشعرية الزائفة عن تقديس الأنثى كرمز للخصوبة - عن طريق الأنثى - لسحر قدرتها على إنجاب طفل يجعلها موضوعاً لعبادته.

وكما أشرت فإن فريزر اعتقد أن الحالة الرفيعة للنساء أدت إلى عبادة الربة ككائن متفوق معتمداً في نتائجه على سنوات دراسة المجتمعات البدائية والكلاسية. ولكن نتيجة لهذا البحث ربط أيضاً عبادة الإلهة الأنثى بنظام القرابة الأمومي وعبادة الأجداد موضحاً أنه «حيثما كانت الربة متفوقة على الرب والجدات يعبدن بإحترام أكثر من الأجداد، فهناك دائماً تقريباً بنية قرابة أمومية». وكذلك ربط روبرتسون سميت الهوية الجنسية للإله الفائق بنظام القرابة السائدة في كل مجتمع.

ومهما كان نظام السبب والنتيجة المقترح فإن أهم العوامل التي تظهر دائماً في المادة التي تدرس حالة النساء ودورهن في الدين الأنثوي القديم في العصور التاريخية وهو عامل الارتباط الوثيق بالقرابة الأنثوية، بالأمومة التي كانت أساس تطورها. وفي اختبار وضع النساء، فإن هذه الأم، أو البنية القرابية الأنثوية التي أدت إلى التوريث الأمومي للاسم والملكية التي سوف ندرسها باهتمام فيما بعد.

وقد عرفوا الأمومة على أنها بنية اجتماعية تسير فيها الوراثة من السلالة الأنثوية فالأبناء أو الأزواج أو الإخوة يحصلون على اللقب والملكية فقط نتيجة علاقتهم بالمرأة التي هي المالكة الشرعية. فالنسب الأمومي لا يعني النظام الأمومي الذي يحدد بوجود النساء في السلطة أو بكلمة أدق يحدد كرأس الأسرة، التي يكون لها وضع سلطوي أيضاً في المجتمع وحكومة الدولة. في بعض المجتمعات الأمومية يلعب أخو المرأة الذي بيده حق الاسم والملكية دوراً هاماً. ومع ذلك لا يمكننا تجاهل احتمال أن العادات السلالية والمحلية الأمومية تؤثر في حالة النساء وفي وضعهن بشتى الطرق. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار حذاقات السلطة وتسلم الوضع الذي رافق حيازة منزل أو ملكية أو لقب أو استقرار النساء في القرية أو بيت آبائهن لا في قرية أو بيت آباء أزواجهن، كما في المجتمعات الأمومية المحلية.

إن اقتصاديات المجتمعات النيوليثية والمجتمعات الزراعية التاريخية الأولى ناقشتها عالمة الاجتماع ف. كلين في عام ١٩٤٦. لقد رأت «أن النساء في المجتمع الأولي أنتجت المادة الرئيسية للثروة، فقد كن مالكة للبيت ومنتجات للطعام، فقدمن الملجأ والأمن. لذلك اعتمد الرجل اقتصادياً على المرأة».

المجتمعات التي اتبعت الأنثى أو عادات القرابة الأمومية اشتهرت في الماضي ولا تزال تظهر في كثير من المناطق في العالم. فالتنظيرة القائلة إن معظم المجتمعات كانت أصلاً مجتمعات تعتمد على النسب الأمومي والنظام الأمومي والتعدد الزوجي (زواج المرأة بعدة أزواج) كانت موضوع دراسات واسعة جداً في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وقد وافق باحثون من أمثال جوهان باخوفن وروبرت بريفولت وإدوارد هارتلاند على فكرة نظام الأمومة وتعدد الأزواج، ودعموا نظرياتهم بكمية كبيرة من الأدلة، لكنهم اعتبروا هذه الأنظمة مرحلة نوعية في حركة تطورية. وقد رأوا أن كل المجتمعات مرت عبر مرحلة النظام الأمومي قبل أن تصبح مجتمعات أبوية بزواج واحد، يبدو أنهم اعتبروها المرحلة العليا للحضارة. ولكن كما في كلام جاكيتا هوكس «ليس من المناسب اليوم أن نتحدث عن أنظمة أمومية للمجتمع. وهناك دليل في كثير من أرجاء العالم أن دور النساء ضعف منذ العصور القديمة في عدة قطاعات من البنية الاجتماعية».

إن معظم دراسات نظام الأمومة تعتمد على المشابهة الانثروبولوجية وعلى الأدب الكلاسيكي لليونان وروما. وبما أن معظم هذه الدراسات بحثت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن هؤلاء الكتاب لم يتوافر لديهم الدليل الأركيولوجي المتوافر في هذه الأيام. وعلى الرغم من سوء الفهم، وعلى الرغم من أحكام القيمة المنحازة فإننا نجد أن هؤلاء الكتاب كانوا في مقدمة عصرهم في التنبؤ.

نحن اليوم نستخدم كتلة هائلة من المادة قدمتها الحفريات الأركيولوجية الواسعة في الشرقين الأدنى والأوسط في هذا القرن، بالإضافة إلى المادة التي قدمها هؤلاء الكتاب. ولكن الصحيح أيضاً أن هناك حدوداً للمكتشفات الأركيولوجية - ما بقي غير مكتشف وما عثر عليها تالفاً فلا يقرأوما لا يحل وما تعرض للتلف نتيجة طبيعة مواده الأصلية.

لقد اعتبر قانون حمورابي البابلي (١٧٩٠ قبل المسيح تقريباً) على أنه أقدم ما جمع، ومن المعروف الآن أنه سبقته قوانين أخرى اكتشفت حديثاً. بعض هذه القوانين يرجع

إلى عام ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريباً. وبعضها يرجع إلى عام ٢٠٠٠ قبل المسيح أو بعد ذلك بقليل. ولكن مايزال علينا الاعتماد على المادة التي ظهرت في الشكل الكتابي الذي ظهر فقط في بدايات الغزوات الشمالية. ولكن علينا أن نكون حذرين تجاه الدلائل والشروحات المتاحة التي تختلف باختلاف المكان والزمان، فيجب أن ننفذ إلى أوضاع النساء في مجتمعات العبادة المرفوعة إلى الربة.

أثيوبيا وليبيا - كل السلطة للمرأة:

قبل ميلاد المسيح بتسعة وعشرين عاماً كتب روماني من صقلية عن رحلاته في إفريقيا الشمالية وبعض أقطار الشرق الأدنى، مسجلاً ملاحظاته عن الناس أثناء ترحاله. وقد اهتم اهتماماً كبيراً بالنماذج الثقافية فكان حقاً أحد السباقين في ميداني الأنثروبولوجيا والسيوسولوجيا. وقد عرف باسم ديودوروس الصقلي أو ديودوروس الذي من صقلية. تقارير كثيرة وصف فيها حالة النساء. ويحق لنا أن نسأل لماذا هو من دون الآخرين وأكثر من أي كاتب كلاسي سجل معلومات وفيرة عن النساء المحاربات والنظام الأمومي في كل الأمم المحيطة به. إنه لم يقلل من شأن الرجال الذين عاشوا في هذه المجتمعات، إذ لم يكن ذلك همه. والواقع أنه بدا معجباً ومحترماً ومقدراً للنساء اللواتي حزن على هذه السلطة.

إن ديودوروس هو الذي قدم تقريراً أن النساء في ليبيا كن يحملن السلاح ويمارسن الزواج الشرعي، ويرين أولادهن تربية شيوعية بحيث أنهن لايعرفن هن أنفسهن من هي الأم الطبيعية لهذا الولد أو ذاك. في بعض أنحاء ليبيا حيث كانت الربة نيت تحظى بتبجيل كبير أظهرت الوثائق أن النساء الأمازוניات كن مايزلن يتجولن حتى في العصور الرومانية وقد وصف ديودوروس أمة منهن في ليبيا كالتالي:

«كل السلطة كانت بيد المرأة، التي تصرف أي شأن من شؤون الناس. وكان الرجال يقومون بأعباء المنزل تماماً كما تفعل النساء اليوم بيننا، فيفعلون ماتأمرهم به زوجاتهم. فلم يكن يسمح لهم بممارسة شؤون الحرب أو أي وظيفة حكومية، أو شغل أي دائرة شعبية شاغرة، مما هياً فيهم روح التمرد على النساء. وكان الأولاد فور ولادتهم يعطون للرجال الذين يقدمون لهم الحليب والطعام المناسب لعمرهم».

وكتب ديودوروس عن النساء المحاربات الموجودات في ليبيا فقال إن هؤلاء النسوة شكلن جيوشاً وغزون البلدان الأخرى. وكن، حسبما يقول، يقدسن الربة باعتبارها إلهتهن العليا ويقمن المعابد لعبادتها. ومع أنه لايقدم اسماً معيناً، فإن

كتابات تشير إلى الربة الليبية المقاتلة المشهورة باسم نيت التي قدست في مصر تحت اسم نيت نفسه.

مصر - يوم كان الأزواج يقيمون في المنزل ويفزلون:

حققت الربة في مصر ماقبل التاريخ تفوقاً في مصر العليا (الجنوب) تحت اسم نيخت ورمزوا لها بالنسر. سكان مصر السفلى التي تضم إقليم الدلتا الشمالي، عبدوا ربتهم الفاتكة باعتبارها كوبرا مستخدمين اسم وازيت (الأفعى العظمى). ومن عام ٣٠٠٠ قبل المسيح ومابعد يقال إن الربة المعروفة باسم نوت أو نيت أو نت، المشتقة على الأغلب من نيخت، إنها وجدت عندما لم يكن قد خلق أي شيء. وعندئذ خلقت كل ما ظهر في الوجود. وطبقاً للميثولوجيا المصرية فإنها هي التي كانت أول من نصب رع، رب الشمس، في السماء. نصوص مصرية أخرى تعزو إلى الربة حاتور هذا الدور كخالقة للوجود وتشرح ذلك بأنها اتخذت شكل أفعى في ذلك الوقت. ظل مفهوم الربة في مصر دائماً حيواً فعالاً. وتقدّم الآلهة الذكور، حالما بدأت المراحل الأسرية (٣٠٠٠ قبل المسيح تقريباً) سوف نناقشه بعمق في الفصل الرابع. وقد قلل هذا كثيراً من تفوقها الأصلي المعروف عن المجتمعات النيوليثية. لكن عبادة الربة استمرت مقترنة بهذا، فالظاهر أن النساء في مصر استخدمن كثيراً من الطرق. وكتب دودوروس طويلاً جداً عن عبادة الربة لإنزيس (الإغريق يترجمون الاسم إلى أوسيت) التي اتخذت مظاهر كل من وازيت وحاتور وقد تراققت الربة لإنزيس جداً مع الربة نوت، التي صورتها السجلات الميثولوجية أنها أمها، وفي الرسوم ترتدي لإنزيس أجنحة نيخت. وفسر دودوروس أن لإنزيس، طبقاً للدين المصري، كانت مقدسة ومبتكرة للزراعة، وشافية وطبية عظيمة وأول من وطد قانون العدالة في البلاد.

كما سجل أيضاً أننا قد نجد اليوم وصفاً قلقاً لقوانين مصر، وهو يفسر ذلك أنها كانت نتيجة تبجيل هذه الربة القوية. كتب: «لهذه الأسباب كان مألوفاً أن تمتلك الملكة سلطة أكبر وتكريماً أعظم من الملك، وأن تتمتع الزوجة بين الأشخاص العاديين بسلطة على زوجها. ويوافق الأزواج في عقد الزواج أنهم سوف يطيعون زوجاتهم في كل الأشياء».

علق فريزر على العلاقة بين تقديس لإنزيس وعادات القرابة الأنثوية وانتهى أنه «في مصر استمر النظام القديم لقرابة الأم، مع تفضيله النساء على الرجال في قضايا الملكية والإرث حتى العصور الرومانية...».

هناك دليل أن مصر كانت بلداً نالت فيه النساء قسطاً عظيماً جداً من الحرية والسيطرة على حياتهن الخاصة، وربما على حياة أزواجهن أيضاً. لقد كتب هيرودوت اليوناني، قبل ديودوروس بعدة قرون أن في مصر «نساء يتجولن في الأسواق العامة يصرفن الشؤون وينهمن في العمل، بينما الرجال يمشون في البيت ويقومون بالغزل والنسج» ومعاصره سوفوكليس يرى أن «أفكارهم وأفعالهم كلها ضربت ضرباً على الأساليب المصرية، إذ يجلس الرجال هناك في البيت خلف النول بينما الزوجات خارج البيت لتأمين الحاجات اليومية».

كتب البروفيسور سيروس غوردون في عام ١٩٥٣ عن حياة مصر القديمة. يخبرنا أن «النساء في الحياة العائلية يحظين بوضع هام لأن الإرث ينحدر من خلال الأم وليس من خلال الأب... وربما يرجع هذا النظام إلى عصور ما قبل التاريخ عندما كانت العلاقة الواضحة بين الأم والطفل معترفاً بها وليس العلاقة غير الواضحة بين الأب والطفل».

ترى الدكتورة موراي أن «ظرف النساء كان راقياً جداً وربما كان ذلك بسبب استقلالهن الاقتصادي» ويكتب السير بارون أنه في البرديات المصرية ظهر كثير من النساء كأطراف في الدعاوي المدنية والتصريفات العملية المستقلة حتى تجاه أزواجهن وآبائهن وكتب أحد أوائل الأركيولوجيين المختصين بإهرامات مصر وهو السير وليم فلندرز بتري عام ١٩٢٥ أن «الملكية في مصر تذهب كلها في السلالة الأنثوية، فقد كانت المرأة سيدة المنزل وتبدو في القصص القديمة أنها هي المتحكمة بنفسها ومكانها» وناقش اللاهوتي والأركيولوجي رولاند دي فوكس وضع النساء في مصر القديمة فكتب عام ١٩٦٥ أن «الزوجة في مصر كانت رأس الأسرة مع كل الحقوق المترتبة على ذلك». كانت الطاعة مفروضة على الأزواج في قوانين بتاح حوتب. فعقود الزواج في كل المراحل تفرض وضعاً اجتماعياً واقتصادياً مستقلاً كل الاستقلال للنساء. ووفقاً لماير الذي يقتبس من دراسة الأخوين فارتغ «كان النساء من بين المصريين حرائر بصورة ملحوظة... فمنذ القرن الرابع قبل المسيح وجد جنباً إلى جنب الزواج الأبوي شكل للزواج تختار فيه المرأة الزوج ويمكنها أن تطلقه لقاء مبلغ من التعويض».

وتشير قصائد الحب المكتشفة في القبور المصرية أن المرأة المصرية هي التي كانت تقوم بالمغازلة، وتغازل الذكر بتقديم المسكرات لإضعاف مقاومته. وكتب روبرت بريفولت عن كهنوتية مصرية أصبحت فيما بعد حاكمة، وبالتدريج صارت قائدة للجيش.

وقد وضعت الدكتور مرغريت موراي دراسة مستتيرة وهامة عن البنية الاجتماعية ووضع النساء في مصر عام ١٩٤٩. وقد تحرت سلالة الأسر الملكية في مصر، فأثبتت أن الثقافة المصرية على الصعيد الملكي كانت أمومية في معظم مراحلها. وقد جرت الدراسات على الملكية لأن السجلات عن هؤلاء الناس كانت متاحة جداً. وطبقاً لموراي كانت البنات وليس الأبناء هن الوارثات الفعليات للعرش الملكي. وتعتقد أن عادة زواج الأخ / الأخت الذي تطور عندئذ سمحت بهذه الطريقة للابن أن يكون له امتياز ملكي. وتكتب أن حق الوراثة الأمومي بالعرش كان سبب تزويج الأميرات المصريات لكثير من القرون داخل الأسرة ولم يكن يسمح بأحلاف الزواج الدولية. وهذا ما يوضح لماذا الربة إيزيس التي يجعلها فريزر لإلهة أهم من ابنها / زوجها أوزيريس والتي يجعلها ديودوروس سبب ارتقاء وضع النساء في مصر، كانت مشهورة باسم العرش.

ولكن حتى في مصر خسرت النساء وضعهن المرموق بالتدريج. وناقش السير فلنדרز بيري وهو زميل محترم للدكتورة موراي في جامعة لندن، دور الكاهنات في مصر القديمة. وقد استنتج أن وضعهن قد تغير بين زمن الأسر الأولى (٣٠٠٠ قبل المسيح وما بعد) وحتى زمن الأسرة الثامنة عشرة (١٧٥٠ - ١٣٠٠ قبل المسيح). وطبقاً للسجلات المتاحة كانت الربة المعروفة باسم حاتور وهي مقدسة بمقام إيزيس، تخدمها إحدى وستون كاهنة وثمانية عشر كاهناً في العصور القديمة بينما الربة المعروفة باسم نيت كانت تخدمها الكاهنات فقط. وبصعود الأسرة الثامنة عشرة لم تعد النساء حتى جزعاً بين الكليروس الديني، فاقصرن على خدمة المعابد كموسقيات فقط. وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة مارست مصر أعظم تأثير لها على الهندوأوربيين، وهو عنصر سوف نعود إلى مناقشته بمزيد من التفصيل في الفصلين الرابع والخامس. وكلمة «فرعون» التي هي أقوى دلالة من كلمة «ملك» مشتقة من فار - عو التي تعني حرفياً البيت العظيم. واستخدمت هذه الكلمة من أيام الأسرة الثامنة عشرة فقط لتدل على الذكر الملكي لذلك البيت.

سومر - نساء الأيام القديمة اتخذن زوجين...

كتب البروفسور ساغس عام ١٩٦٢ عن مجتمعات ما بين النهرين، وهي تشمل كلاً من سومر وبابل. فما بين النهرين التي تدل على العراق تقع بين نهري دجلة والفرات، ابتداء من الخليج الفارسي ووصولاً إلى الأناضول. وقد درس علاقة تبجيل

الربات بأوضاع النساء في سومر (زهاء ٣٠٠٠ - ١٨٠٠ قبل المسيح في جنوب العراق) مستنتجاً أن النساء في المراحل القديمة جداً كن أفضل مما هن في المراحل المتأخرة، وأنهن فقدن وضعهن بالتدريج. يكتب السير ساغس أن:

«لاشك أن وضع النساء في دولة مدينة سومر القديمة أرفع بكثير مما تلا ذلك... فثمة دلائل أن النساء في البداية الأولى لمجتمع سومر حققن وضعاً أرفع بكثير مما هو في زمن الثقافة السومرية: ويقوم استنتاجنا على حقيقة أنه في الدين السومري القديم شغلت الربات وضعاً بارزاً، ثم غبن بعد ذلك باستثناء عشتار ولم يظهرن إلا كزوجات للأرباب. كان العالم السفلي نفسه تحت حكم مفرد للربة، وتشرح الأسطورة كيف أنها صعدت منه لتتخذ لنفسها زوجاً، وقد لعبت الربات دوراً في القرار المقدس الذي يتخذ في مجمع الآلهة في الأساطير. وهناك ميل قوي جداً للاعتقاد أن تعدد الأزواج قد مورس في يوم من الأيام إذ تشير إصلاحات أوروكاجينا إلى نساء يتخذن أكثر من زوج واحد، وقد نفر بعض الباحثين من هذا الاستنتاج ومالوا إلى الاعتقاد أن الإشارة قد تكون إلى زواج الأرملة، لكن كلمات النص السومري لا تؤيدهم في هذا».

ويمكن أن أضيف أن ربة العالم السفلي لم تتخذ زوجاً قط بل كان عندها من يجرها من شعرها، ويطردها من العرش ويهددها بالموت مالم توافق على الزواج من قاتلها الرب نيرجال الذي قبل عندئذ دموعها وصار زوجها وحاكم العالم السفلي إلى جانبها.

يرجع تاريخ إصلاح أوروكاجينا إلى عام ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريباً. وقد جاء في هذا الإصلاح «اعتادت النسوة في الأيام الخوالي أن يتخذن زوجين ولكن المرأة في هذه الأيام ترجم رجماً بالحجارة إن أقدمت على ذلك». إن تعدد الأزواج لإشير إليه على أنه كان في مناطق عبادة الربة الدرامية في الهند ومايزال قائماً حتى في هذا القرن.

عشروا على قوانين دولة اشنونا السومرية التي تعود إلى قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في مدينة صغيرة، وبذلك أمكن الاطلاع على أوضاع أقدم. نقرأ في هذه القوانين «إذا رفض رجل زوجته بعد أن تكون قد حبلت بطفل واتخذ زوجة أخرى يطردها من المنزل ويجرد من كل ما يملك فإن ناصره أحد خرج معه». وجاء في هذه القوانين نفسها أنه إذا تزوجت امرأة وحبلت بطفل من رجل آخر بينما كان زوجها في الحرب، فإنها شرعاً تظل تعتبر زوجة الرجل الأول. ولا توجد إشارة إلى عقوبة الزنا. أما الموافقة على الزواج فتؤخذ من الأم والأب معاً.

لقد درست رفقة هاريس بعمق عام ١٩٦٢ وضع ونشاطات مجموعة من النساء السومريات عرفن باسم «ناديتو». لقد فحصت بدقة النصوص السومرية فوجدت أن نساء الناديتو كنّ يقمن بنشاطات عملية في المعبد، ويملكن باسمهن أطيافاً حقيقية، ويقرضن المال ويقمن عموماً بنشاطات اقتصادية. كما وجدت أيضاً سجلات من تلك المرحلة لكثير من النساء الكاهنات. ومع ذلك نقرأ فصلاً للبروفسور سدني سميث في الكتاب الذي أشرف عليه هوك «الأسطورة والطقس والقراءة» جاء فيه «إن كلمة ناديتو تعني على الأرجح النساء اللواتي يرتمين أي يستسلمن للاله».

وفي التراثيم السومرية نجد أن الأنثى سبقت الرجل. وتبين ملحمة جلجامش أن الكاتب الرسمي للسماء السومرية إنما كان امرأة. وكما أشرت من قبل أنه قد تكون الكاهنات والأرجح الناديتو هن اللواتي كن يقمن بحسابات عمل المعبد، فكن أول من طور الكتابة. وقد اكتشفت الأمثلة الأولى للكتابة (منذ عام ٣٢٠٠ قبل المسيح تقريباً) في معبد الربة إينانا في أريك حيث عاش فيه كثير من النارديات، فتبين أنها حسابات المعبد عن الربيع العقاري.

ويلاحظ الباحث الاكسفوردي البارز ستيفن لانغدون فيما كتب عام ١٩٣٠ أن الليجنندات التي تحدثت عن ملكة السماء السومرية إينانا كتبت في مجتمع يعتمد «النظام الأمومي». وتدل على ذلك أيضاً التغيرات التي حصلت في صورة ودور الربة إينانا عندما نجدها بعد قرون أنها صارت عشتار البابلية. وفي الأسطورة السومرية تستخدم إينانا قوتها وتصب جام غضبها على ابنها/ عشيقها داموزي لرفضه إظهار الاحترام لها فطرده إلى أبالسة عالم الموتى بينما بعد ثلاثة عشر قرناً في أسطورة عشتار البابلية ظهرت نسخة جديدة للقصة ذاتها، إذ نلاحظ أن الربة اعتراها الحزن عندما مات الشاب لدى وقوع حادث بمحض المصادفة.

إن سجلات إصلاحات أورو كاجينا السومرية قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح صارت توجه توجيهاً قوياً. صارت تشير إلى أشجار ثمار وطعام أراضي المعبد التي باتت تستخدم من أجل أولئك المحتاجين أكثر من أن يستخدمها الكهان. وهذه القضية تحولت سريعاً إلى عادة في ذلك العصر. والحقيقة أن في هذه الألواح إشارات متكررة إلى أن هذه الإصلاحات هي أصداء لأشياء كانت تحدث في المراحل القديمة جداً مما يدل أن مجتمعات سومر القديمة كانت غارقة في المشاعية أكثر. والأهم من ذلك هو الكلمة التي استخدمت عنواناً لهذه الإصلاحات وهي كلمة أمارجي ترجمت ترجمة مزدوجة: الحرية والعودة إلى الأم.

عيلام - عراة أمام الكاهنة:

رأى الدكتور ولتر هنز عام ١٩٧٣ أن التفوق الأصلي للربة في عيلام (إلى الشرق القريب من سومر وفي تماس معها عام ٣٠٠٠ قبل المسيح) دل على «نهج أمومي» في المكرمين لديانتها. وشرح بأنها رغم تفوقها في الألف الثالث فإنها صارت فيما بعد ثانوية بالنسبة إلى زوجها حنّبان، فقد كانت وقتها تعرف باسم الزوجة العظمى. وفي سوسا في الطرف الشمالي لأقاليم عيلام اشتهر الزوج بلقب إين شوشيناك. وفي العصور الأقدم اشتهر بلقب أبي الضعفاء، وسمي في الألف الثاني باسم ملك الآلهة وفي القرن الثامن قبل الميلاد بلقب حامي آلهة السماء والأرض.

في المراحل القديمة لعيلام ظهر الآلهة المقدسون وقد قام على خدمتهم كهنوت من الإناث والذكور، فظهر الرجال عراة أمام الكاهنة العليا، كما كانت العادة في عيلام القديمة. ويشرح هنز ذلك بأنه في عيلام - وهذا يشبه كثيراً نساء سومر الناديتو - «فئة خاصة بين النساء شكلتها النساء أو العذارى اللواتي كرسن حياتهن للربة العظمى». وكانت هؤلاء النساء يعملن في البيع والشراء واستغلال الأرض.

وتكشف الوثائق النظامية من عيلام والتي وصلتنا بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح أن النساء كن الوارثات الوحيدات، فقد رفضت امرأة متزوجة أن تعود الورثة إلى زوجها وجعلتها حصراً بابنتها. وجاء في لوح آخر أن ابناً وابنة اقتسما حصصاً متساوية وقد أشير إلى الابنة قبل الابن. وقد وصفت ألواح عديدة الأوضاع حيث كان الزوج يترك كل ما يملك لزوجته ويؤكد أن الأولاد يرثون فقط إذا اعتنوا بأمهم وأظهروا لها الاحترام الكبير.

بابل - امتلاك وإدارة أطيانهن الخاصة:

في ما بين النهرين، عقب ارتقاء أوضاع الأكاديين في ظل سارغون عام ٢٣٠٠ قبل المسيح، وتفوقهم تدريجياً قرابة عام ١٩٠٠ قبل المسيح، حلوا بالتدريج محل السومريين كقادة ثقافيين وسياسيين للمنطقة. لقد شكلوا أمة سموها بابليونيا وجعلوا عاصمتها بابل في وسط الفرات. وغدت اللغة الأكادية للبابليين لغة عالمية في الشرق الأدنى، لكن دين السومريين تضافر مع الثقافة البابلية واستخدمت اللغة السومرية كاستخدام اللاتينية في صلاة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كل أرجاء العالم. وبحلول عام ١٦٠٠ قبل المسيح بسط الكاشيون سيطرتهم على بابل. ويشير الدليل اللغوي أن حكام الكاشيين كانوا غزاة شماليين، كانوا

هندوأوروبيين تسربوا تدريجياً إلى بابل وآشور.

وعلى الرغم من تخلف وضع النساء في بابل قياًساً إلى أسلافهن في سومر - فإنه تخلف ترافق بصعود الآلهة الذكور من أمثال الإله مردوخ الذي كما جاء في الميثولوجيا، قتل الربة تيامات للحصول على مركزه وتعزيزاً لهذا المركز - وقد ظلت نساء بابل تحظى ببعض حقوق الاستقلال. والشاهد التالي قائم على قانون حمورابي الذي صدر تحت الحكم الكاشي، لكنه قد يكون متأثراً بالغزوات المستمرة للهندوأوروبيين، من الشمال قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح ومابعد، كتب بوسكاكين عام ١٨٩٤ قائلاً إن:

«الحرية التي منحت للنساء في بابل خولتهن أن يملكن ويدرن أطيانهن الخاصة وكانت هذه هي الحالة مع كاهنات المعبد اللواتي كن يتاجرن على نحو واسع... ومن أبرز وأهم السمات المميزة للحضارة البابليين المبكرة هو الوضع الرفيع للنساء. فالأم تمثلها إشارة تدل دائماً أنها تعني «ربة المنزل» وأي خطيئة ترتكب ضد الأم كانت تقرض عليها عقوبة من قبل المجتمع. هذه هي الوقائع التي تشير إلى شعب كان في يوم ما حامل قانون السلالة الأمومية».

ووفقاً لدي فوكس الذي كتب عام ١٩٦٥ أن «الأب في القانون البابلي يمنح العروس الشابة بعض الممتلكات التي تصير لها حقاً شريعياً، وأما الزوج فيقوم باستخدام هذه الممتلكات فقط. إنها ترجع إلى المرأة إذا كانت أرملة أو طلقت من دون خطيئة اقترفتها. وقد استطاعت في بابل أن تموز الملكية وتقوم بالأعمال المشروعة، وأن تكون طرفاً في العقود ولها حصة في ميراث زوجها».

في عصر حمورابي كانت النساء حرائر في طلب الطلاق، وتنص إحدى فقرات قانون بابل أن المرأة إذا رغبت أن تكون مسؤولة عن ديون زوجها قبل الزواج فعليها أن تكتب وثيقة له تنص أنه وافق على ذلك. هذه المسؤولية المالية في الزواج تدل أن معظم النساء كن يشاركن في الشؤون العملية والمالية (كما في مصر) وربما في عصر من العصور كن مسؤولات اقتصادياً عن الأسرة. إن سبع فقرات في قانون حمورابي تهتم بكاهنات المعبد وحقوقهن في الوراثة وما يمكن أو لا يمكن توريثه للذرية، مما يدل أن الوضع الاقتصادي لهؤلاء النساء كان قضية هامة ولكن سرعان ما تغير.

لقد بجلت عشتار باعتبارها «سمو الملكة التي تقدس قوانينها». وتقول عشتار

نفسها في أحد الألواح وعندما تتعقد المحكمة أكون حاضرة فالمرأة التي تفهم الدعوى هي أنا. وفي غمرد، شمال ماين النهرين، سجلات عن نساء سماويات كن قاضيات ومرافعات، تشهد بالوضع المحترم والحيوي للنساء الذي استمر حتى القرن الثامن عشر قبل المسيح. وهناك سجلات في مدن عديدة عن الكاهنات البابليات اللواتي عملن نيات معبدات، فقدمن المشورة العسكرية والسياسية للملوك والقادة وكان لهن تأثير قوى في شؤون الدولة. وسجلات الكاتبات النساء موجودة في كل المراحل البابلية، مع أنه كان هناك ذكور في هذا الميدان أكثر من النساء.

ونجد في قوانين بالبلينا المتأخرة التي تنتمي إلى العصر ذاته في نهاية الألف الثاني، أنه لا يمكن لامرأة متزوجة أن تتخطف في عمل ما لم يمارسه زوجها أو ابنها أو ابن حميها. فإذا عمل معها أي رجل آخر، حتى لو أثبت أنه لم يكن يعرف أنها متزوجة فلا بد من أن توجه إليه تهمة باعتباره مجرمًا.

الأناضول - من القديم تحكمهم النساء:

شمال بابل تمامًا، وفي تماس سياسي مباشر، كانت هناك منطقة اشتهرت باسم الأناضول، وتمثلها في هذه الأيام تركيا، وأحياناً اشتهرت باسم آسيا الصغرى. في مراحل الأناضول النيوليثية كانت الربة العظمى تمجد. فظهرت عبادتها في معابد كاتال حيوك قرابة عام ٦٥٠٠ قبل المسيح. وقبلما كانت تعرف في الأناضول بعد مرحلة كاتال حيوك مباشرة، ولكن في وقت ما قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح غزا الهندوأوروبيين الأناضول.

المناطق التي كثرت فيها مستوطنات الشعوب الشمالية كانت وسط الأناضول وجنوب وسط الأناضول. بعضهم اجتاحت البلاد التي تعرف باسم حثي. فالغزة والسكان الأصليون أيضاً صاروا يعرفون باسم الحثيين. معظم الربات اللواتي ظهرن في أدب هذه المنطقة ونصوصها المكتوبة بعد وصول الحثيين، كانت بالفعل آلهات حثية أقدم. وأهم إلهة من آلهات الإناث ظلت قائمة هي سون ربة أرينا. وبعد الغزوات الحثية عين لها زوج كان يرمز لرب العاصفة. ومع أن إله العاصفة هذا أحرز تفوقاً في معظم المدن حيث حكمت الشعوب الشمالية، فإنه في أرينا ظل يحتل المرتبة الثانية. ولكن الملكات الحثيات ظهرن في عدة نصوص على صلة وثيقة بالربة سون الحثية. لقد كن يعملن كاهنات راقيات عندها. ومع أنه لا يوجد دليل استتاعي يمكن تأكيده، فإن وجود هذه النصوص يفرض احتمال أن يكون غزاة الشمال، حالما غزوا البلاد حربيًا،

تزوجوا الكاهنات الحثيات للحصول على مزيد من الأمن والحق الشرعي في العرش في نظر السكان المغلوبين.

في القطاعات الغربية من الأناضول استمرت الأنساب الأمومية وعبادة الربة في العصور الكلاسية. كتب سترابو، قبل ولادة المسيح بقليل عن مدن الأناضول الشمالية وصولاً إلى أرمينيا حيث يعتبر الأطفال الذين يولدون من نساء غير متزوجات شرعيين ومحترمين. وهم يأخذون بكل بساطة أسماء أمهاتهم اللواتي كن، طبقاً لتقرير سترابو، أعظم نبلاً وأرستقراطية من المواطنين.

ومن المحتمل أن الكثيرين في عصر الغزوات الحثية من الشعوب الذين يعبدون الربة قد فروا إلى الغرب. إن تجديد هيكل الربة في مدينة أفسس كان هدف جهود بعثة الرسول بولس المتشددة (أعمال الرسل ١٩: ٢٧) إن هذا الهيكل الذي تدعي الليجندة والتقارير الكلاسية أن الأمازونيّات أسسوه لم يغلّق إغلاقاً كاملاً حتى عام ٣٨٠ بعد المسيح. وعلى طول القطاع الغربي الذي يضم مناطق عرفت باسم ليريا وليديا وكاريا توجد سجلات في الأدب الإغريقي الكلاسي والأدب الروماني عن انتشار عبادة «أم الآلهات» مع تقارير عن الأمازونيّات، النساء المحاربات. كتب ديودوروس عن أمة في هذه المنطقة «تتمتع فيها النساء بالسلطة العليا وبالحكم الملكيين». وطبقاً لهذه التقارير فإن ملكة هذه البلاد توزع مهمات غزل الصوف والواجبات البيتية الأخرى على الرجال، بينما كان القانون بيد الملكة. وزعم أن حقوق العرش تعود إلى ابنة الملكة والنساء المرموقات في سلالة العائلة. وفي أرض ليريا يقال إن هرقل اليوناني الهنـدوأوروبي الأسطوري احتفظت به الملكة امفالي. وعند هذه النقطة يبرز سؤال عما إذا كانت القصص الكثيرة عن نساء «الأمازون» لم تكن فعلاً هي السجلات الأخيرة اليونانية الهنـدوأوروبية عن نساء حاولن الدفاع عن معابد الربة القديمة فتمردن على الغزاة الشماليين الأيوين. ومع ذلك نقرأ في الموسوعة البريطانية «التفسير الممكن لقصة الأمازونيّات هي أنها قصة خارجة عن المألوف في بلاد بعيدة حيث كل شيء يتم بطريقة مغايرة، وبذلك فالنساء تقوم بالحرب، عمل الرجال».

وطيلة المرحلة اليونانية الكلاسية تكررت السلالة الأمومية وأفكار النظام الأمومي في غرب الأناضول في التقارير عن الليشيين حيث بقوا أطول من غيرهم، أو برزوا أكثر من غيرهم. كتب هيرودوت «أسأل الليشي من هو وسوف يجيب بتقديم اسمه الخاص واسم أمه وهكذا على طول السلالة الأنثوية». وكتب نيكوس

الدمشقي «ويسمون أنفسهم بعد أمهاتهم وممتلكاتهم تمر في الوراثة إلى البنات بدلاً من الأبناء». وقال هيركليدس بونتيكوس عن الليشيين «منذ القديم تحكمهم النساء».

كريت - يملكهم المبدأ الأنثوي:

كتب كثير من المؤلفين الكلاسيين أن الليشيين والكاريين كانوا على صلات قوية مع جزيرة كريت. وزعم بعضهم أن لسيا كانت مرة من المرات مستعمرة لثقافة تلك الجزيرة المثيرة. وعلى كريت وجدوا تماثيل للربة في شتى المواقع النيوليثية، مع أنه لا يوجد ما هو أقدم من الموجود على الجزيرة الرئيسية. ففي سهل ميسارا في كريت حيث اشتهرت الأبنية باسم تولوي وتشبه شياً شديداً تلك الأبنية في موقع حلف في الأرياشية (العربية - المترجم) قد اكتشفت هذه الأبنية. ومن المراحل النيوليثية حتى الغزو الدوراني كانت كريت المجتمع الذي يعتقدون أنه كان مجتمع الأمومة وراثاً ونظاماً.

المدير السابق لمدرسة الأركيولوجيا البريطانية في اليونان سنكلير هود كتب في مجلده «المينوسيون، كريت في عصر البرونز»:

«يبدو واضحاً أن عادات النوع الذي وصفناه بأنه نظام أمومي (حكم الأم) استمرت في كريت. وهذه العادات برزت في المجتمعات البدائية حيث لا يدرك الناس عندما يولد الطفل من هو أبوه. ولذلك يسمى الأولاد بأسماء أمهاتهم وكل الوراثة تنتقل إلى الذرية الأنثوية. هذا النوع من التقاليد البدائية ازدهر في غرب الأناضول في العصور الكلاسية. وهكذا بين الكاريين على الشاطئ الغربي للأناضول كانت الوراثة مازال عن طريق الأم في القرن الرابع قبل المسيح وفي لسيا وحتى جنوب شرق كاريّا كان الأطفال يسمون بأسماء أمهاتهم».

وكتب شارلز سلتمان في عام ١٩٥٢ عن هذه الثقافة المتطورة جداً في كريت، التي بداياتها تسبق عصور التوراة بقرون كثيرة. وقد رأى أنه في كريت كان النظام الأمومي أسلوباً للحياة. فناقش الحياة الجنسية للنساء والنسب الأمومي ودور «الملك» الذي يدل على وضع رفيع للنساء في أرض تظهر فيها الربة على أنها جوهر الوجود.

كتب سيلتمان «عند المتوسطيين يقوم المجتمع كقاعدة عامة على المرأة، حتى أعلى المستويات حيث النسب ينحدر دائماً من سلالة الأنثى. والرجل صار ملكاً أو رئيساً فقط لزواجه الشكلي، وابنته وليس ابنه هي التي تخلفه بحيث أن الرئاسة التالية تكون

من نصيب الشاب الذي تزوج ابنته... وحتى وصول الشماليين كان مبدأ الأنثى مسيطراً في الدين والعادات».

ويكتب غوستاف غلوتز في كتابه «الحضارة الايجية» عام ١٩٢٥ دارساً دور المرأة في كريت فيؤكد أن النساء سيطرن أساساً على شكل شعائر دينية. ويشرح ذلك بأن:

«ترأست الكاهنات الممارسات الدينية لمدة طويلة. فكانت المرأة الوسيطة الطبيعية مع المقدسات، وأعظمهن كان المرأة المؤلهة. وكثير من الأشياء تمثل الكاهنات يقمن بواجباتهن... فكانت مشاركة الرجال في العبادة، مثل مشاركة الرب مع الربة، تطوراً متأخراً. فدورهم في الاحتفالات الدينية كان دائماً دوراً تابعاً حتى عندما صار الملك الكاهن الأعلى للإرادة الملكية. وكما لو كانوا يريدون التخفيف من انتهاكاتهم وطرده الأرواح الشريرة التي يجعلهم هذا العمل تحت سلطتها... وبينما كانت العبادة الخاصة تؤدي أمام أوثان صغيرة، فقد كانت المرأة هي التي تقوم بدور الربة في العبادة العامة. والكاهنة العليا هي التي تأخذ مكانها في مقعد الربة، فتجلس عند قدم شجرة مقدسة أو تقف على قمة جبل لتتلقى العبادة والتقدمات من الكهنة المساعدين ومن المؤمنين».

ويكتب ستليانو اليكسو، مدير المعرض الأركيولوجي في ايراكليون، في الفصل الذي يعقده عن الدين الكريتي في كتابه «الحضارة المينوسية»: «فالعرش المرمري في كنوسوس يناط وفقاً لهيلغا ريوش، بالكاهنة الملكة التي تهاجمها الوحوش الخرافية المرسومة على الجدار، فتقوم بتشخيص الربة. وفي رويال فيلا يوحى العرش الذي يقام جانباً كأنه مذبح مقدس، أن هناك شخصاً حقيقياً يتقبل المتعبدين. ووفقاً لما تزر فإن الملكة عندما تهبط على درجات القصر إلى المحاكم داخل المعابد فإنها تمثل التجلي الأصلي للإلهة لجمهور المتعبدين المغتبطين».

في عام ١٩٥٨ قدمت جاكيتا هوكس بعض الملاحظات عن وضع النساء في كريت فقالت إن المرء وإن كان يفكر بإمكانية أن الربة قد تكون حلاًماً ذكورياً «لقد اعتاد الكريتيون والكريتيات في كل مكان على رؤية ربة رائعة تغدو ملكة على رب ذكر صغير متضرع، ولا بد لهذا المفهوم من أن يعبر عن موقف في المجتمع البشري يكون مقبولاً منه». وتابعت استنتاجها أن الثقة الذاتية للنساء ومكانهن المضمون في المجتمع ربما قدم الدليل بخصائص أخرى. «فهذا تأكيد جريء طبيعي عن الحياة الجنسية التي تجري عبر كل التعبيرات الدينية وكانت واضحة في اللباس المثير لكلا

الجنسين وسهولة اختلاطهما - إنها روح تفهم من خلال نقيضها: الحجاب الكامل وعزلة النساء المسلمات تحت إيمان يرفضهن روحياً.

بمعاية المتوجات واللوحات الجدارية في كنوسوس في المعرض الأركيولوجي في ايراكليون ومعارض كريت الأخرى لم يعد ثمة شك في أن الإلهة الأثني كانت لآلاف الأعوام الكائن المقدس الأساسي في كريت، مع نساء يخدمنها كإكليروس. لذلك من المفيد متابعة تجليات الثقافة الكريتيّة كما فيما بعد في اليونان القديمة، قرابة ألف عام قبل العصر الكلاسي (قرابة ٥٠٠ - ٢٠٠ قبل المسيح) الذي نعرفه أكثر.

اليونان - هجوم على العشائر الأمومية:

إن الروابط التي أقامها المستوطنون في كريت و/أو اليونان، البلاد الأم، هي التي تمزى لشعب عرف باسم الميكينيين - وقد سماهم الأركيولوجيون هكذا بسبب موقع من مواقع البلاد الرئيسية - ميكتنا. هناك دلائل على أصل الشعب الذي سكن هذه المواقع قديمها باحثون مع احتمالات مثيرة للاهتمام. فمعظمهم يؤمنون أن الميكينيين كانوا مجموعة من الهندوأوروبيين، ربما من شعب الآخيين نفسه، أو ربما من هجرة أبكر لقبائل نزحت من الشمال. باحثون آخرون يؤكدون أنهم كانوا مستوطنين من قبل في كريت وأنهم قاموا بانقلاب على الحكومة السابقة قبل عام ١٤٠٠ قبل المسيح بقليل. بعضهم يربطهم بمجموعة عرفت باسم شعوب البحر، بينما ما يزال آخرون يرون أنهم فلسطينيون أو أن الفلسطينيين كانوا فرعاً من الميكينيين. بل هناك اعتقاد أن الميكينيين مرتبطون بالهكسوس (الملوك الرعاة) الذين استخدموا العجلات التي تجرها الخيول واخضعوا مصر لحكمهم عدة قرون. وطرد الهكسوس من مصر حصل في الوقت نفسه الذي ظهر فيه الميكينيون أول مرة.

مهما كانت نشأتهم الأولى، فإن السبب الذي يجعل الميكينيين هامين لنا هنا هو أن ثقافتهم كما نعرفها جيداً كانت في جزء منها كريتيّة، وفي جزئها الآخر يونانية. ويعتقد معظم الباحثين أنهم نقلوا الثقافة الكريتيّة من كريت إلى اليونان. إن ألواح الميكينيين (ب) التي هي قوائم جرد، عثر عليها في قصر كنوسوس وكلها مؤرخة بالسنة ذاتها، قرابة ١٤٠٠ قبل المسيح، وكتبت بلغة يعتقد الباحثون أنها تختلف عن اللغة المستخدمة سابقاً في كريت. وبعد سنوات كثيرة من النقاش وافق معظم الباحثين أن اللغة المستخدمة في الألواح (كتبت بكثير من الرموز والإشارات استخدمت في لغة أقدم لم تحل ألغازها بعد، وإن كان غوردون قدم دليلاً كبيراً أن هذه اللغة كانت وثيقة

الصلة باللغة الكنعانية التي استخدمت في أوغاريت) هي شكل مبكر للغة اليونانية. فإذا كان الميكينيون أو قادتهم هندوأوروبيين في أصلهم كما تشير الألواح، فإنهم حالما استوطنوا في كريت تبنا كثيراً من أمور الجزيرة وأسلوب التقنيات الحرفية وطرز اللباس وطريقة الكتابة ودين سكان الجزيرة السابق.

ويخبرنا كوترل أن «الفن الميكيني استمر يعكس الثقافة المينوسية (نسبة إلى الملك مينوس الذي عاش في الفترة الميكينية نفسها - المترجم) لشعوب المتوسط... الذين تبنا نظامهم في الكتابة». ويكتب هتشيوسون من جامعة كامبردج أنه «في منتصف الألف الثاني على الأرجح كان الإغريق قد استقروا في كريت، ولكن بأعداد قليلة نسبياً، وقد بنى هؤلاء الإغريق الميكينيون كثيراً من العبادات الكريتية والعادات الدينية. وحتى في بلادهم الرئيسية نجد بقايا من الدين المينوسي أو على الأقل من الدين السابق على الهيلينية...».

في كاتالوج المجموعات القبل تاريخية للمتحف الأركيولوجي القومي في أثينا يشير القِيمون «في الدين الميكيني الذي حمل كثيراً من السمات الكريتية الواضحة، نلاحظ قبل كل شيء ظهور ربة الطبيعة الكريتية». في هذا المتحف الضخم مجموعة من المتوجات التي اكتشفها حفريات المستوطنات الميكينية في بلاد اليونان الأم، وهي مجموعة تتوجها صناعة معقدة لحواتم ختمية ذهبية، وأختام رسمت عليها مشاهد للربة وكاهناتها - مشاهد تكاد تكون واحدة مع تلك التي أنتجتها كريت المينوسية.

بمناقشة مجموعة الألواح (ب) التي اشتهرت بعض أسماء أمهاتها بعدئذ في اليونان الكلاسية بإشارات مختصرة، يشرح كوترل قائلاً «... هناك أيضاً في ييلوس (في البلاد الأم) وفي كنيوس (في كريت) إشارة متكررة إلى بونتيا - السيدة أو سيدتنا وهذه المخطوطات الأخيرة تثبت ما افترضه الأركيولوجيون منذ أمد بعيد من الأدلة على الأختام المكتشفة في البلاد الأم - إن الميكينيين عبدوا أيضاً الربة الأم المينوسية».

استوطن الميكينيون كريت وحكموها في قصر كنوسوس قبل الحريق الضخم بقليل، والأرجح أن يكون بسبب غزوة أو هزة أرضية. أسس هذا الشعب نفسه كثيراً من المدن قبل اليونانيين في البلاد الأم - وقد أحضروا معهم عبادة الربة الكريتية. ويمتد العصر الميكيني عادة بين ١٤٥٠ و ١١٠٠ قبل المسيح. فتاريخ بداياته تسبق مباشرة الفترة التي ظهر فيها موسى. وقد استمر الازدهار قروناً قبل يونان هومر وفي هذا العصر وقعت أحداث كعب عنها هومر أو بعد وقوعها بقليل. إن البحث عن هيلين هو

البحث عن الحقوق الشرعية لعرش أسبارطة. ومع أن اليونان الكلاسية تقدم لنا على أنها الأساس الحقيقي لثقافتنا وحضارتنا الغربية فمن المهم التأكيد أن هذا حصل بعد خمسة وعشرين قرناً من اختراع الكتابة، وقد صبغت الحضارة اليونانية نفسها نتيجة التأثير العميق لثقافات الشرق الأدنى التي سبقتها بألاف السنين.

وقد غزت الشعوب الشمالية اليونانية مرات عديدة. كتب روبرت غريغز في مقدمته لكتابه «الأساطير اليونانية» عام ١٩٥٥ «أضعفت الغزوات الآخية في القرن الثالث عشر قبل المسيح التقليد الأمومي إلى حد بعيد... وعندما وصل الدوريون، قرابة نهاية الألف الثاني كانت الوراثة الأبوية هي القاعدة». ومع هذا الشعب الشمالي دخلت العبادة الهندوأوروبية لـ «دايوس ييتار» التي تعني حرفياً الأب الإله، وبالتدريج عرف في اليونان باسم زيوس وفي روما باسم جوبتر. هذه الفترة الانتقالية للتغير من عبادة الربة إلى عبادة الإله الذكر، التغير الذي جاء مع الغزوات الدورانية، كان كتاب ييتوروت «بقايا من العالم قبل الأولمبي» الذي كتبه عام ١٩٦٦.

لقد عزم ييتوروت أن يفعل مع اليونان ما كانت فعلته موراي مع مصر. ويتبعه أنساب البيوتات الملكية بعناية، بين أن الكثير من أعظم المدن السابقة على الإغريق، التي كانت بالأساس أمماً صغيرة، كانت من حيث الأصل مدناً أمومية. وقد استنتج أن أرغوس وطيبة وتيرنس وأثينا، وكذلك المدن الأخرى، اتبعت في زمن ما العادات الأمومية في السلالة. ويشرح بأن هذا إنما نتيجة عبادة الربة وأصولها الكريتية، مبيناً أن كريت نفسها كانت أمومية والأرجح أن تكون ذات نظام أمومي.

لقد اهتم أساساً بالثورة الأبوية، في الزمن الذي حققت فيه العشائر الأبوية انتصاراً عنيفاً لفرض عاداتها على كل المحيطين والجوار:

«لم تكن الأمومية شاملة لكل العالم الإغريقي والإيجي، إلا أنها انتشرت انتشاراً واسعاً... وقد كان مؤثراً تأثيراً كبيراً نظام استخلاف القرابة ووراثة الملكية في تلك الأيام. إن أغلبية العشائر كانت عاداتها أمومية وأعظم ثورة في تاريخ اليونان القديم تلك العادة التي تغيرت من وراثة الأم إلى وراثة الأب وتدمير الولاء للعشيرة».

من عام ٣٠٠٠ قبل المسيح ومابعد صورت الكاهنات في المنحوتات وظهرت في اللوحات المجدارية وفي المتوجات الفنية الأخرى لكريت فتشير بقوة إلى أن النساء هن اللواتي سيطرن على العبادة. وحكمت كريت فيما بعد من قبل الميكينيين الذين تبنا عندئذ ديانتهم وكثيراً من مظاهر ثقافتهم. وبما أن متوجات الميكينيين الفنية الدينية

رسمت أكليروس الربة من نساء فمن المحتمل جداً أن النساء في المجتمعات الميكينية في اليونان حصلن على هذا الامتياز. وقد أكد بيتروث أن النساء، وبالأخص نساء البيونات الحاكمة، هن اللواتي كن حاميات الدين. ويفصل في الشرح فيقول إن:

«الهجوم على العشائر الأمومية دمرت قوة العالم العشائري نفسه، ومعه دمرت دينه... فتاريخ تلك العصور تكتنفه كثيراً صراعات الأبوة والأمومة كما تحطمت الأسر الدينية القديمة، فكنتست وأعيد بناؤها... وقد انتهى العالم الأمومي بسبب مذابح مجرمة في قلب ذلك العالم، في البيونتيا مثير (الربة العظمى) ذاتها».

لا أستطيع إلا أن أتذكر الليجندة الإغريقية عن الربة المشهورة باسم هيرا، التي يبدو أن عبادتها جاءت من العصور الميكينية وثورتها الفاشلة ضد زوجها الجديد زيوس، وهي ليجندة مجازية تذكرنا بأولئك اللواتي ناضلن من أجل سيادة الربة - وفشلن. ومع ذلك طبقاً لهوكس فإن كثيراً من المواقف عن الوضع المتدني للنساء في اليونان الكلاسيكي بولغ فيها بسبب «انحياز دراسات القرن التاسع عشر». وترى أنه حتى في مرحلة اليونان الكلاسيكية احتفظت النساء ببعض حرية أسلافهن الكريتيات:

«وكما في كريت فقد شاركت النساء في سلطة الربة نفسياً واجتماعياً، فكانت الكاهنات ذات مكانة رفيعة، وكهنوتياً كانت تشكل مجموعات من النساء حول المعابد والأماكن المقدسة. فكانت هناك مثلاً مجموعة خدمت في معبد أرتميس (ديانا) الشهير في افسس. والحقيقة أنه في هذه المدينة بل في أيونيا عامة تتمتع النساء والفتيات بكثير من الحرية. وبينما حققن النساء تأثيراً وحزناً مسؤولية بالخدمة في المعابد واحتفالات الدولة الكبرى بالربة، كان هناك أيضاً حرية ممنوحة للعبادات القديمة، فالزعيقات والفتيات المحترمت في مجموعات كبيرة يمضين الليالي بكاملها على الهضاب المكشوفة في الرقص الذي يثير النشوة، وفي السكر، وربما شرب الكحول ولكن بطريقة صوفية. وقد اختفى الأزواج ولكن يقال إنهم لم يرغبوا في التدخل في الشؤون الدينية».

في عصر أسبارطة الكلاسيكي، حيث تقديس الربة أرتميس استمر قوياً، كانت النساء يتمتعن بحرية كبيرة واستقلال أوسع. طبقاً لما يقوله يوريديس وبلوتارك فإن النساء الأمبارطيات الشابات لا يقعن في البيوت بل في الجمنسيات (معاهد رياضية للتدريب - المترجم) حيث يخلعن ثيابهن الضيقة ويتصارعن عاريات مع أترابهن الذكور. ويبدو أن نساء أسبارطة كن يتمتعن بحرية جنسية كاملة، ومع أن الزواج

الأحادي كان القاعدة الرسمية للزواج، فقد وردت إشارات في عدة آثار كلاسية تبين أن هذا الزواج لم يكن ينظر إليه نظرة جادة. وكتب بلوتارك أن خيانة النساء في أسبارطة كانت شياً مريعاً، بينما يخبرنا نيكولاس الدمشقي، ربما نتيجة بعض التجارب الشخصية، أن امرأة أسبارطية أعلنت أنها ترغب في أن تحبل من أجمل رجل تجده سواء كان وطنياً أو كان أجنبياً.

كنعان - الوضع الاجتماعي والشرعي لزوجات إسرائيليات...

لقد أقيمت دراسة النساء في أمتين عبريتين: يهوذا وإسرائيل إلى الأخير، لأننا نعتبرهما جزءاً من مجتمع أبوي منعزل عبد الإله المذكر وحده. وعند هذه النقطة من الواضح أننا نقارن وضع النساء العبريات ليس بمعاصراتهن في بابل ومصر فقط وهما ثقافتان تداخلتا في ثقافتهم، وإنما أيضاً بنساء أخريات في كنعان، باعتبارها المستقر الأخير للعبريين.

في مدينة أوغاريت في شمال كنعان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، التي لم تكن مجتمعاً عبرياً، توجد سجلات عن امرأة ترجم لقبها على النحو التالي «السيدة الهامة في البيت الملكي». وكانت تعرف بأدات (تعني السيدة مقابل أدون الذي يعني السيد). والربة في هذه المنطقة عرفت باسم أنات ونرجح أن تكون هي الكلمة ذاتها. نصوص أوغاريت (اليوم اسمها رأس شمرا في سوريا) حيث اكتشفت ليجندات عن أنات دلت أن هذه «السيدة الهامة» لعبت دوراً فعالاً في الشؤون السياسية.

كتب كلود شيفر نائب مدير الحفريات الأولى في أوغاريت عام ١٩٣٩ «يبدو أن الوضع الاجتماعي للنساء وبالأخص أم الأسرة هو وضع رفيع في أوغاريت». وتكشف الوثائق الأوغاريتية لهذه الحقبة بالذات أن المرأة في حالة الطلاق أو الترميل تحتفظ بملكيتها. ومثبه بذلك السجلات الرسمية في عيلام، فتتص أن الأزواج يتركون ممتلكاتهم لزوجاتهم لا لأبنائهم، ويتلقى الأبناء وصية بالآل يختصموا وأن يحترموا ويطيعوا أهمهم. وكما سوف أشرح في الفصلين التاليين، فقد كان هناك في أوغاريت لقاء غريب بين الثقافات الجنوبية والشمالية، انعكست في أساطيرهم الدينية. وهناك ظواهر لكثير من الحياة الهندوأوروبية في تلك المدينة في القرن الرابع عشر قبل المسيح رصدت في الوثائق، ومع ذلك لا يبدو أن وضع النساء قد تأثر كثيراً بهذه الظواهر.

بين عموني كنعان وهو شعب احتدم الصراع بينه وبين العبريين باستمرار، كانت النساء تعمل في الدوائر الرسمية. وفي عام ١٩٦١ كتب الأركيولوجي لانررز عن

«الوضع الرفيع للنساء لكونه متفقاً مع الممارسة البدوية». ويقول أن الملكات، كملكة سبأ مثلاً (قرابة عام ٩٥٠ قبل الميلاد) قادت في ذلك الزمن الولايات العربية أو القبائل العربية وهذا ما حصل أيضاً في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.

بالمقابلة مع وضع النساء الاقتصادي والشرعي والاجتماعي في كل الجوار، يعكس وضع النساء الاسرائيليات كل النتائج المترتبة على القبول الكلي للالة الذكر يهوه، والمجتمع الأبوي المرافق له. وطبقاً للتوراة المقدسة، وإن لم نعثر على دليل أركيولوجي واحد يؤيده، فإن الشرائع الاسرائيلية ترجع بتاريخها إلى موسى (قرابة ١٣٠٠ - ١٢٥٠ قبل الميلاد). واستمرت هذه الشرائع قانوناً للعبريين في كنعان حتى سقوط المملكة الشمالية المعروفة باسم إسرائيل في عام ٧٢٢ قبل المسيح وسقوط المملكة الجنوبية المشهورة باسم يهوذا (أو اليهودية - المترجم) عام ٥٨٦ قبل المسيح. هذه القوانين ذاتها مازال تظهر في العهد القديم من الكتاب المقدس اليهودي/المسيحي حتى هذه الأيام.

من خلال دراسة مكثفة للكتاب المقدس وضع الأركيولوجي والكاهن رولاند دي فوكس هذه الملاحظات عن النساء العبريات وقد ظهرت دراسته عام ١٩٦٥ ونشرت بعنوان «اسرائيل القديمة»:

«إن الوضع الاجتماعي والشرعي لزوجة إسرائيلية كان متخلفاً جداً عن الوضع الذي تشغله زوجة في الأقطار المجاورة الكبرى... فكل النصوص تبين أن الإسرائيليين يرغبون في الأبناء لاستمرارية ذرية الأسرة والثروة، وللحفاظ على ميراث الأجداد... فيما كان رجل أن يطلق زوجته.. ولكن من جهة أخرى لاتستطيع النساء أن يطلبن الطلاق... الزوجة تنادي زوجها ببعل أو سيد وتسميه أدون أو رب، فتخاطبه في الحقيقة كما يخاطب العبد سيده أو كما يخاطب التابع مليكه. والوصايا العشر تجعل زوجة الرجل من ضمن ممتلكاته... وطيلة حياتها تبقى ضئيلة. والزوجة لاترث شيئاً من زوجها، ولا البنات من آبائهن، إلا عندما لا يوجد وريث ذكر. وإذا نذرت فتاة أو امرأة متزوجة نذراً فإنه حتى يكون مشروعاً يحتاج إلى موافقة الأب أو الزوج، فإن لم يكن هناك موافقة فالنذر ملغى وباطل. وللرجل حق بيع ابنته والنساء لا يرثن لهن».

وعلى عكس الثقافات الأخرى للشرق الأدنى، يؤكد دي فوكس أنه لم يكن يسمح بقيام كاهنات في العقيدة الإسرائيلية. ويشرح ذلك:

«إن الإفتراض أن هناك نساء بين كهنة المعبد يصطدم بحقيقة لغوية هامة: توجد

كاهنات في آشور، وكاهنات رفيفات المستوى في الطبقة العليا في فينيقيا حيث يستدل على ذلك من كلمة كوهن (كاهن باللغة العبرية) المؤنثة، وفي المخطوطات المينوسية هناك كلمة أثوية لو (ومعناها كاهنة - المترجم) وأما عند العبريين فلا توجد كلمة تقابل كلمة كوهن ولا كلمة لو. فلا توجد نساء إطلاقاً بين الأكليروس الإسرائيليين.

ويمكن أن أضيف أنه طبقاً للشرية العبرية بأن المرأة لاحق لها بالمال أو الملكية في الطلاق، وبما أن نذرنا غير قانوني فبالطبع لا يستطيع أن تشغل عملاً. وربما أشد القوانين صدمة في كل الشريعة التي أعلنت أن المرأة يجب أن ترحم أو تحرق حتى الموت إذا فقدت عذريتها قبل الزواج، وهذا بند لم يظهر إطلاقاً في أي قانون من قوانين الشرق الأدنى، وعلاوة على كونه جريمة اغتصاب فإن المرأة تجبر على الزواج من المغتصب فإذا كانت من قبل مخطوبة أو متزوجة فإنها ترحم حتى الموت لأنها اغتصبت.

ربما كان أوضح شرح لوضع النساء العبريات قديماً كشفه الأركيولوجي يوسيشكين عام ١٩٧٠. وصف ضريحاً قديماً اكتشف حديثاً في إسرائيل على هذا النحو: «ويبدو أن جسداً، وهو للزوج، قد وضع أعلى من الجسد الآخر وهو للزوجة، وهكذا كان وضع المرأة المتدني يتجلى أيضاً بعد الموت».

وعلى الرغم من الوضع المتدني الذي نصت عليه الشرائع والعادات العبرية، هناك حادثتان تفصحان عن إمكان ازدهار دين الربة القديمة حتى داخل البيت الحاكم في إسرائيل. وارتباطهما بالمعتقدات القديمة يوحي أن الملكين قد تكونان استولتا على السلطة عن طريق العادات الأمومية التي عادت متسللة إلى إسرائيل مع بقية الأنماط «الوثنية». والحادثتان بطلتهما امرأتان تصنفان باعتبارهما ملكتين عبريتين، الواحدة في إسرائيل والأخرى في يهوذا (أو اليهودية كما أشرنا - المترجم).

الأولى تتعلق بامرأة عرفت باسم الملكة معكة، ويرجح أن تكون سليلة أميرة آرامية تحمل الاسم ذاته كانت بين حرم الملك العبري داود. كانت معكة الثانية مصنفة في التوراة باعتبارها ملكة رجبعام ملك إسرائيل من ٩٢٢ إلى ٩١٥ قبل المسيح تقريباً. أمه لم تكن عبرية وإنما أميرة عمونية. وعرف عن الملك هذا أنه أقام عجولاً ذهبية «وثنية». وتفترض موراي أن هذه الملكة نفسها كانت فيما بعد زوجة الملك التالي أيام الذي جاء أنه ابن معكة ورجبعام. وافترضها يقوم على حقيقة أن بعض نسخ التوراة تصنف

معكة على أنها أم ايام ابن اسا. ونسخ أخرى تصنف معكة على أنها جدته ولكنها تضع اسمها مكان اسم الأم دون الإشارة من كانت أمه وهذا نمط يختلف كل الاختلاف عن المواصفات الأخرى للأبناء العبريين الملكيين. كتبت موراي «التفسير الوحيد أن ايام واسا لهما الأم ذاتها، عن طريق زواج ايام بأمه».

واسا هي التي أدخلت كثيراً من الإصلاحات العبرية فقمعت ما كان سائداً من الممارسات «الوثنية» وأخيراً خلعت معكة عن عرشها، في ضوء هذه التناقضات الغريبة في سلالة اسا، فإن السبب الذي تقدمه التوراة لخلعها هو الأهم. في سفر الملوك الأول ١٥: ٢ - ١٤ نقرأ أن معكة صنعت تماثلاً لعشيرة، أي تماثل الربة عشيرة. ونظراً لتكرار الدليل على «الوثنية» خلال هذه المرحلة، فإن إسرائيل على ما يبدو قد أخذت بالعادات الدينية القديمة، فوافقت في ذلك العصر على الدين الأنثوي ووراثته العرش عن طريق القرابة الأمومية. فإن كان الأمر على هذا النحو فإن معكة تكون وارثة ملكية واحتلت هذا المركز إلى أن عادت إسا، وربما تحت تأثير الكهنة العبريين، مرة ثانية إلى توطيد دين يهوه.

ويرجع تاريخ الحادثة الثانية إلى قرابة عام ٨٤٢ قبل المسيح عندما اعتلت عثليا بنت الملكة ايزابل، عرش مملكة يهوذا باعتباره حقاً لها. طبقاً للشريعة العبرية لم يكن مسموحاً للنساء أن يحكمن منفردات بالعرش. ومع ذلك فقد تطلب الأمر ثورة عنيفة لخلعها. ايزابل نفسها كانت تعتق الدين القديم. وأبوا ايزابل، جدا عثليا، كانا كاهناً وكاهنة من مستوى رفيع لعشروت وبعل في مدينة صيدا الكنعانية وقد حكما هناك كملك وملكة. إن مقتل ايزابل التي حكمت جنباً إلى جنب مع آحاب كملكة في مملكة اسرائيل الشمالية كان حقاً اغتيالاً سياسياً لدين الربة. ويبدو هذا واضحاً في الأحداث التي أعقبت مقتلها حسب رواية التوراة في سفر الملوك الأول والملوك الثاني. وهكذا من الضروري أن نلاحظ أن ابنة ايزابل هي التي اعتلت العرش الملكي لمملكة يهوذا، وهي المرأة الوحيدة التي حكمت أمة العبريين وحدها. والأكثر أهمية هي أن عثليا حالما ضمنت حقوقها في اعتلاء العرش حكمت زهاء ست سنوات، فأعادت توطيد الديانة الوثنية القديمة في كل الأمة، فزادت الكهنة العبريين غمماً على غم.

خلاصة:

مع أن السبب والنتيجة بين السلالة الأمومية والوضع الأنثوي وتقديس الربة يعانيان غالباً من الاضطراب، فإننا لانستطيع أن نتحاشى حقيقة أن الأدلة المتكررة التي تؤيد أن

دين الربة ونظام القرابة الأمومي كانا متداخلين في كثير من أصقاع الشرق الأدنى. ومع أن الكثير من مظاهر نظام الأمومة ترتبط بالملوكية فهناك ما يكفي للقول إن العادات الأمومية كانت تمارس في مناطق كثيرة من قبل عموم السكان أيضاً. وفي دراستنا لانتقال الناس من دين الربة إلى عبادة الإله الذكر ككائن فائق والنتائج المترتبة على وضع النساء نجد أنماطاً معينة تأخذ طريقها إلى الظهور.

منذ بداية الألف الثاني كان الآشوريون في تماس سياسي وتجاري وثيق مع الحثيين الهندوأوروبيين. فالأمراء الحوريون الهندوأوروبيون ظهروا في شتى مدن سوريا الشمالية منذ ذلك الزمن وما بعد. وبحلول عام ١٦٠٠ قبل المسيح كانت بابل قد خضعت للكاشيين الهندوأوروبيين. وبحلول عام ١٥٠٠ قبل المسيح كانت آشور قد وقعت نهائياً تحت سيطرة الحوريين الذين شكلوا مملكة ميتانيا (كثير من المصادر تسميها ميتاني - المترجم).

ومع هذه الغزوات دخلت أسطورة مردوخ الذي قيل إنه قتل الربة ليحتل المركز الأعلى في بابل. وفي آشور نسمع الأسطورة ذاتها، كل ما في الأمر أن اسم آشور حل محل مردوخ. وخلال الألف الثاني تسلل الهندوأوروبيون إلى قلب بلاد كنعان ومابين النهرين، وكما سوف أوضح في الفصلين التاليين، قد يكونون قد لعبوا دوراً هاماً في تشكيل الدين الإسرائيلي والشرائع اليهودية.

من الأفضل في هذه النقطة أن نلخص التغيرات في القوانين باعتبارها تؤثر في شتى مظاهر حياة النساء. ففي أشنونا (في سومر) قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح كان الرجل الذي يغتصب امرأة يحكم بالإعدام. وفي بابل القديمة أيام حمورابي، قبل غزوات الهندوأوروبيين، مع أن كثيراً من الشماليين كانوا في بابلونيا حتى في ذلك العصر فإن العقوبة ذاتها كانت تنفذ. وفي قوانين آشور التي يرجع تاريخها بين ١٤٥٠ و ١٢٥٠ قبل المسيح (عندما كانت آشور تحت سيادة الهندوأوروبيين) نقرأ أنه إذا اغتصب رجل امرأة فإن زوج تلك المرأة أو أبائها يقوم باغتصاب زوجة المغتصب أو ابنته و/أو يزوج ابنته للمغتصب. والجزء الأخير من القانون كان قانوناً للعبريين الذين أضافوا أن المرأة المغتصبة يجب أن تعلم إن كانت متزوجة أو أرملة. ويبدو أن القوانين الآشورية هي أولى القوانين التي أشارت إلى الإجهاض فجعلت عقوبته الإعدام.

وتشير إصلاحات أوروكاجينا (قرابة ٢٣٠٠ قبل المسيح) إلى حقيقة أن النساء اعتدن أن يتخذن زوجين، ومع ذلك ففي زمن حكمه (حكم أوروكاجينا - المترجم) لم

بعد يسمح بذلك. وفي قوانين أشنونا كل رجل يتخذ زوجة ثانية، بعد أن تلد له زوجته الأولى طفلاً، يطرد من البيت من دون أي ممتلكات. وفي أشنونا إذا ولدت امرأة طفلاً من رجل آخر أثناء غياب زوجها في الحرب، فإن زوجها يعيدها إليه كزوجة. ولا توجد إشارة إلى عقوبة الزنى. وفي قوانين حمورابي إذا ارتبطت امرأة جنسياً برجل آخر فتؤخذ لقسم اليمين في المعبد ثم تعود إلى بيتها وزوجها. والقوانين الآشورية والعبرية منحت الزوج حق قتل كل من الزوجة والعشيق.

من الصعب نوعاً ما أن نعقد مقارنة بين شتى الأمكنة والمراحل لأن القوانين قد اشتملت على تشريعات لأحداث خاصة ولأوضاع مختلفة جداً. إن التغيرات الكبرى في القوانين التي تخص النساء أصابت حقهن في العمل في النشاطات الاقتصادية ومايورثن وما لا يورثن، وما يسمح لهن بتوريث أولادهن، والموقف من الاغتصاب والإجهاض والخيانة من قبل الزوج أو الزوجة وعقوبة الموت - عند العبريين فقط - للنساء إذا فقدن عنصريتهن قبل الزواج. وبما أن هذه القوانين تتأثر أساساً بالنشاطات الاقتصادية والجنسية للنساء فإن الأرجح أنها استهدفت عادات النسب الأمومي. والحقيقة الناصعة أن كثيراً من القوانين التي تهتم بالنساء تدل على أن كلاً من الوضع الاقتصادي والجنسي للنساء أخذ يتغير باستمرار منذ زمن الغزوات الشمالية الأولى (قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح) حتى قوانين العبريين المرجح أنها كتبت بين ١٢٥٠ و ١٠٠٠ قبل المسيح - مع أن النصوص العبرية الأساسية كما أشرت لم تكشف بعد. وفي البحث عن أي مدى تأثرت عادات القرابة الأنثوية وتبجيل الإلهة الأنثى بوضع النساء، فقد يكون من الأفضل أن نحكم على ذلك من ملاحظتنا عن النساء في القبائل العبرية التي تبنت عبادة الإله الذكر الجديد وحده والقوانين الناجمة المسيطرة على وضعهن وحقوقهن في المجتمع الذي عشن فيه.

كما لا بد أيضاً من أن نأخذ بعين الاعتبار إمكانية أنه حتى من الناحية الشخصية نجد أنه كما يصلي العبريون من أجل الأبناء ويتهجون عندما يولد الوارثون الذكور ليتابعوا ذرية الأسرة (ولا يبعد ذلك عن موقف الكثير من الأسر حتى هذه الأيام) فإن ولادة البنات في المجتمعات الأمومية كانت تعتبر نعمة خاصة. والأولاد الإناث يدللون للأسباب ذاتها. فطبقاً للقيمين على المتحف الأركيولوجي في جامعة كامبردج في انكلترا أنه حتى اليوم وفي مجتمع أساتني الأمومي في إفريقيا يولون قيمة خاصة للأولاد الإناث لقوتهم على نقل الدم (موغيا) ولاستمرارية الذرية الأمومية (أبوسوا). وفي العصور القديمة عبدت سن رية أرينا في الأناضول مع ابنيها وجدتها. والخاميس

في أسام عبدوا ربهم مع بناتها الثلاث وابنها المشاكس. أما ما يحدثه هذا من نتائج عاطفية على تقدير الفتاة وتطورها في ذلك الزمن فلا نستطيع معرفتها إلا على الظن. إن وعي علاقة تقديس الربة بالميراث الأمومي للاسم والملكية والحقوق والعرش ضروري لفهم اضطهاد ديانة الربة. وكما سوف أوضح فإن هناك سبباً كامناً وراء الامتناع من عبادة الربة (وكل ما تمثله) الذي أبداه الغزاة الأبويون الذين قدموا من الشمال.

بحكم الحضور المستمر للربة كإلهة فائقة في المجتمعات النيوليثية والنحاسية في الشرقين الأدنى والأوسط فإن عبادة الربة، والأرجح أن تراقفها العادات الأمومية، تبدو أنها وجدت من دون أن تواجه تحدياً لآلاف السنين. ولدى ظهور الشماليين الغزاة، الذين شكلوا كل أركان النظام الأبوي ووطدوا العادات الأبوية وعبادة الإله الذكر الفائق، وأحياناً قبل وصولهم إلى المناطق التي تعبد الربة، أخذت تحدث تغيرات كبيرة في المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية. من هؤلاء الشماليون؟ وكيف استطاعوا أن يقمعوا ويدمروا بالتدريج دين الربة القديمة الذي استمر لآلاف السنين؟

الفصل الرابع

غزاة الشمال

السؤال لماذا ومتى بدأت القبائل الشمالية تختار رباً ذكراً هو سؤال غير مجد. ففي تطورهم المبكر لم يتركوا لا ألواحاً ولا معابد. فقط عقب وصولهم إلى مجتمعات عبدة الربة في الشرقيين الأدنى والأوسط، التي كانت في ذلك الوقت قد تطورت إلى مراكز مدنية نشيطة، دخلوا ضمن نطاق اهتمامنا.

فقدان أي دليل على مراكزهم الثقافية الأولى في ديارهم الشمالية في روسيا وإقليم القوقاز قبل غزواتهم يفرض علينا أنه حتى وصولهم إلى الشرقيين الأدنى والأوسط، كانوا على الأرجح مجموعات بدوية تعمل في الصيد. البري والبحري، ويحتمل أن الرعاة باشروا ممارسة الزراعة. يشار إلى تلك الشعوب الشمالية في شتى السياقات على أنها هندوأوروبية أو هندوأيرانية أو هندوأرية أو آرية هكذا بكل بساطة. وجودهم، حالما ظهوروا في المراحل التاريخية، يصورهم محاربين عدوانيين يمتطون عربات حرية بارتفاع الصدر تجرهما الخيول، وظهرهم المغامر المبكر في أزمنة ما قبل التاريخ كان أنهم بحارة ماهرون مخروا أنهار وشواطئ أوروبا والشرق الأدنى.

في مناقشة نشأتهم تكتب هوكس عن جماعات ميزوليثية ونيوليثية عرفت بـ «ثقافات بلطة المعركة» فتخبرنا أن:

«الباحثين لم يختلفوا حول موضوع من الموضوعات مثل اختلافهم كل هذا الاختلاف الكامل أو فقدان الكبير للموضوعية، في موضوع أصل هذه الثقافات. وسبب هذا الاندفاع يكمن في شيء واحد اتفق الباحثون عليه - وهو أن ثقافات بلطة المعركة تمثل جذور الشعوب المتحدثة بالهندوأوروبية... وما يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن شعب بلطة المعركة له أصول عرقية كبيرة، وورثة اجتماعية وثقافية عن صائدي السمك وثقافات الغابات من أمثال الماغيلموسيين والكونديين... وإن لم يكونوا هكذا دائماً وفي كل مكان، فهذه السمعة ظهرت في وقتها لتكون سمعة زراعية أبوية حرية توسعية سائدة».

بعض الباحثين يربطون الشعوب المتحدثة بالهندوأوروبية بثقافة شعب الكورغان النيوليثي الذي عاش في روسيا شمال البحر الأسود والقوقاز تماماً. وهناك فرضية تقول إن شعب الكورغان سيطر أخيراً على أوروبا النيوليثية، وذهب أحد الكتاب إلى حد القول إن هؤلاء هم الذين أدخلوا اللغة الهندوأوروبية إلى الشعوب الأوروبية في ذلك الوقت. وبما أننا لا نملك دليلاً عن لغة شعب الكورغان في روسيا أو الشعب الأوروبي في ذلك الزمن، فلا بد أن نظل هذه النظرية عن هذا الزمن نظرية تأملية. (هذا المقطع كان بالأصل هامشاً علقت به المؤلفة على كلام هوكس السابق فجعلناه هنا تجنّباً للهوامش - المترجم).

استقرت هذه الشعوب الماغليوسية والكوندية في العصور الميزوليثية (قرابة ١٥٠٠٠ - ٨٠٠٠ قبل المسيح) في الغابة وفي المناطق الشاطئية لأوروبا الشمالية، ومعظمهم استقر في الدائم. وكانت مواقعهم تمتد شمالاً أكثر من مواقع المجموعات الغرافيتية الأورغناسية التي تركت لنا إرثاً من تماثيل فينوس.

لم يكن غزو الشعوب الشمالية حادثاً كبيراً مفرداً بل كان بالأحرى سلسلة من الهجرات التي تمت في موجات واستغرقت مرحلة لا تقل عن ألف سنة وربما ثلاثة آلاف سنة. غزوات المرحلة التاريخية التي بدأت قرابة عام ٢٤٠٠ قبل المسيح نجدها في الأدب وبقايا المتوجات الفنية وقد اتفق عليها معظم المؤرخين والأركيولوجيين. أما عصور ما قبل التاريخ فتخضع للتأمل وتقوم على دليل مفترض وعلى ترابطات إيتيمولوجية. وتلك الغزوات المبكرة والقليلة التوسع سوف تأخذنا خلقاً إلى ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل المسيح، وقد حدثت قبل عصر السجلات المكتوبة. وهي عموماً لم ترتبط مع القبائل الغازية نفسها، ومع ذلك على أساس الدليل الذي يظهر أشعر أنني يجب أن أشير إليهم في كل المراحل البارزة تاركة القارئ يرسم استنتاجاته الخاصة.

لكن الأشد أهمية أن غزاة الشمال في العصور التاريخية رأوا أنفسهم شعباً متفوقاً. ويبدو أن هذا الوضع قائم أساساً على قدرتهم على غزو المزيد من المستوطنين السابقين الأكثر تطوراً منهم، وهم شعب الربة. لقد كان الهندوأوروبيون في صراع دائم ليس فقط مع الشعب الذي يغزون أراضيهم بل بين أنفسهم أيضاً. والنمط الذي يبدو في كل بقعة يظهر فيها هو أنهم مجموعة من المحاربين المعقدين تصحبهم طائفة كهنة من المستوى الرفيع يغزون أولاً ومن ثم يحكمون السكان الأصليين لكل بلاد يدخلونها. الترايخ المقدمة لظهورهم الأولي في الشرق الأدنى مختلفة. فالبروفسور جيمس

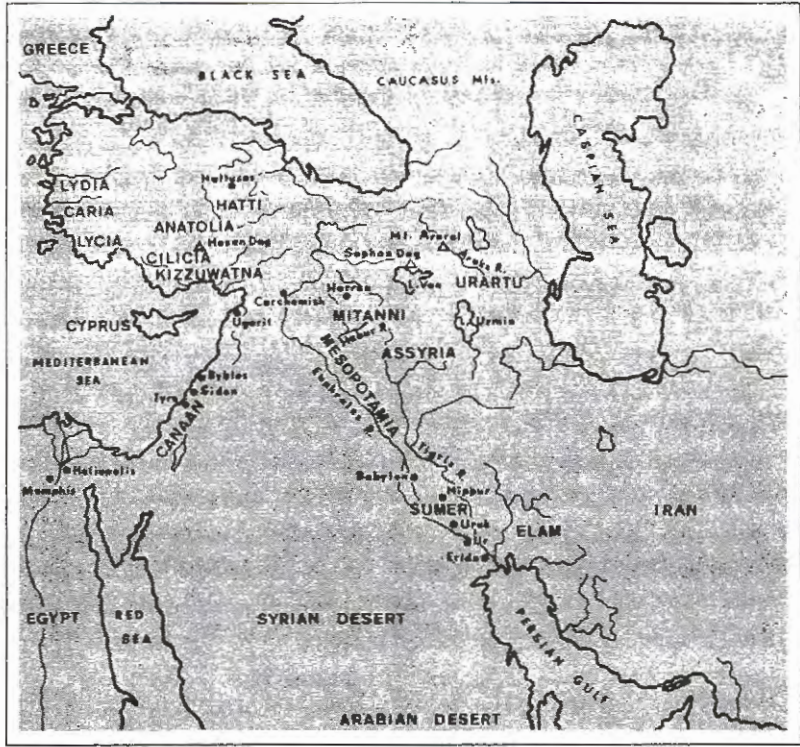
يرى أن الهندوأوروبيين تشكلوا في النجد الإيراني في الألف الرابع، والقيّمون على متحف متروليم في كامبردج بانكلترا يؤرخون دخولهم إلى الأناضول في أواخر الألف الرابع أو أوائل الألف الثالث. ويرى البروفسور أولبرايت أن ظهورهم في الأناضول لايزيد عن أوائل الألف الثالث. بينما يكتب البروفسور ميتون ليود «قراءة عام ٢٣٠٠٠ قبل المسيح اجتاحت الأناضول موجة عظيمة من الشعوب الهندوأوروبية تتحدث لهجة عرفت باسم الليونية».

ويخبرنا البروفسور غوردون أن «الهندوأوروبيين ظهروا على مسرح الشرق الأدنى بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح بقليل. وبينما يمثلهم الرئيسيون هم الحثيون فإن الملوك والآلهة الميثانيين يحملون غالباً أسماء هندوأوروبية... والنجد الإيراني هو الأرض الكبرى المميزة للآريين» كما يمكن أن نسميه قطاع الهندوأوروبيين ويوضح غوردون أكثر من ذلك فيفسر بأن «تدفق الهجرات الهندوأوروبية إلى الشرق الأدنى أثناء الألف الثاني أحدث ثورة في فنّ الحرب. فالوافدون أدخلوا عربة الحرب التي يجرها الحصان مما منحهم قوة ضاربة سريعة لم تعرف حتى الآن في الشرق الأدنى... فنخبة ضباط العربات الذين يحملون الاسم الهندوأوروبي ماريانو سرعان ما صاروا ارسقراطية جديدة في كل المنطقة بما فيها مصر».

ومن الأناضول وإيران تابعت هذه القبائل اندفاعها جنوباً إلى ما بين النهرين وكنعان. وطبقاً لما يقول البروفسور أولبرايت:

«ثمة دليل أركيولوجي ووثائقي معاً يشير إلى حركة هجرة عظيمة أو حركات من الشمال الشرقي إلى سوريا في القرن الثامن عشر قبل المسيح. ونتيجة لهذه الحركة اجتاحت القبائل الحورية الهندوإيرانية البلاد. وبحلول القرن الخامس عشر قبل المسيح نجد معظم سوريا الشرقية والشمالية قد احتلها الحوريون والهندوإيرانيون... مجدو وأورشليم وعسقلان (وكلها في كنعان) حكمها أمراء بأسماء أناضولية أو هندوإيرانية. وطرز الجمجمة في مجدو، الذي كان من قبل متوسطي السمة صار الآن جلياً قصيراً» (المقصود بالمتوسطي النسبة إلى البحر المتوسط - المترجم).

وبما أن الغزوات كانت متفرقة فمن الصعب تتبعها ونحتاج إلى مجلد لكل منطقة يستغرق مرحلة طويلة من الزمن حتى نستوفي الشرح. ولكن الدليل التاريخي والميثولوجي والأركيولوجي يشير إلى أن ذلك الشعب الشمالي هو الذي أحضر معه مفاهيم النور للخير والظلام للشر (من الممكن جداً أن يكون هذا رمزاً لمواقفهم العرقية



خريطة ٢ - تحديد المناطق التي ورد ذكرها في الفصل الرابع

من شعب المناطق الجنوبية الأعمق لونا منهم). والإله الفائق، الذكر الفائت. فظهور الإله الذكر في أدبهم اللاحق، الذي يصف دائماً ويفسر تفوقه، والمركز الرفيع لطائفتهم الكهنوتية ربما أتاح المجال لأن تظهر هذه الغزوات كحروب صليبية دينية مثلما تظهر كغزوات أرضية.

وصول القبائل الهندوآرية وتشخيص آلهتهم الذكور على أنها متفوقة على الآلهات الإناث للسكان الأصليين في الأراضي التي غزوها والتداخل اللاحق لمجموعتين من المفاهيم اللاهوتية سجلته ميثولوجيا كل ثقافة من ثقافات المنطقة. ففي هذه الأساطير نشهد الأوضاع التي أدت إلى قمع عبادة الربة.

وكما تكتب شيلا كولنز «اللاهوت سياسي دائماً. فأسلوب المجتمعات البشرية في تقدس الفائت وتحديد أنواع الخير والشر يفعل الكثير لديناميكية سلطة الأنظمة الاجتماعية التي تخلق اللاهوت أكثر مما تكشف عفوية عن الحقيقة في ميدان آخر».

وانطلاقاً من إنتاج الميثولوجيا الدينية للكتاب والكهنة الملكيين الذي عثر عليه في أرشيف قصور الأمم التي حكمها الهندوأوروبيون في الأحقاب التاريخية، والمكتوب عادة بلغة السكان الخاضعين، فإننا نظن أن الأهداف السياسية وليس الحماية الدينية هي المحرك. فسيادة الأساطير التي تشرح خلق الكون على يد إله ذكر أو قانون القرابة، عندما لم يكن شيء منها قد وجد من قبل فإن ثمة إشارات قوية إلى احتمال أن كثيراً من تلك الأساطير كتبها كهنة القبائل الغازية لتسويغ تفوق الآلهة المذكور الجدد وتبرير تنصيب ملك نتيجة علاقة ذلك الملك مع الإله الذكر.

الإله الذكر الهندوأوروبي لا يشبه الابن /العاشق لدين الربة، كان غالباً ما يصور كإله عاصفة، على قمة جبل شاهق يتوهج بضوء النار أو الصاعقة. ويشير هذا الرمز المتكرر أن أولئك الشماليين كانوا يعبدون في يوم ما البراكين كمظاهر لربهم، وهو عامل سوف أناقشه بمزيد من العمق في الفصل الخامس. كان هذا الإله في بعض الأمكنة ملحقاً بالربة كزوج مثل رب العاصفة تارو وربة أرنا سن أو مثل زيوس وهيرا. في بعض الليجندات ظهر رجلاً فتياً متمرداً يدمر ببطولة الإلهة الأنثى الأقدم منه، في الأزمنة التي كانت فيها متفوقة تماماً في الوراثة الإلهية.

في كثير من هذه الأساطير يجري ترميز الإلهة الأنثى بالأفعى أو التنين وأحياناً يلدو جنس التنين حيادياً أو حتى مذكراً (يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمه أو زوجته التي هي الربة). لكن حبكة القصة وثيمتها الرمزية الكامنة متشابهة في كل أسطورة بحيث إذا اعتمدنا على القصص التي تستخدم اسم الإلهة الأنثى، يحق لنا الظن أن الهوية المجازية للثنين أو الأفعى هي هوية دين الربة. الربة، الإلهة الفاتقة الأصلية لشعب أخضعه وحكمه الهندوأوروبيون الغازون، لم تكن مجهولة كانت مشمولة رمزياً بطريقة تسمح لنا تلك الأساطير الدينية بتقصي عزلها التدريجي.

الإله الذكر هو البطل القوي للنور. وبقليل من التغيرات نجد الأسطورة موجودة في الأناضول الحثية، في معركة بين إله العاصفة والثنين اليونانكاس، وفي الهند بين أندرا رب الجبال والربة دانو وابنها فرترا، وفي شمال كنعان بين بعل (الذي يلعب دوراً مزدوجاً كرب جبل سافون وكذلك الأخ/ زوج الربة عنات) والأفعى لوثان أو لويثانان (في اللغة الكنعانية لات تعني ربة) وفي بابل زمن سيطرة الكاشيين في المرحلة الهندوأوروبية بين مردوخ والربة تيامات، وفي سيطرة الميتانيين الهندوأوروبيين على آشوريا يدعي آشور لنفسه كل أفعال مردوخ، وفي اليونان الهندوأوروبية بين زيوس والأفعوان تيفون (ابن الربة غايا) وبين أبولو والأفعوان ييثون (وجاء في السجلات أنه

أيضاً ابن الربة غايا) وبين هرقل والأفعوان لادون الذي يحرس الشجرة المقدسة للربة هيرا (قيل أهدته لها غايا يوم زفت إلى زيوس) وتظهر الأسطورة في الكتابات العبرية القديمة (التي سوف ندرس بعق ارتباطاتها بالهندوأوروبيين دراسة معمقة في الفصل الخامس) على شكل مهاجمة الإله العبري يهوه (جيهوفا) للأفعوان لويثان (اسم كنعاني آخر للوثان). ويمكن أن نجدها حتى في ليجندات القديس جاورجيوس والتين والقديس باتريك والأفاعي.

ويبدو أن الدين الأنثوي، وعلى الأخص بعد الغزوات المبكرة قد تمثل الآلهة المذكور في العبادة القديمة واستمرت الربة كديانة شعبية للناس لآلاف السنين بعد الغزوات الأولية. وفي زمن مردوخ وآشور في القرن السادس عشر قبل المسيح انحط وضعها كثيراً في ماين النهرين ولكن ظل الأمر هكذا حتى المذابح الأخيرة التي قام بها العبريون وبالتالي المسيحيون في القرن الأول بعد المسيح حيث قمع نهائياً ونسي تقريباً.

في هذه الوثائق التي بقيت من الشعب الهندوأوروبي يمكن أن نجد أصول كثير من أفكار العبريين الأوائل. مفهوم الإله على قمة الجبل ملتهباً بالنور، والثنائية بين النور والظلمة رمزاً للخير والشر وأسطورة دحر الإله الذكر للأفعوان وأيضاً قيادة طبقة حاكمة عليا وكلها مفاهيم سائدة في الدين الهندوأوروبي ومجموعة، نجدها في المفاهيم العبرية الدينية والسياسية أيضاً. هذا التأثير أو هذا الارتباط مع الشعوب الهندوأوروبية يقدم تفسيراً للأوضاع الأبوية للعبريين التي سوف نناقشها بعق في الفصل الخامس. ما إن نصبح ملركين للأنماط السياسية الهندوأوروبية والخيال الديني حتى نفهم فهماً أفضل مواقف وأفكار العبريين التي جرى تبنيتها في المسيحية.

الهند - أصل الطوائف...

في الهند يوجد أوضح دليل للغزوات الهندوأوروبية وإخضاع الشعب الأصلي العابد للربة. فلغة الهندوأوروبيين في الهند كانت مانشير إليه اليوم باسم اللغة السنسكريتية. فلدى وصولهم لم تكن الشعوب الشمالية قد امتلكت طريقة للكتابة. لقد تبنوا أبجديتين، ربما من الأكاديين. وهكذا فإن معظم السجلات الشاملة للهندوأوروبيين في الهند كانت في كتب عرفت باسم الفيدات كتبت ماين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل المسيح في اللغة السنسكريتية الهندوأوروبية مستخدمين كتابة مستعارين.

في عام ١٩٦٣ كتب البروفسور أ. و. جيمس:

«يبدو أن أرباب السماء في الباثيون الفيدى القديم كانوا قد توطدوا بين القبائل الآرية عندما بدأوا هجراتهم في الألف الثاني قبل المسيح... وبوصولهم إلى الهند وجدوا عكس ما كانت تؤمن به الحفريات الأركيولوجية السابقة في وادي الهندوس وحوله عام ١٩٢٢، وجدوا ليس سكاناً بدائين وإنما حضارة مدنية متطورة جداً ومتفوقة على أسلوبيهم البسيط في الحياة كما جاء في الفيدا ر. غ» (بما أن الإشارة دائماً إلى هذا القسم من الفيدا فسوف نحذف الحرفين المميزين للقسم وهما ر. غ - المترجم).

وكتب غويسيبى سورمانى عام ١٩٦٥ أيضاً يخبرنا أنه «اتصل الآريون بأشكال متمدنة وقديمة لمجتمع مستقر، يكونون هم برابرة، إذا قورنوا به» كما يقول أيضاً «لقد مر عليهم زمن طويل منذ هجرهم النظام الأمومي وتبنيهم النظام الأبوي في الأسرة وأيضاً النظام الأبوي في الحكومة».

وطبقاً للترانيم الموجودة في الفيدا الهندوآرية، فإنه في بداية الزمن كانت توجد أسوراً فقط - القوة الحية. ثم انقسمت الأسورا إلى فئتين كونيتين. فئة هم أعداء الآرين عرفوا باسم الدانافيين أو الديتين، الذين كانت أمهم الربة دانو أو ديتي، والفئة الأخرى هم أبطال الآرين الذين كانوا يعرفونهم باسم آ - ديتيا. وهذا اللقب يتكرر لحقيقة أن هذه البنية الميثولوجية خلقت كردة فعل لحضور عبدة الديتي إذ أن آ - ديتيا تعني حرفياً «اللاديتيا» ولا تعني شعب الديتي. وهذا يفترض بقوة أن تلك الترانيم الميثولوجية لم تكن مكتوبة وحسب بعد دخول الآرين في تماس مع شعب الربة، وإنما فهمت وركبت بعد ذلك الزمن أيضاً.

من أكبر أرباب الهندوآرية رب يه - باسم اندرا، رب الجبال «الذي يدمر المدن» وبعد حصوله على وعد بالتسديد والتفوق إذا نجح في قتل الربة دانو أو ابنها فرترا، يقوم بانجاز هذا العمل وبذلك يحقق الملكية بين شعب آ - ديتياس. وفي ترنيمة إلى أندرا في الفيدا التي تصف الحادث وصفت دانو وابنها أولاً على أنهما إبليساف أفعوانان، وفيما بعد اضطجعا ميتين، ورمزا إليهما ببقرة وعجل. وكل من الصورتين للبقرة والأفعوان مرتبطتان بعبادة الربة كما اشتهرت في الشرقيين الأدنى والأوسط. وبعد هذه الجرائم «تدفقت المياه الكونية وكانت جلى». وهذه المياه ولدت الشمس. ويظهر هذا المفهوم عن انبثاق إله الشمس من المياه البدائية في أساطير هندوآوروبية أخرى وهو أيضاً مترافق مع غزوتين قبل التاريخ.

إن الموقف الهندوآري من النساء يتضح في جملتين تعزيان إلى اندرا في الفيدا. «عقل المرأة لا يتحمل ثقافة». وزن ذهنها خفيف. قد نجد هذا التقرير مضحكاً في ضوء مستوى ثقافة الهندوآريين الأبوية العابدة للذكر إذا قيس بتقافة الشعب العابد للربة وذي التوجه الأنثوي، الذي أخضعوه بالقوة.

أيضاً تشير الفيدا إلى الإله الأب القديم المعروف باسم برجباتي ودايوس ييتار. في الفيدا يظهر كما لو كان فكرة مجردة تقريباً. ومع ذلك فقد اشتهر دايوس ييتار في الكتابات البراهمية المتأخرة باعتباره «الأب الفائق للجميع». وهناك دليل على عبادة السلف الأب نجده في عدة ترانيم في الفيدا. والهندوآريون يتلون يومياً البترياجنا، أي عبادة الآباء الأسلاف. في هذا الطقس يمثل أبو الأسرة الكاهن الأعلى، وفيما بعد تنتقل هذه الطقوس إلى ابنه الأكبر. ييتار في السنسكريتية تعني الأب، ولكن باتي لها معان مختلفة. والارتباطات تؤكد لنا مكانة الرجال في تلك القبائل الشمالية. وكلمة باتي لها بدائل كثيرة في الترجمة: رب وحاكم وسيد ومالك وزوج.

إن انتشار الثقافة الهندوآرية جلب معه أصول الديانة الهندوسية ومفهوم أن الجلد الخفيف اللون أفضل من الجلد القاتم اللون. ويعتبر البراهميون، كهنة الهندوآريين الأكثر بياضاً، خلاصة للوراثة العرقية ويكتب سورماني أنه:

«كرست دراسات كثيرة لأصل الطوائف الحقيقي ومعظم النظريات المعتمدة وجدت هذا الأصل في غزوات العصور القديمة. فالآريون أصحاب الجلد الأبيض لا يرغبون في الاختلاط بالدرافيديين أصحاب الجلود القاتمة الذين كانوا السكان الأصليين للبلاد (كلمة طائفة في السنسكريتية هي فارتا وتعني اللون). الإجراءات الأولى تجاه تقسيم السكان إلى طوائف كانت عبارة عن قوانين تحرم الزواج المختلط بين الآريين والدرافيديين».

في براغفاد غيتا المتأخرة يتحدث البطل أرجونا عن خوفه من خنق «البنية الفعلية للمجتمع». وقلقه هو أنه قد تظهر «اللاقانونية» التي تعني عندئذ «فساد النساء» الذي سوف يؤدي بدوره إلى «الاختلاط الطائفي».

شخص يظهر في الميثولوجيا الهندوآوروبية عام ٤٠٠ قبل المسيح وإن كان معروفاً في ليجنדה قبل هذا الزمن وهو رام، الذي يرمز إلى التقليد البراهمي. يصفه نورمان براون، بروفيسور السنسكريتية في جامعة بنسلفانيا على النحو التالي:

«راما هو العامل الأسطوري لانتشار الثقافة الآرية (أي البراهمية أو السنسكريتية)

إلى جنوب الهند الذي كان وتشد غير آري، حيث حتى الثقافة الآن هي أساساً ملك للبراهميين الجاثمين على طبقة تتألف من الدرافيديين في معظمها... كان غزو راما بقوة السلاح... فهو بهذا يشخص بأنه جالب الثقافة والنور إلى السكان الأهليين الذين عندما يتشددون يسمون أبالسة وعندما يريدون الهداية يسمون قرده ودية».

وهكذا يتأكد أن الغزاة الأيوين الذين رأوا النساء قاصرات مسؤولون عن نشاط المواقف العنصرية أيضاً.

النور بالنسبة للآريين قد يكون النور العشوائي للاندفاعات البركانية، الذي صار فيما بعد يرمز له بنور نارهم الجاهزة للأضاحي، نور الأجسام السماوية، وعلى الأخص الشمس، الصواعق النارية لإلههم، إله العاصفة، وربما يياض لون جلدهم بالمقارنة مع لون جلد المتوسطيين (سكان منطقة الشرق الأوسط - المترجم) و «ملكة النور الأبدي» حيث يعتقدون أن أرواح الموتى الآريين تستوطنها. فالآباء «المنعمون يسكنون النور المتوهج، النور البدائي». ويوصف يراهما، الذي تحول اسمه بالتدريج ليكون ذلك الإله الفائق بأنه «هو الذي شكله النور في نور». وديف هي الكلمة السنسكريتية المستخدمة للرب وتعني حرفياً المشع أو المضيء. ميترا الإله الآخر الذي يظهر في الفيدا ويبدو فيما بعد في دور هام في الغسنا الإيرانية، هو دائماً يترافق مع النور بينما الفارونا، الذي هو اسم آخر لدايوس ييتار على ما يبدو، أخذ على عاتقه مهمة تنفيذ الأضاحي اليومية فيحملها إلى «الشمس الوهاجة» من «مكان عميق مظلم تحت الأرض».

ويكشف الدليل الأركيولوجي وعلى الأخص عمل السير جون مارشال أن السكان الأصليين في الهند قدسوا الربة قبل الغزوات الآرية. ويبدو أن الثقافات القديمة لوادى الهندوس كانت في تماس مع سومر وعيلام قرابة عام ٣٠٠٠ قبل المسيح. وقد توطد بثبات الموقف والمعتقدات الدينية في الأسرة والعادات الاجتماعية. فإذا كان القسم الأعظم من السكان قد آمن بالربة المقدسة فلا يبدو من المدهش جداً أن نجد هذه المعتقدات وقد ازدهرت في الأزمنة التي كان من المأمون فيها القيام بها جهارة، مع أننا قد نجد الفترة الزمنية هي المدهشة.

في المراحل الأخيرة للتاريخ الهندي كما في مناطق أخرى كثيرة حيث فرضت عبادة الإله الذكر على الدين الأنثوي ظلت شعوب كثيرة، ربما تلك التي بقيت في المناطق الأشد عزلة، محفظة بعبادة الربة. وحتى أواخر ٦٠٠ بعد المسيح ظلت عبادة الإلهة الأنثى تظهر في الهند المرة بعد الأخرى. لقد ظهرت الربة عند البورانيين

والثانترين بأسماء كثيرة لكن الاسم ديفي الذي يعني الربة، يجمعهم كلهم. ومع أن الاسم ديفي مأخوذ من كلمة ديف السنسكريتية إلا أن أسماءها الأخرى كدانو وديني قد نسيت.

يشرح البروفسور براون أن:

«السبب في أننا لانسمع بما هو يقيني عنها أن الأم العظمى ليست آرية الأصل وقد تأخرت حتى حصلت على الاعتراف البراهمي. إنها تختلف عن أي آلهات في الفيدا... فالربة الأم العظمى تعبد عبادة واسعة في الهند اليوم، في الدوائر غير الآرية فكل قرية في جنوب الهند لها مجموعة من الأمات أو الأمهات، وعبادتهن هي الممارسة الدينية الرئيسية في القرية... وكهنة هذه الآلهات (ولديهم كاهنات أيضاً) ليسوا براهميين... وإنما أعضاء في الطائفة الدنيا، وهذا يشير لى أن عبادة هذه الربات سابقة على الآريين أو على الأقل إنها عبادة غير آرية».

ويخبرنا براون أن الربة أخذت تدخل تدريجياً في الأدب البراهمي ولكنه يستتج أن «مفهوم الأم العظمى ما يزال في وضع مريب في الدوائر البراهمية».

إيران - بذور الشعوب الآرية....

توجد المعتقدات الهندوآرية أيضاً في كتابات إيران، وإن كان في مرحلة متأخرة كثيراً. فأقدم مادة كتابية من إيران يرجع تاريخها لسوء الحظ فقط إلى ٦٠٠ قبل المسيح، إلى الزندافستا، كتاب زارادشت. لكن هذه المادة الميثولوجية مستترة، إذ كما يشرح جيمس «كان الهنود والإيرانيون أيضاً، كما رأينا، آريين منحدرين من الأرومة العرقية الهندوأوروبية في النجد الإيراني منذ الألف الرابع قبل المسيح، ويتكلمون لهجة سنسكريتية فيدية بوضوح».

ويخبرنا أيضاً البروفسور درسدن أن «الكتلة الأساسية للدليل اللغوي والديني والاجتماعي يؤكد الافتراض أن حاملي الثقافتين، اللتين وجدنا تعبيرهما في الفيدا الهندية من جهة وفي أجزاء من الفستا الإيرانية من جهة ثانية، تشكلان وحدة».

ومع أنه لا بد أن يكون هناك تغير هام من زمن الفيدا وحتى كتابة الفستا، فإننا نجد مفهوم الأب الكبير الذي يمثل النور قد اشتهر الآن باسم أهورا مزدا وقد تربّع قمة الخير، بينما شخصية تشبه الشيطان باسم اهريمان «تفرق في الظلمة». وفي إحدى الوثائق يتجرأ اهريمان ويصعد إلى الحدود بينهما فيعصيه نور أهورا. وإذ يرى شجاعته وسموه «على قوته» يفر هارباً إلى الظلمة. وفي النصوص الإيرانية قرابة عام

٢٠٠ قبل المسيح، كما في المانوية نجد ثانية الخير والشر يقتسمان النور والظلمة. وفي هذه التقارير نعلم أن «قضايا البشرية متسببة من اختلاط الاثنين». ويدعو ميثرا الذي يظهر في الفيدا أكثر بروزاً في الفكر الإيراني: الآن ميثرا هو الذي يدحر «أبالسة الظلام».

والأهم أن الشخصية الإيرانية المعروفة باسم غايو ماريتا هو الشخصية التي تكون أول الخلق. وقد كان غايو ماريتا في يوم ما الشخصية ذاتها في إيران مثلما كان اندرا في الهند. غايوي أو غافي في السنسكريتية تعني البقرة. ومريتيو في السنسكريتية تعني الموت أو القتل وقد بقي في اللغة الألمانية الهندوأوروبية باسم مورد يعني القاتل، وفي اللغة الانكليزية الهندوأوروبية تحت اسم Murder قاتل. وهكذا يظهر اسم غايو ماريتا باسم قاتل البقرة. وكما كانت دايو رمزاً للربة البقرة التي اشتهرت عبادتها في مصر، وقتلتها هو اندرا، هكذا احتل غايو ماريتا هذا المركز في إيران. وفي الكتب البهلوية قرابة ٤٠٠ قبل المسيح جاء «من غايو ماريتا شكل أهورا أسرة البلاد الآرية، وهي بذور الشعوب الآرية».

وفي إضافة أخيرة إلى الميثولوجيا الإيرانية كما نعرف يظهر مرة أخرى ليكون محياً لدين الربة. وطبقاً للنصوص الإيرانية في القرن الرابع عشر بعد المسيح كانت الربة أناهيتا مسؤولة عن الكون. وتعلمنا هذه النصوص أن «أهورا مزدا قد منحها مهمة الاهتمام بكل الخلق».

الحوريون - طائفة حاكمة من الهندوأوروبيين...

ثمة مجموعة من الناس يحملون هوية وأنماط ثقافة الغزاة الشماليين اشتهروا باسم الحوريين. إن النسبة المئوية الكبرى في الشعب الحوري لم تكن من الهندوأوروبيين فهم على الأقل لم يستخدموا لغة هندوأوروبية. ولكنهم كانوا من منطقة شمال الأناضول أو شمال إيران وكانوا جماعة من صغيري الرؤوس (الجبليين) كما كان الهندوأوروبيون. وربما في تلك المنطقة كانوا أول من أخضعوا ومن ثم حكموا من قبل الهندوأوروبيين.

يقول البروفسور ساغس «هؤلاء الناس الذين عرفوا في العهد القديم بالحوريين أو الحوريم تحدثوا لغة لاروايط لها إلاً بالآراراتية المتأخرة. لابد أنهم وصلوا إلى الجبال شمال بلاد آشور، على الأرجح من أقليم القوقاز، في النصف الثاني من الألف الثالث قبل المسيح».

بحلول ٢٤٠٠ قبل المسيح كانت هناك مستوطنة حورية في أوركيش في وادي الخابور، غرب بلاد آشور. وفي هذا الزمن نفسه، في نوزي وتل برك، وسيصبحان فيما بعد من المراكز الهامة للمملكة الحورية، بدأت أسماء الحوريين تظهر. بعدهم وجدوا بعيداً في أقصى جنوب بابل، بينما في ٢٣٠٠ قبل المسيح ظهرت الأسماء الحورية في المدينة السومرية نابور التي تبعد عن أريك زهاء أربعين ميلاً.

كتب البروفسور أ. ر. غورني مجلده «الحثيون» عام ١٩٥٢ وهو يعتقد في هذا الكتاب أن الوطن الأصلي للحوريين كان إيران الشمالية. ويسجل أن «الحوريين انتشروا تدريجياً جنوباً وغرباً من وطنهم في الإقليم الجبلي جنوب بحر قزوين قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح وما بعد، وأصبحوا منظمين خلال الألف الثاني في عدة ممالك قوية... واستقروا قرب المياه العليا للفرات والخابور».

ومع أن معظم الحوريين لم يكونوا هندوأوروبيين فإن اهتمامنا بهم قائم على دليل أن ملوكهم وقوادهم كانوا هندوأوروبيين في أسمائهم. يقول ماغس أن «... ملوك ميتاني لا يحملون أسماء حورية بل أسماء هندوأوروبية بينما كانوا يعبدون الآلهة الهندية القديمة: ميشرا وفارونا وأندرا... وكل هذا يشير إلى وجود طائفة آرية محاربة تحكم سكاناً غير آريين». فيوافق غورني أن الميتانيين «... حكمتهم أسرة من ملوك وأسمائهم مشتقة لغوياً من الآرية، وكانت الآلهة الهندية من أمثال اندرا وفارونا بارزة في البانثيون. ويتضح من هذا أن سكاناً حوريين في ميتاني قد حكمتهم طائفة من الهندوآريين».

وقد تكون ليجنده اندرا مشهورة إذ أشير إليه في الألواح الحورية، ولكن لا توجد سجلات حورية فعلية عثر عليها فيها هذه الليجنده. هناك أسطورة حورية انتشرت في النسخ الحثية، وإن لم تكن قصة تين نموذجية، تدور حول الجهود المبذولة لتحطيم تيشوب، زوج الربة الأناضولية الهامة حيبات التي أعتبرتها بودو - حيبا ملكة الحثيين بمقام ربة أرينا سن. الشخصية الرئيسية هي الرب المعروف باسم كوماربي الذي صنف مركزه الديني في أوركيش المستوطنة الحورية القديمة. ويسمى في هذه الأسطورة «أبا الأرباب». وارتباطاته الآرية ظاهرة في اسمه فراج كومار في السنسكريتية تعني أمير. وقد منح كاماربي الولادة لطفل صنع من حجارة يسمى «أوليكموي» وهو اسم جبل في إقليم كيزواتنا في كيليكييا في جنوب وسط الأناضول، وربما كان الجبل البركاني المزدوج القمة الذي يعرف في هذه الأيام باسم حسان داغ. ووظيفة أوليكموي أن يدمر تيشوب. والنص طويل تماماً جداً ومشوش ومكسور في كثير من المقاطع الحيوية، لكن النقطة الرئيسية هي أن أوليكموي يؤمر بأن «دمر مدينة كوميا» حتى «تضرب تيشوب»

و «تذروه كالتبن» و «اسحقه بقدمك مثل غلة». لا يوجد شيء مؤكد ولكن قد تشير مدينة كوما في الليجندة إلى مدينة كومانى التي كانت مركزاً رئيسياً كبيراً للربة حيات.

فأصل معنى اسم حوري أو حوريتي أو حوريم قد يكون مرتبطاً بمعنى الكلمة الهندية حاراً وتعني الجبل. وقد تكون الكلمة باقية في الكلمة الألمانية هوهي (الهضبة) والكلمة هوهير (الأعلى) وقد تكون هي ذاتها بالانكليزية هاير (الأعلى) نفسها. وهذا يدل أنه قد يكون الحوريون سموا أنفسهم «الجبال» أو «الهضاب» وصفاً لموطنهم الأصلي.

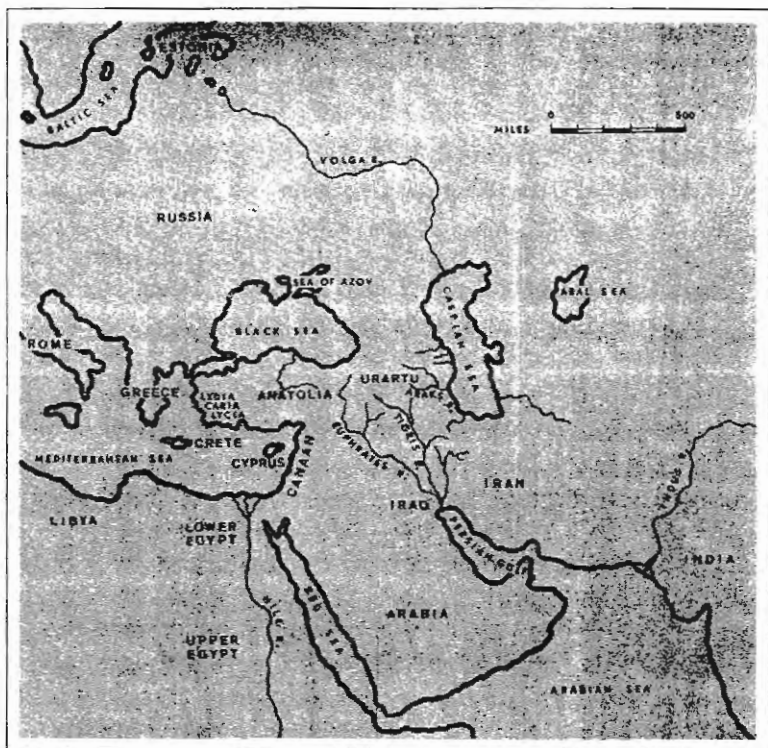
ومن الممكن أيضاً أن المصطلح ارتبط أصلاً بالكلمة السنسكريتية حوري وتعني الأصفر الذهبي. وهذه الكلمة مرتبطة أصلاً باندرا، رب الجبال، استخدمت لوصف قوسه وحصانه وصنذله والممتلكات الرمزية الأخرى. ويمكن أن تشير حتى إلى ملكية الذهب التي يقال لها بالسنسكريتية حيران وصارت أخيراً أورو باللاتينية.

ولكن إذا ذهبنا أكثر فإن هاتين الفتتين من الكلمات قد تكونان مشتقتين من فكرة أقدم عن الجبل الذهبي مملكة النور الأبدى حيث يفترض أن أسلاف الآرين استوطنوها بعد الموت. هذه الصورة تبرز بأعظم وضوحها في آخر صورة لأهورا في وطنه المتوهج على قمة جبل حارا.

مرحلة عبيد - اريدو وأاراتو وأارات وأاراتا:

تمشياً مع هذه التجليات التاريخية المؤكدة للهندوأوروبيين من منتصف الألف الثالث ومابعد، فإن هناك اتجاهات تأملية أن الهندوأوروبيين، أو المجموعات المرتبطة بهم كأسلاف الحورين قد يكونون دخلوا جنوب العراق باكراً في الألف الرابع قبل المسيح. مجموعة منهم عرفت بشعب ثقافة عبيد (هكذا سماها الأركيولوجيون بسبب الاسم الحديث للموقع الذي لاحظوا آثارهم الأولى فيه: العبيد) دخلوا منطقة دجلة - الفرات في هذا الزمن. والأغلب أن شعب عبيد هبط من مرتفعات إيران مع أن بعض الباحثين الآن بدأوا يعتقدون أنهم نزلوا من شمال العراق.

ومع أن هذا غير مؤكد، إذ لم يكن ثمة شكل للكتابة في ذلك الزمن، فإن بعض الكتاب يرون أن شعب عبيد قد أحضروا معهم اللغة السومرية. هذه اللغة التي ليست سامية وليست هندوأوروبية حيرت كثيراً خبراء اللغة. فالبروفسور صموئيل نوح كيرير الذي بذل جهداً كبيراً لحل الألواح السومرية، يرى أن السومرية هي «بقية إحدى لغات



خريطة ٣ - أهم الطرق المائية من استونيا حتى الخليج الفارسي

الأورال ألتيك المتوسعة». بعض المناطق التي لوحظت فيها هذه اللغات تقع تماماً في الشمال والغرب من بحر قزوين...

ومن أي الجهات كان مدخلهم فإن شعب عبيد وطلدوا استيطانهم الكبير في المدينة التي عرفت مؤخراً باسم أريدو بالقرب تماماً من النقطة التي يجتمع فيها دجلة والفرات في الخليج الفارسي. هذا الشعب ذاته عرف بانتشاره عبر منطقة دجلة والفرات. وبخبرنا ميلارت أن ثقافة حلف نتيجة لذلك «تمزقت» و«حدث في أرباشية (عربية - المترجم) دمار ومذبحة». فقد امتد شعب عبيد بعيداً في الشمال حتى بحيرة أورميا وبحيرة فان، القرية من التخوم الإيرانية - الروسية ربما المنطقة التي منها نشأوا كمجموعة بدوية كبيرة. هذا القطاع عرف مؤخراً باسم أراارات أو أراوتو وهو اسم قد يكون مشتقاً من أراتا. ويمكن أن يكون المقصود باسم أريدو تذكير شعبه باسم أراتا أو أراوتو (وقد عرف فيما بعد أن أراوتو قد استوطنها الحوريون وأحياناً يرون أنها موطنهم الأصلي).

قراءة ٤٠٠٠ قبل المسيح بنى شعب عبيد معبداً في أريدو. ومع أن معابد للربة قد شيدت في كثير من المدن النيوليثية والنحاسية على طول دجلة والفرات من عام ٧٠٠٠ قبل المسيح فيبدو أن هذا المعبد في أريدو هو أول بناء على منبسط مرتفع. ألا يمكن أن تكون هذه محاولة لمحاكاة جبل حيث لا يوجد جبل؟ وللغربة أن الكلمة السومرية للجبل هي حور أو كور. وعلى غير عادة المجتمعات الأخرى الموجودة في العراق في ذلك الزمن فإنه لم يعثر في المعبد العبيدي في أريدو على تمثال صغير واحد للربة.

ويبدو أن الماغليوميين والكوننديين الذين أشرنا إليهم من قبل هم الأجداد الثقافيون للشعوب الهندوأوروبية استخدموا الزوارق المحفورة حتى في الأزمنة الميزوليثية. كانت هذه القوارب أصلاً عبارة عن جذوع بحفريات محروقة من أجل جلوس الركاب. في مراحل أبكر استقرت تلك الأقوام في الدائرك وشمال أوروبا. زورقان، واحد في هولندا وواحد على شاطئ اسكوتلندا ينسبان للشعب الماغليوموسي. إن اهتمام الماغليوميين بالمجازيف وشباك الصيد ومصائد السمك دل أن هذه القوارب استخدمت لنشاطات الصيد البحري، وهو المظهر الأكبر في حياة الماغليوميين الذين يظهر أنهم اهتموا اهتماماً استثنائياً بوسائل التحرك والنقل كما طوروا الزلاجات والزلاقات.

مع الأنهار والجداول التي تدفقت في أوروبا والشرق الأدنى وكان عددها كبيراً في الزمن القريب من جموديات العصر الجليدي والأمطار الغزيرة التي كانت مازتزال تهطل في عام ١٠٠٠٠ قبل المسيح ربما يكون بعض هؤلاء البحارة القدامى، والأرجح على مدى أجيال كثيرة، هم الذين شقوا طريقهم إلى مناخ أكثر دفئاً في أريدو. وهناك دليل عن الماغليوميين عثر عليه أيضاً في استونيا يشير أنهم ربما ارتحلوا إلى الأسفل مع الفولغا الذي يصب في بحر قزوين. وربما يكون كثير منهم قد طافوا في روافد النهر الكثيرة على طول الطرف الغربي لقزوين في إقليم القوقاز. أحد الأنهار الكبيرة، حتى اليوم، الذي يجتمع مع بحر قزوين هو أراكس. بمتابعة الفرع الرئيسي للأراكس قاد بعضهم إلى مناطق بحيرة أوراميا وبحيرة فان، أي أرض أورارتو. وفي أورارتو تنضم فروع دجلة إلى الجدول الرئيسي لذلك النهر، المتجه مباشرة إلى الخليج الفارسي، حيث يلتقي دجلة والفرات.

تخبرنا هوكس أنه «على ضفاف الفرات كان رجال ثقافة عبيد أول بحارة نظاميين في النهر... وهو نموذج وجد في قبر عبيدي متأخر في أريدو يمثل أقدم قارب إبحار عرف في العالم قاطبة».

الإله الذي عبد في أريدو في الأزمنة التاريخية عرف باسم الرب أنكى. ويبدو أن إله هذا المعبود في مراحل ما قبل التاريخ كان سمكة أو رب مياه، وتقدمت من السمك كانت تحرق على مذبحه. ويعتقد أن أنكى في العصور التاريخية آمنوا به رباً للمياه، يوصف غالباً بأنه يركب قاربه أو سمي «هو الذي يركب». هذا المفهوم عن السمك أو رب المياه يشبه تماماً ما وجد في شذرة من لوح حثي هندو أوروي يخبرنا عن إله الشمس الذي ينهض من الماء مع سمكة على رأسه. إنه أيضاً ذكرى إله الشمس الذي ولد من المياه الكونية التي يفترض أن يكون أندرا قد حررها بعد أن قتل دانو وفرترا. ومع أن أنكى لم يؤخذ كإله شمس فإنه في أسطورة مردوخ يسمى والد مردوخ، بينما يسمى مردوخ ابن الشمس.

يعتبر شعب أريدو أول من طور قنوات الري في أريدو. ومع أن هذه القنوات قد تملحت فيما بعد من الخليج الفارسي، فإننا نرى مفهوم قنوات الري كأنها فكرة طبيعية للشعب الذي عاش حياته على الأنهار والجداول ثم استقر فيما بعد في مناطق أكثر جفافاً.

احتمال آخر يشير إلى هوية الشعب في مرحلة عبيد أريدو هو مؤسسة الملكية والإشارة إلى اسم علالو باعتباره أول ملك على سومر في قوائم أقدم جزء من الألف الثاني. وجاء أن مستقره كان في أريدو. وطبقاً لهذه الألواح التي يبدو أنها تعود إلى المراحل السابقة على التاريخ. فإنه من مدينة أريدو «نزلت الملكية من السماء». واسم علالو أيضاً موجود في الأسطورة الحورية عن كوماربي، التي أشرنا إليها من قبل. تبدأ الأسطورة الحورية «في السنوات السابقة عندما كان علالو ملكاً في السماء، عندما كان علالو جالساً على العرش...». ومع أن الأغلب أن استخدام الحورين اسم علالو كان قائماً على الكتابات السومرية، التي هي أقدم، فمن الممكن أن الاسم ظل في ذاكرة أولئك العبيدين الذين أبحروا فيما بعد إلى منطقة بحيرة أورميا. وقد دل على وجودهم هناك مواقع اكتشفت متأخرة أكثر مما دلت على وجودهم أريدو القديمة. وربما بهذه الطريقة ازدهر الاسم في الأساطير الحورية لشعب عاش في تلك المنطقة.

سومر وبابل - شعب جديد وآلهة جدد وسجل فاضح عن قتل الربة:

في مكان ما بين ٣٤٠٠ و ٣٢٠٠ قبل المسيح بدا أن مجموعة أخرى من الأقوام قد دخلت سومر. ويكتب البروفسور ساغس عن طريقة بناء معبد فيما عرف بمرحلة المنزلة الخامسة أوروك «مما يدل على قدوم عنصر جبلي يعرف تقنيات أعمال النحت» وفي

هذا العصر ذاته بدأت مناطق نيبور وكيش بتطوير المراكز المأهولة (تشير قوائم ملوك سومر إلى طوفان عظيم وتخبر أنه بعد الطوفان نزلت الملكية من السماء للمرة الثانية، وهذه المرة نزلت في كيش). وفي نيبور الأحقاب التاريخية اشتهر رب اسمه إنليل يبدو أنه انتزع الشهرة من أنكي. في الأساطير والمخطوطات التي قرأناها عن إنليل أنه «الجبل العظيم المشرق المحقق» ووصف معبده على أنه بيت الجبل، على الرغم من حقيقة أن نيبور، والواقع معظم بلاد سومر، لا ترتفع عن مستوى سطح البحر أكثر من ٦٠٠ قدم (زهاء ٢٠٠ م - المترجم). ودخوله مدينة نيبور ترافق ميثولوجياً مع اغتصاب ابنة الربة في نيبور واسمها نبار شيغونو. وصار اسم الابنة عندئذ نليل وفيما بعد جاء في وصفها أنها إنليل. واشتهر إنليل أيضاً أنه رب الهواء، وهو لقب شاركه فيه إله في مصر، حيث الشارة لكلمة هواء هي شراع. وفي الأساطير الحورية ترافق كوماربي مع مدينة نيبور، فقد زعموا أنها مدينة كوماربي.

في الألواح السومرية نرى الربة تحت أسماء كثيرة. في العصور القديمة ربما كل اسم من هذه الأسماء كان يجعل باعتباره جلة مقدسة لمجتمع خاص أو مدينة معينة. فتنسيكيل كانت الربة الكبرى لدلون، وهو فردوس السومريين ولكنه أيضاً أدرج في سجلات كثيرة باعتباره مكاناً فعلياً. واشتهرت نامو بأنها «هي التي تمنح الولادة للسماء والأرض» وأيضاً «أم كل الربيات». وعبدت نينا باعتبارها «نبية الآلهات». ونانشي اللاغشية كانت هي «التي ترعى اليتيم وترعى الأرملة وتبحث عن العدالة للفقراء والمهملين للضعفاء» وفي رأس السنة الجديدة، حكمت كل الجنس البشري. نادادا الأريكية اشتهرت بأنها المتعلمة في كل الأبياء المقدسة فهي التي تعلم القوانين وهي الكاتبة العظمى للسماء. شالا وهو لقب اينيني، وصفت نفسها بأنها «الربة الملكة القوية التي تعرف السماء والأرض من أنا».

نغال أو نيكال (السيدة العظيمة) التي كانت في الأحقاب التاريخية تعرف كزوجة إله القمر المسمى نانار (سن في الآكادية) ربما عبدت في زمن ما على أنها الشمس. وفي الأناضول نجد عدة ملكات كاهنات رفيات المقام لسن ربة أرينا قد جعلن اسم نيكال جزءاً من أسمائهن. وفي الأحقاب التاريخية قيل إنها أم أوتو الشمس الذي ابتكر مؤخراً. معبد في أور كان مذهباً لنگال في الأحقاب القديمة، فتقاسمت مع زوجها. وفي حقبة الكاشيين في أور أبعدت كلياً عن المعبد الرئيسي ووضعت في ملحق صغير. وهنا قصيدة طويلة مرفوعة إليها على أنها «أم وملكة أور» وأشير إلى نانار على أنه كاهنها إيشيب.

وتبدو الربة نهورساغ، المعروفة أيضاً باسم نهما، إنها متماهية جداً مع عبادة أنكي، كزوجته وأخته، مع أنها في الليجندات الأقدم تلعب دوراً مهيمناً واسمها يسبق في الأغلب اسمي أنكي وإنليل. وتفسر إحدى الليجندات أنها بمساعدة نامو خلقت الأقوام الأولى. فالربة المعروفة بأريكتسيجال التي نسمع بها فيما بعد أنها ربة العالم السفلي، تحمل في إحدى الليجندات السومرية الأقدم إلى العالم السفلي كهدية - في الزمن الذي استولى فيه إنليل على الأرض. ولكن كما قرأنا حديثاً نراها حتى في العالم السفلي لاتعيش بسلام فقد أجبرت أن توافق على زوج يحكم إلى جانبها، وإليه أجبرت أن تقدم ألواح المصير.

يبدو اسم الربة إينانا أنه مشتق من إينين أو إينيني. ربما صارت ابنة نغال في الزمن ذاته الذي صار فيه أوتو الشمس. وبمرور الزمن نلتقيها في مرحلة الليجندة المكتوبة (بعد ٢٠٠٠ قبل المسيح بقليل) ومع أنها مازال تلقى التبريل إلا أنها فقدت ماكان لها سابقاً. ومع أن نامو خلقت السماء والأرض ونهورساغ أو نتو أو نهما أول الخلق، فإن هناك أسطورة تخبرنا أن أنكي أسس نظاماً عالمياً. وفي هذه الأسطورة نقرأ أنه خلق قنوات الري، وجعل دجلة والفرات يأكلان معاً. ثم نعلم فيما بعد أنه عين أرباباً شتى في مراكز معينة وأن أنكي نفسه أو الشخصية التي يعينها في وظيفة القنوات «طرد مثل ركية أميرية سمينة من القصر». ومع أن هذا السطر غامض إلا أنه قد يشير إلى جريمة قتل أمير صغير في ذلك الزمن. وبعد ذلك بقليل نقرأ مرتين أن إينانا سلّمت صولجانها الملكي، الذي عنه سألت أنكي مرتين «أين سلطاتي الملكية؟». وكما لو كان يعزيها يخبرها أنها مازال في وظيفة «الكلمات التي ينطقها الفتى الصغير» الكلمات التي كانت قد أسستها وأن العصا والقضيب وعصا الراعي مازال لها. وكما لو أنه يقدم المزيد من التفسير لخسارتها سلطاتها نتيجة بناء القناة فإنه ينهي قوله بـ «ياإينانا أنت التي لاتعرفين الآبار العميقة ولا الحبال المربوطة فالغمر جاء والبلاد استقرت، لقد جاء غمر لإنليل».

في هذه الليجندة نقرأ تفسيراً للسلطات المتقلصة وأوضاع الربة إثر وصول العبيدين إلى أريدو أو وصول المدافعين عن إنليل في نيبور الذي إليه يقدم أنكي الهدايا الكثيرة طبقاً لما جاء في الليجندة السومرية. وبما أن هذه الأسطورة لم تكتب إلا بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح فمن الصعب القول إذا كانت هذه التغيرات وقعت أثناء وصول قوم إنكي أو زمن استيطان نيبور. وعلى الرغم من أن وضع المرأة وتفوق الربة فقدنا بالتأكيد كل أساسهما عبر الحقبة التاريخي لسومر، فإن هذه التغيرات قد حصلت

خلال قرون، بل حتى آلاف السنوات. ومع ذلك فخلال الحقبة التاريخية نرى الربة - مثل إينانا - مازال تحظى بالكرامات وعلى الأخص في أريك، ويبدو أنها اعتبرت باستمرار كواحدة وهبت حقوق الرعي أو الملكية وجعلت الحقوق الأمومية للعرش الملكي تستمر في الوجود، وهو عامل سوف نناقشه بعمق في الفصل السادس.

قد يكون حصل ازدهار لدين لربة بين الحقتين لأن هناك أسطورة تهتم بتحول المركز الثقافي من أريدو إلى أريك، فيزعم أنكي أن إينانا قد سرت منه كل هبات الحضارة. وإلى جانب الدليل الأركيولوجي أن الكثير من هذه الـ «هبات الحضارة» قد تطورت في مجتمعات عبادة الربة في العصور النيوليثية، فمن المهم أن نلاحظ أن الكلمات التي استخدمها السومريون للدلالة على المزارع والمحراث والأخدود والحداد والنساج والدباغ والسلال والفاخوري والبناء لم تكن كلمات سومرية وإنما استعيرت من لغة أخرى ربما تكون أقدم منها.

وأدخل إله ذكر ثالث إلى سومر على الأرجح قبل بداية الألف الثاني، وهي الفترة التي عرفنا فيها بدخول الحورين إلى المنطقة. وقد عرف باسم أن أو أنو، وهي بشكل عام كلمة سومرية للسماء. ومع ذلك فإن كلمة أن أو أنو تظهر في عدة لغات هندوأوروبية بمعنى «جد» بينما في الألمانية تنحصر كلمة أوراهن بالجد الأول. ويظهر هذا اللقب في الاسم اليوناني الهندوأوروبي أورانوس بمعنى رب السماء. ويخبرنا البروفيسور هوك أنه «في الحقبة السومرية المبكرة كان اسم أنو غامضاً نسبياً فاسمه لم يظهر في أي قائمة من القوائم الثماني عشرة التي تنتمي إلى تلك الحقبة...».

يظهر أنو كخلفية لعلالو في أسطورة كوماري الحورية والحية التي سبق وناقشناها. ولكن الأهم هو ظهوره في أسطورة مردوخ المتأخرة «ابن الشمس». هنا نعلم أن أنكي كان مطالباً بإخضاع الربة - الخالقة التي يسمونها تيامات، فلم يكن قادراً على ذلك لكنه دبر أمر قتل زوجها أبسو، وهكذا أصبح رب ايزو (المياه البدائية) نفسه. عندئذ طولب أنو بإخضاعها وطبقاً للأسطورة أنه عندما واجهها أذله الخوف ورفض إكمال مهمته. أخيراً كان مردوخ، وهو ابن أنكي مصمماً، شريطة أن يصير في المركز المتفوق بين جميع الآلهة الآخرين إذا نجح. هذا الوعد الضامن يجعلنا نتذكر الوعد الذي طلبه أندرا قبل قتل دانو وابنها فرترا، وكلتا الأسطورتين يرجح أنهما كتبتا في الحقبة نفسها (١٦٠٠ - ١٤٠٠ قبل المسيح).

هذه الليجندة المشهورة باسم انوما اليش تشرح تفوق مردوخ، حددت بأنها بابلية ولذلك فهي سومرية وسامية. لكن آخر بحث يشير أنه مع أن مردوخ اشتهر في مرحلة حمورابي، فإن الأسطورة التي تعلن تفوقه لم تظهر فعلاً إلا بعد غزو الكاشيين لبابل وإخضاعها. ويستنتج البروفسور ساغس أنه «لا توجد نصوص تشير إلى هذه الأسطورة أبكر من الألف الأول» وأنها «تشير إلى أن هذا الفعل لم يحدث إلا في الحقبة الكاشية وهي العصر الذي عرفنا الآن أنه كان عصر النشاط الأدبي الكبير». وكما أشرت من قبل فإن الكاشيين كانوا أيضاً محكومين من قبل الهندوأوريين. ويخبرنا غورني أن «أسماء الآلهة الهندية وجدت لتشكيل عنصراً في أسماء حكام بابل الكاشيين» مع أن القسم الأكبر من الأقوام الكاشية لم يكونوا هندوأوريين.

قراءة عام ٢١٠٠ قبل المسيح أعلن ملك سومري اسمه أورنامو أنه سوف يوطد العدل في البلاد، وهذا يشبه نوعاً ما إصلاحات أوروكاجينا الذي سبقه. وقيل إنه قام بالواجبات الثقيلة والضرائب التي ترهق الشعب في ذلك الوقت و «حرر الأرض من البحارين الكبار الذين انتزعوا الثيران والأغنام والحمير».

في كثير من ليجنندات سومر ومخطوطاتها يشار إلى شعب سومر بأنهم «شعب الرؤوس السوداء». هذا التحديد الذي نرجح أن يكون وصفاً للون شعر معظم سكان سومر في ذلك الوقت، مهم عندما يبدأ المرء بالتساؤل عن سبب استخدام هذه الجملة لأول مرة. إن هوية الأقوام تبرز عادة بما يميزها عن مجاورهم. نحن لانشير إلى قوم إنهم «شعب بعينين» مالم يكن هناك شعب بعين واحدة أو بأكثر من عيتين. هذا الوصف المنطبق عادة على شعب سومر في كتابات سومر نفسها، قد يجعل دلالة أخرى أن هؤلاء الذين صاغوا المصطلح واستخدموه كانوا هم أنفسهم أو على الأقل كانوا معروفين من قبل الآخرين أنهم لم يكونوا «شعب الرؤوس السوداء» بل كانوا شعباً بشعر ذي لون أفتح.

كل هذه الدلائل المترابطة عندما ننظر إليها جنباً إلى جنب تشير إلى أن أنكي وإنليل وآنو ومردوخ إنما دخلوا مع الهندوأوريين أو لهم علاقة وثيقة بالأقوام الشمالية التي دخلت في ثقافات الربة في ما بين النهرين. ويبدو أن إنليل وأنكي وآنو تمثلهم بالتدريج العدد الضخم جداً لشعب عابد الربة. لكن الشكل الأخير لمردوخ، وعلى الأخص آشور الذي أعقبه في مركزه في آشور المسيطر عليها من قبل الحوريين عبد مع أشكاله الأخرى في مجتمعات كانت مكانة النساء قد فقدت أركانها بالتأكيد.

مصر - زورق في السماء؟

الاحتمال الآخر، وإن كان تأملياً أيضاً، هو أن ظهور غزاة الشمال أنفسهم قد يكون حصل قبل حقبة السلالات القديمة في مصر بمدة قصيرة. فقبل عام ٣٠٠٠ قبل المسيح تماماً ثمة دليل على وجود غزوة في مصر بعدها بفترة قصيرة، أسست الملكية. كما وقع في أريدو، فمصر العليا ومصر السفلى كانتا متحدتين لأول مرة تحت حكم ملك واحد. وحتى زمن الغزو يبدو أن الثقافات النيوليثية في مصر قد تبنت الربة الكوبرا من الشمال (وازيت) والربة الصقر من الجنوب (نيخت) كإلهتين فائقتين مع أن هناك الكثير من الآلهة المحلية الأخرى التي عبدت في كل مجتمع من هذين المجتمعين. بعد الغزو انحطت مرتبتهما وإن استمرت رمزاً للعرشين الملكيين في مصر العليا ومصر السفلى، وكلتاهما الآن توضعان على رأس الملك جنباً إلى جنب.

يكتب مالوان أن «الاستنتاج أنه يوجد بعض الاتصال بين مصر وسومر أحياناً يثبت ظهور أختام من نمط جمدة نصر في زمن إقامة نيبور ودخول إنليل». وينطلق مالوان من طرائق البناء والطراز فيرى أيضاً أن قبور السلالة الأولى قد استوحت معابد ماين النهرين.

وبمناقشة حقبة جمدة نصر يقرر ساغس أن «الدليل على تأثير ماين النهرين الثقافي نجده في هذا العصر في مصر. وكم هي هامة حقيقة أن الأختام الأسطوانية (وهي ابتكار خاص بما بين النهرين) التي حصلت هناك مع طرائق البناء بالآجر هي غريبة عن مصر بينما هي نموذجية في ثقافة جمدة نصر. وفي مصر أيضاً في هذا العصر ظهرت موتيفات وموضوعات ماين النهرين في الفن والمثال الواضح على ذلك هو قارب من النمط الماين نهري وجد محفوراً على قبضة سكين... بينما مبدأ الكتابة (وليس التكنيك) نقله المصريون من بلاد ماين النهرين».

ربما يكون الشعب ذاته الذي عرف في عبيد في سومر، وربما غادر أثناء حقبة جمدة نصر... عندما دخلت سومر مجموعات جديدة، فشقوا طريقهم إلى مصر في ذلك العصر. وتصور الرسوم في قبور السلالات القديمة نمط سلة مخروطية لمصيدة سمك، متفقة تقريباً مع سلال قوم الأبريول في أوروبا الشمالية الذي انحدر مباشرة من الماغيلموسيين. وفي مصر عرف الرب الذي أسند إليه دور الأب للجددة القديمة نوت باسم شو رب الهواء. وكما أشرت من قبل فإن شارة الهواء في مصر

هي الشراع بينما شارة الكلمة التي تدل على الأرباب هي سلسلة من الرايات أو الأفرات التي شوهدت على مجداف القوارب. فالإله الذكر لمصر، الذي وصل مع الغزاة صور على أنه إله شمس يركب قاربه، تماماً كما عرف عن إنكي بأنه «هو الذي يركب».

ينفق البروفسور ولتر إيمري خمسة وأربعين عاماً يحفر القبور القديمة والأهرامات في مصر. وفي مسألة وصول تلك الأقوام يكتب:

«هل هذه الغزوة اتخذت شكل التسلسل التدريجي أو شكل الغزو الجماعي هو شيء غير مؤكد ولكن إقامة الدليل يأتي أساساً من نقش على سكين عاجية في جبل الأراك ومن رسوم على جدران قبر من قبل السلالات في هيراكونوبوليس، مما يدل أن الاحتمال الثاني هو المؤكد. فنحن نرى على قبضة السكين طرازاً من الفن الذي قد يكون فن ماين النهرين أو حتى قد يكون أصله سوريا، ونرى مشهداً يمثل معركة في البحر ضد الغزاة وهو الموضوع الذي نجده بصورة بدائية في قبر هيراكونوبوليس. وفي كلا التشخيصين نحن أمام سفن وطنية نموذجية مصرية وسفن غربية بمجاديف طويلة ومقدمة هذه السفن تدل على أن أصلها بالتأكيد من ماين النهرين».

على أي حال فإنه في نهاية الألف الرابع قبل المسيح نجد قوماً يعرفون تقليدياً باسم «أتباع حورس» ومن الواضح أنهم يشكلون عرقاً أرستقراطياً أو سيداً حكموا كل مصر. ففكرية وجود هذا العرق السيد يدعمها اكتشاف تلك القبور في الحقبة المتأخرة قبل ظهور السلالات في القسم الشمالي أو مصر العليا، فقد عثر فيها على بقايا تدل على أناس جمجمتهم أكبر حجماً وأجسامهم أكبر من أجسام المواطنين، فالفرق واضح بحيث لا يمكن أن يكون هؤلاء الناس منحدرين من أصل أقدم».

ويصف أيضاً مشهداً لرأس صولجان أحد الملوك القدماء يصوره بيني قنلاً بين حشد احتفالي عظيم ويضيف بأنه «يوجد دليل قوي يبين أن الغازي لشمال مصر سعى لجعل مركزه شرعياً باتخاذ أميرة شمالية زوجة له». لقدنا شهر غزاة هذه الحقبة عند المصريين باسم شمسو حور - أي شعب حور. وقبائل حور هي التي جعلت ممفيس عاصمة لهم بالتدريج. وإثر وصولهم أدخل الإله الذكر. وكان يسمى هوروير - أي حور العظيم. وقد كتب رودولف أنتيس أستاذ المصريات عن أصل شخصية حور في الميثولوجيا المصرية، فيشرح ذلك على النحو التالي: «كان الزمن في الألف الثالث قبل المسيح، أقدم فترة في توثيق التاريخ، وكانت الظروف تستدعي تأسيس الملكية في مصر».

صور إله الشمس حور - ويرى في عام ٢٩٠٠ قبل المسيح تظهره راكباً زورقه، زورق السماء. قد نجد هذا الخيال المفهومي لركوب إله الشمس في زورقه في السماء لايشبه الخيال الهندوآوروبي المتأخر في الهند واليونان حيث إله الشمس يركب عبر السماء عربة تجرها الخيول.

طبقاً للبروفسور إميري فإن اسم أول ملك للسلالة الأولى المشهور باسم نارمير أو مينس في تاريخ مانيثو عام ٢٧٠ قبل المسيح هو بالفعل حور - آها. لكن اسم حور يبدو أنه قد تداخل مع الدين القديم للربة تحت لقب «الابن الذي يموت». وقد خلق هذا تشويشاً بين الحورين، فأحدهما الرب الأكبر للنور وهو رب الغزاة والآخر هو ابن الربة لإنزيس.

جاء وصف حور (اشتهر عند اليونان فيما بعد باسم حورس) في مختلف الكتابات على أنه يخوض معركة طقوسية مع إله ذكر آخر عرف باسم سيت. وسيت يبرز عموماً كعم أو أخ لحور. والقتال يرمز إلى تغلب حور على سيت وحور يرمز إلى النور والخير وسيت يمثل الظلام والشر. والدكتور واليس بدج يرى أن «القتال الذي شنه رب الشمس حورس ضد الليل والظلمة حصل أيضاً في فترة مبكرة تترافق مع فترة القتال بين حورس ابن لإنزيس وأخيه سيت... وسيت أو سوت يمثل أصلاً الليل الطبيعي وكان خصماً لحورس».

كلمة سات في السنسكريتية تعني التدمير بالتمزيق إلى قطع. وفي أسطورة أوزيريس الذي هو حورس بعد وفاته (وإن كان في الوقت ذاته يعرف بأنه والد حورس) فإن سيت هو الذي قتل أوزيريس وقطع جسده إلى أربع عشرة قطعة. ولكن قد يكون مما هو أهم أن كلمة سيت في مصر تعني «ملكة» أو «أميرة». وأوسيت المشهور باسم لإنزيس عند الإغريق تعرف بأنها «الملكة السابقة». وفي أسطورة صراع سيت تحاول إغراء حورس جنسياً وينظر إلى هذا على أنه إهانة. ولكن معظم الهوية البدائية لشخصية سيت، الذي هو أيضاً مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفعوان الظلام المعروف باسم زيت، واعتاد الكتاب اليونانيون الكلاسيون أن يشيروا إليه باسم تيفون أفعوان الربة غايا الذي ربما كان أنثى أو كرمز إلى دين الربة، وربما كانت له علاقة بوازيت، الأفعوان بوازيت، الأفعوان العظيم، الربة الكوبرا في العصور النيوليثية.

إن أنصار حور الذين غزوا مصر النيوليثية أقاموا مؤسسة الملكية. كان يرمز إلى حور عادة بالصقر أو العقاب، والاسم الحورسي للملك دائماً يرسم بالصقر. في إيران

الهندوأوروبية تعني كلمة اكسفارناه السلطة الملكية الشرعية. وفي إحدى الأساطير الإيرانية يترك هذا الاكسفارناه مالكة ويطير منه - على شكل صقر.

لقد دخل شمسو حور في المراحل البعيدة لمصر ما قبل السلالات. والمعلومات عنها متباعدة. ولكن هل يكون شمسو حور قد ارتبط في يوم ما بالأقوام الذين عرفناهم فيما بعد باسم الحوريين أو الحوريتين، الذين أقاموا وطنهم أولاً في شمال إيران ثم بعد ذلك في سومر، قد أصبح بالتدريج شمسو حور مصر؟

قراءة عصر الأسرة الثانية أصبحت مدينة هليوبوليس (المعروفة للمصريين باسم أنو) التي تبعد عن ممفيس عشرة أسيال شمالاً، موطن مدرسة من الكهنة الكتاب الذين عبدوا أيضاً إله الشمس الذي يركب زورقاً. في هذه المدينة استخلعوا اسم رع. ورع بالسنسكريتية تعني الملكي أو المجد في الأعلى. إن رع كمقطع يوضع في بداية الاسم موجود في السنسكريتية ليدل على الملك (راجا) والملكة (راني). وقد برز في الكلمة الألمانية راجن وتعني يرتفع وروا بالفرنسي وتعني الملك. وكذلك في الكلمات الانكليزية رويال (ملكي) ورين (يحكم) وريغال (نظامي).

في نصوص اهرامات الأسرة الخامسة (قراءة ٢٤٠٠ قبل المسيح) كان حورس مساوياً لرع. وكان كل من حورس ورع مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، وأحياناً ارتباطاً تنافسياً، بحق الملكية. ومثل رع - حارختي، توحد رع مع حورس الأفق، وكلاهما يعني الشمس في شروقها. ورع أيضاً يصور شمساً تمخر أجواء السموات في زورقه المقدس. لماذا زورق في السماء؟ أليس بسبب الرجال الذين أدخلوا فكرة رب النور وقد وصلوا فعلاً بزوارقهم؟ لقد قيل إن زورق رع انبثق من المياه البدائية، تماماً كما قيل إن إنكي ركب زورقه في أعماق مياه أنزو في أريدو، أو مثل إله الشمس الهندوآري الذي قيل إنه ظهر من المياه الكونية. وكما في الأسطورة الحثية الهندوأوروبية عن إله الشمس في الماء الذي يشرق من البحر وعلى رأسه سمكة، مثل رع تماماً الذي ينهض من الماء كل صباح.

كان رع كإله شمسي معروفاً بـ «الواحد المشرق» «الجد الأول للنور» «سيد النور». ومرة أخرى نجد أسطورة التين كما جاء في الدين الآري. يوماً يقاتل رع أفعوان الظلام المعروف باسم زيت، والذي سمي فيما بعد أبوفيس. أما لماذا يجب أن تكون المهمة شاقة جداً حتى تشرق الشمس، وعلى الأخص في مناخ مصر، فأمر محير. ويمكن للمرء أن يفهم أفضل هذا النمط من التفكير بمعرفة أصله في أوروبا الشمالية.

لكن ظلام الليل كان يبدو كقوة لا بد من محاربتها يومياً، تماماً كما كان على فارونا الهندو آري أن يقدم الضحايا اليومية لإخراج الشمس من مكانها المظلم تحت الأرض.

وكما تمثل دين الربة اسم حورس كابن إيزيس، فقد فرض كهنة ممفيس مفهوماً آخر عن الرب الآب العظيم. هذه المرة كان اسمه بتاح، وهو يشبه شَبهاً غريباً كلمة بيتار السنسكريتية. والنصوص التي تهتم به تصف خلق كل الموجودات وترغم أن بتاح كان في البداية. ونعلم هذه المرة أنه من خلال عملية الاستمءاء جعل بتاح الآلهة الأخرى تظهر إلى الوجود، وبذلك أنهى كلياً الحاجة إلى جده مقدسة.

ومع ذلك فعلى الرغم من غزوات الآلهة الذكور الذين حلوا محل الربات الكوبرا والربات الصقر اللواتي كن آلهات فائقات لمصر، نجد أن مفهوم الربة أبعد من أن ينسى. فالمصريون القدماء الذين اتقنوا إدخال الآلهة الجديدة في دينهم (أحياناً إلى درجة سيطرت فيها الأساطير التي تجمع أعداداً ضخمة من الأسماء المتداخلة) يبدو أنهم تمثلوا الآلهة الذكور التي جاء بها الغزاة، فجعلوا الدين يتخذ أشكالاً جديدة مختلفة. وانطلاقاً من احتفاظهم بأنماط السلالة الأمومية جيداً في المراحل التاريخية فقد تمثلوا الغزاة أنفسهم أيضاً، مع أنه بقي في البيت الملكي الشيء الكثير.

لقد جرى الاحتفاظ بطبيعة الربة الكوبرا وازيت في عدة آلهة أثوية أخرى فيما بعد منهن الربة المعروفة باسم حاتحور، التي تعني حرفياً بيت حور. يرمز إليها بشكل عام ببقرة تضع الكوبرا فوق جبينها. لكن أحد النصوص يصفها بالأفعى البدائية التي خلقت العالم أول ما خلقت. أوسيت أيضاً التي تصور في شكل إنساني، ترتدي الكوبرا على جبينها. ويبدو أن اسم أوسيت قد أخذ من اسم وازيت.

والأهم من ذلك هو الربة المصرية المعروفة باسم ماعت. وترمز ماعت إلى نظام الكون وكل ما هو خير. واعتماداً على مكان النص فإنها اشتهرت باسم عين حورس أو عين رع أو عين بتاح. والعين بالمصرية هي يوزيت، وهي أيضاً كلمة قريبة الشبه جداً بوازيت. ولكن في اليونانية الهندوأوروبية فإن الكلمة المستخدمة للعين هي ماتي. (تقصد المؤلفة أن الكلمتين متشابهتان جداً - المترجم) كانت ماعت تجسيدا للكوبرا المقدسة القديمة. ويبدو أنه سمح لها أن تحتفظ بصفاتها وطبيعتها مادامت معينة لتكون ملك أحد الآلهة الذكور. يكتب البروفسور أنتيس «مادام الملك حياً فإن الأورايوس (الحية المقدسة - المترجم) كما تشير نصوص الأهرام محروسة سحرياً من قبل الملك. فإذا مات الملك فإن الأفعى السامة ستهرب ما لم توضع في السجن».

وهذا يدل على أن القانون والنظام كما يفهمهما أنصار حور أو رع أو بتاح، ممكنان فقط مادامت الربة الكوبرا تحت سيطرة الملك. إن الجمع الغريب للصفات التي نسبت للكوبرا السامة عرفت باسم ماعت - الحكمة المطلقة والخطورة وربما التمرد والكاوس - يشير إلى أن الكوبرا رمزت إلى ملوك مصر في مجتمع عبادة الربة الذي تمثله.

هناك مرجع في نصوص الإهرامات من الأسرة الخامسة قد حير طلاب الثقافة المصرية القديمة. وهي وثيقة تدل أن الرجال كانوا يقدمون ضحايا في قبر أوزيريس - وكانت الضحايا رجالاً بشعر أحمر. فإذا كان شمسو حور مرتبطاً بالقوم عرفنا فيما بعد أنهم الهندوأوروبيون أو الحوريون، فإن هذا المرجع يصبح قابلاً للفهم أكثر.

ومسألة ما إذا كانت جماعات مرحلة عبيد في أريدو أو الذين من جمدة نصر في نيور أو الشمسو حور في مصر كانوا حقاً مجموعة من قدامى الهنوأوروبيين أو مرتبطين فعلاً بأقوام من مناطق القوقاز أو أارات يحب أن تبقى في هذا الوقت مسألة تأملية افتراضية، على الأقل حتى يتوافر المزيد من الأبحاث المختصة. ما هو مؤكد أن تلك الأقوام أحضروا معهم عبادة الإله الذكر حالما دخلوا بلاد الشعب الذي يتمسك بالربة باعتبارها مقدسة، ويبدو أن كلاً من العبيدين والشمسو حورين كانوا أول من أوجد مفهوم الملكية بينما الذين أبقوا عليها وأنعشوها هم أقوام جمدة نصر في نيور وكيش.

الحثيون - خلق طائفة خاصة...

بالعودة إلى أكثر المراحل التاريخية بروزاً للغزوات الهندوأوروبية، يعتقد أن الحثيين دخلوا الأناضول من إقليم القوقاز قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح، وهناك أمثلة عن وصولات مبكرة لأعداد صغيرة من هذا الشعب.

يقول البروفسور غورني «بين فحص الجماجم التي عثر عليها في عدة مواقع في الأناضول أن السكان في الألف الثالث قبل المسيح كانوا ذوي رؤوس طويلة قوية (نحط البحر المتوسط) مع خليط صغير فقط من الأنماط القصيرة الرأس (الجبلية). في الألف الثاني تزايدت نسبة الجماجم القصيرة بنسبة ٥٠ بالمائة».

إن أبناء ذلك الشعب الجبلي (الالبي) القصيري الرؤوس هم الذين عرفوا كطبقة حاكمة في الإمبراطورية الحثية. وقبل الوصول الثالث كان سكان البلاد يعرفون بالشعب الحاثي. وهذا الاسم الحاثي هو الذي قاد إلى تسمية أولئك الناس بالحثيين، وسماهم بذلك الدارسون القدامى الذين كانوا غير متبهين إلى أن مملكة الحثيين كانت مؤلفة من مجموعتين متميزتين تماماً من الناس. وقد زاد ذلك تعقيداً حقيقة

أن العديد من الملوك الحثيين اتخذوا اسم حيتوسيلي وسمى الغزاة العاصمة حاتوساس، ربما يوحدون بذلك أنفسهم كمنتمين إلى الشعب. لكن الآن بات واضحاً أن السكان الأصليين للبلاد صاروا خدماً أو طبقة خاضعة بينما الهندوأوروبيون الغزاة احتكروا القيام بأدوار الملكية والقيادة بالضبط كما فعل الشمسوحور في مصر، وكما فعل الآريون في الهند والميتانيون الحوريون مع الكاشيين وأخيراً في اليونان وروما.

يقول غورني «كانت الدولة الحثية خلقاً لطائفة خاصة تفرض هيمنتها على السكان الأصليين للبلاد... مجموعة من المهاجرين الهندوأوروبيين باتوا مسيطرين على العرق الأصلي للحثيين». ويخبرنا البروفسور ساغس أنه «بعد فترة الفوضى التي نجمت عن غارة الغزاة الهندوأوروبيين على إقليم الهالسينين أنشأ أمير منهم، وبالتحديد هو لابرناس، مملكة لنفسه التي، طبقاً لتقاليد الحثيين وسّعها بسرعة عن طريق الانتصارات العسكرية إلى أن جعل البحر حدوده». ويوافق ساغس على ما جاء به غورني فيقول إن «الحكومة في المملكة الحثية كانت في هذا الوقت محصورة بنيل وظائفه محتكرة ومطبقة على السكان الأصليين، وهو وحده يهتم بالنشاطات العسكرية والإدارة المركزية للدولة».

إن الهندوأوروبيين بعرباتهم الحربية التي تجرها الخيول وبأسلحتهم الحديدية وأيضاً بحجمهم الجسدي الضخم (وحتى يؤكدوا ضخامتهم وضعوا قبعات مخروطية حتى يبلغ ارتفاعهم بين ١٨ - ٢٤ بوصة) فأحرزوا تفوقاً عسكرياً لا مثيل له من قبل. إن العربة ذات العجلات دخلت في ثقافات عبدة الربة في فترة حلف، ولكن حتى وصول الحثيين والحوريين كانت العربات الكبيرة والصغيرة التي تجرها الحمير فقط مخصصة كوسائل نقل للناس والمنتجات. ولكن فقط بعد قدوم المحارين الهندوأوروبيين (المايانو) استخدم الحصان ودخلت عربات الخيول الحربية في الشرق الأدنى. وطبقاً لمواصفات الفيدا فإن تلك العربات كانت تجرها الخيول، حصانان يربطان معاً ويقوداهما راكبان. ويشار عموماً أن الحثيين خلال الألف الثاني قبل المسيح اكتشفوا التعدين وصهروا الحديد، مع أن النقبين عثروا على خنجر حديدي في قبر يرجع تاريخه إلى مايقارب ٢٥٠٠ قبل المسيح. وبالمقارنة مع النحاس والذهب والبرونز في ثقافات الربة فإن الحديد قَدَمَ أسلحة «فعالة» جداً. وقد تكون كلمة حديد مرتبطة بالكلمة آريان لأنها ترافقت تماماً مع هؤلاء الأقوام الذين عزموا على جعل العملية سرية لقرون كثيرة بعد اكتشافها. وقد استخدم المصريون النبوليثيون الحديد النيزكي الذي فضلوه لأنه «معدن

من السماء، وربما كان ارتباط الحديد، وإن كان علمياً عبارة عن حديد ترابي، بالآرين هو الذي أدى إلى الليجندات التي زعمت بأن أصلهم سماوي، وإلى فكرة أن الملكية قد هبطت من السماء. ومن احتكار الأسلحة الحديدية والسرعة والقوة الصاعقة لعربات الحرب التي تجرها الخيول (والأرجح أيضاً التأثيرات المربعة في شعب ريفي مسالم) أقام الغزاة الهندوآوروبيون قوة عسكرية لم يكن الشرق الأدنى يعرفها حتى وصولهم.

لا بد أن الحائنين المغلوبين على أمرهم قد انصاعوا بكل دقة خوفاً من هذه الطائفة الحربية المسلحة تماماً التي حكمت بلادهم. أحد القوانين الحثية ينص «إذا عارض أي شخص حكم الملك فسوف يصبح منزله خراباً، وإذا عارض أي شخص حكم صاحب المقام الرفيع فسوف يقطع رأسه».

قبل الغزوات لم يكن لدى الحثيين لغة مكتوبة متطورة، على الأقل لم تستخدم لغة لتسجيل الأساطير والأدب. (لقد ظهرت الهيروغليفية الحثية وهذا مأسوف أناقشه بتوسع ودقة فيما بعد). فبعد وصولهم واتصالهم بالأكاديين طفقوا يستخدمون الأبجدية الأكادية المسمارية، التي قامت على أساس كتابة السومريين. ومع أن الحثيين في كتابة الكثير من أساطيرهم استخدموا فعلاً اللغة الأكادية، فإن لغتهم الخاصة تحولت أيضاً إلى اتخاذ الطريقة الأكادية في الكتابة. وهذه اللغة الحثية هي التي ظهرت كشكل من أقدم الأشكال الكلامية الهندوآوروبية. ففي العصور التاريخية المبكرة ارتبطت هذه اللغة ارتباطاً وثيقاً بالنسكريتية واللاتينية واليونانية. وفي الوقت ذاته نراها مرتبطة بالألمانية والفرنسية والانجليزية والدانمركية وبكل اللغات الأوروبية تقريباً.

ويخبرنا غورني أن «اكتشاف أن للحثيين روابط مع اللغات الهندوآوروبية يعود إلى باحث تشيكي هو هروزني وقد نشر في عام ١٩١٥ أبحاثه عن هذا الموضوع. فالزعم أن سكان آسيا الصغرى تكلموا بلغة هندوآوروبية في الألف الثاني قبل المسيح كان قلقاً بحيث تلقاه الناس بادية الأمر بشكوك كبيرة». ويتابع كلامه فيقول إن هذا في هذه الأيام قد جرى إثباته من دون أدنى شك».

إن الحائنين الأصليين الذين كانت لهم علاقة بشعب كاتال حيوك الأقدم الذي كان يبعد الربة، وتقع كاتال حيوك بعد ١٢٥ ميلاً جنوب العاصمة الحثية حاتوساس، كانت لهم على ما يبدو ربة عبدت كإله أعلى. ربات من أمثال حناخا وهيتا وكوبابا

وربة الشمس العظمى في أرينا، ازدهرت عبادتهن منذ أقدم دين حاثي. كانت الربة تسمى في النصوص العرش، وهو اللقب الذي لازم إيزيس في مصر.

ومع أن ثمة دليلاً في نصوصهم أن الحثيين عبدوا اندرا وميثرا وفارونا، بيد أن الأساطير والسجلات الحثية لهذه الآلهة لم تكتشف بعد. فأرباب العاصفة الجيليون أدخلهم الحثيون، وفي كتابات الأناضول الحثية نجد بعض المواقع من تلك الآلهة المذكورة الجديدة. ففي مخطوطات الملك انيتا، وهو من أقدم ملوك الحثيين يشار إلى تارو رب العاصفة باعتباره إلهاً قائداً. ومع ذلك ففي مدينة أرينا بعد ذلك بقرون ويقال في يوم الرحيل عن حاتوساس ولكن قبل وجود مكان آخر للاستقرار، هناك قصة مختلفة. فغورني يلاحظ من دراسته لنصوص بوغاسكوي أنه «في أرينا كان الإله الأساسي هو الربة فورسيمو، ربة الشمس زوجها تارو رب الطقس الجوي يحتلان مكانة ثانوية وهناك ابنتان تسميان ميزولا وهولا، وتوجد حتى حفيدة تسمى زنتوهي».

بعض النصوص تصف الشعائر التي رعتها سلسلة من الملكات الحثيات من أجل ربة الشمس فيأرينا، فتكشف أن الملكة أيضاً تقوم بدور الكاهنة العليا للربة. وكما أشرت من قبل، فإن هذه العلاقة الوثيقة للملكات الحثيات مع ربة الشمس تشير إلى أن الغزاة الهندوأوروبيين حصلوا في وقت واحد على القبول الشعبي لهم وعلى شرعية العرش بالزواج من الملكات الحثيات اللواتي يكون لهن الحقوق بالعرش من خلال الذرية الأمومية. ويشرح غورني أن الملوك الآريين حافظوا على المعابد الحثية القديمة «... بينما في الوقت نفسه كانوا يستأثرون في شخصهم بمركز الكاهن الأعلى الرسمي للمملكة».

مرة أخرى نقابل هنا أسطورة دحر التنين. فقد كتب الملك مورسيلس الثاني على وجوب إقامة احتفالات رب العاصفة في عدة مدن. في هذه الرسالة ذاتها يشير إلى المهرجان الأكبر الذي من هذا النوع بأنه سيجري في العاصمة حاتوساس، عند ضريح الربة المعروفة باسم ليوانيس. وفي هذا المهرجان تتلى أو تمثل معركة شعائرية، ربما تشبه تلك التي جرت، بين حور وسيت في مصر. هذه المعركة كانت بين رب العاصفة والتنين اليانكاس.

ويبدو أن موروسيليس كملك قد يكون له دور في الدراما، وربما كإله عاصفة. لكن الشكل الآخر الموجود في القصة هو عن شاب صغير اسمه هويساياس، الذي بعد نومه مع الربة التي تسمى أنارا يحصل على قوة تكفيه لمساعدة رب العاصفة في دحر التنين، ويبدو أنه دور يشبه الدور الملكي. فقصة حصول هويساياس على القوة

بمضاجعة الربة ربما تكون قد حصلت في الاتحاد الجنسي المقدس الذي يجري سنوياً، ويشبه تلك الاتحادات التي وصفتها النصوص السومرية والبابلية، والتي سوف نشرحها بمزيد من العمق في الفصل السادس. فالملك في هذه البلاد لعب دور الابن /العاشق مع الكاهنة العليا للربة التي تهبه عندئذ حقوق الملكية. فإن كان الأمر على هذا النحو فإن ذلك يشير أيضاً إلى أن الملوك الهنـدوأوروبيين الأوائل قد لعبوا هذا الدور مع الكاهنات الحاثيات لجعل مركزهم شرعياً. واسم التين اليانكاس قد تكون له علاقة مع الربة ليلوانيس. في الخاتمة يقتل التين تماماً كما يحصل مع الربة تيامات التي ترمز إلى التين والتي قتلها مردوخ. فهل بمحض الصدفة أن يجري المهرجان ليس في معبد ليلوانيس وإنما في ضريحها؟

اسم الرب الحثي تارو مرتبط بالكلمة الحثية ثار ومعناها القيام بالغزو. وكلمة ثورا السنسكريتية تعني القوي، بينما ثوراشاه اسم آخر لأندرا. وقد تكون هذه الكلمة باقية في كلمتي ثوروس وثوروس بمعنى ثور. ولكن ربما كان لهذه الكلمة علاقة أيضاً بالجبال كما في الكلمة حور وحر وحاراً. وإلى جانب حقيقة أن سلسلة من السلاسل الجبلية في الأناضول تسمى توروس (طوروس - المترجم) كما تسمى أعلى قممه باسم جبل طوروس، نجد في اللغة الكلتية الهنـدوأوروية أن كلمة ثور تعني القمة الجبلية الصخرية، وكلمة ثورم الألمانية تعني البرج أو القمة وفي الانكليزية لدينا كلمة تاور بمعنى البرج أو القمة. وهذا الاسم يبدو كأنه مأخوذ من إله العاصفة الأتروسكاني تارشون، بل حتى قد يكون بطريقة ما قد صاحب رب العاصفة الفايكني ثور.

دائماً كان الحثيون في صدام مع الجيوش المصرية، وكلا الطرفين يحاولان السيطرة على كنعان (وهي منطقة تشكل اليوم جزءاً من سوريا ولبنان وفلسطين. ويمكن كنتيجة لهذه الصدامات، في جهود لتوطيد السلم أو التسلل، أن الأميرات الحثيات والحوريات والكاشيات كن يرسلن كزوجات إلى الملوك المصريين في الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ - ١٣٠٠ قبل المسيح) واستمر ذلك لأجيال عديدة. وكل من الملكتين تبي ونفرتيتي، الأم المبجلة والزوجة الموقرة للملك الثوري الديني أختاتون، يعتقد بعض الباحثين أنهما من ذرية حثية أو حورية. فإن صح هذا فإنه يفسر لنا الثورة الدينية قرابة عام ١٣٥٠ قبل المسيح التي جعلت أختاتون ينقل عاصمته إلى العمارنة، رافضاً كل الآلهة إلا رع باعتباره قرص الشمس الذي سماه أتون. إذا كانت هذه الزيجات محاولة للتسلل فقد نجحت الخطوة لأن أختاتون الذي انساق وراء نشاطاته الدينية،

تجاهل مستعمراته وحلفائه في كنعان، وهذا مأتاح للحثيين والخوريين أن يطلقوا جيوشهم ويستولوا على كنعان.

ما يزال ثمة حدث غريب آخر وهو استلام الملك الحثي بعد موت أخناتون وصهره توت عنخ آمون بزم من قصير جداً رسالة من مصر. ويدور سجل حول ما إذا كانت نفرتيتي أو ابنتها أنخيس آين آمون قد أرسلتها إليه. في الرسالة تعرف الكاتبة نفسها بأنها ملكة مصر. وتطلب من الملك الحثي أن يرسل إليها أحد أبنائه لتجعله زوجها.

كان الحثيون وأيضاً الأمم الحاكمة الأخرى من الهندوأوروبيين متورطين في حروب وسياسات عالمية. وفي ظل الملك موريسلس غزا الحثيون بابل قرابة عام ١٦١٠ قبل المسيح، ومع أن موريسلس اغتيل أخذ فإن الكاشيين استولوا على مقاليد الحكم. والدولة الخورية في ميتاني سيطرت بدءاً من هذا التاريخ تقريباً على آشوريا لعدة قرون، بينما غزا الكاشيون المدينتين السومريتين القديمتين أور وأريك.

من القرن العشرين حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد، تبين وظهر التمزق البدوي المستمر. ويعزى هذا عموماً إلى الحرب البدوية المحلية. لكن البروفسور أولبرايت الذي يصف دخول الهندوأوروبيين إلى أرض كنعان بأنه «حركة هجرة» يخبرنا أن «الأمرء والنبلاء الهندوأوروبيين والخوريون في القرن الخامس عشر قبل المسيح كانوا قد وطدوا أنفسهم في كل مكان تقريباً. ونادراً ما يشار إلى هذا التمزق البدوي على أنه قد يكون نتيجة الغزوات الأصلية التي قامت بها تلك القبائل الهندوأرية والخورية إذ دخلت البلاد وخاضت المعارك إلى أن صاروا مقبولين كحكام. يكتب فيونركيلر واصفاً الرسائل التي عثر عليها في أرشيفات أخناتون في العمارنة «مع أنها قد تكون سليمة تماماً فإن ثلاثة هذه المراسلات الأميرية من كنعان ذات نسب هندوآري».

غالباً ما يستخدم اسم بعل كاسم لزوج ذكر للربة في مدينة أوغاريت الكنعانية في القرن الرابع عشر قبل المسيح وزوج عشتاروت في الحقبة التوراتية في جنوب كنعان بعد موسى (قرابة عام ١٢٥٠ - ٥٨٦ قبل المسيح) وقد نجد أصولها أيضاً في اللغة الهندوأوروبية. فبحلول القرن الرابع عشر كانت النسبة المثوية الأكبر من السكان في مدينة أوغاريت لصالح الخوريين. وقد استخدمت النصوص الحثية والخورية الشارة نفسها لبعل كما فعل الأكاديون. ففي السنسكريتية كلمة بالا تعني تماماً ماتعنيه كلمة ثورا أي ثور وقوي أو شديد. لقد استخدم هذا الاسم مع الفصائل المسلحة. وقد يساعدنا هذا في

تفسير الدور المزدوج لبعل. فهو كرب عاصفة هندوأوروبية في أوغاريت يلعب دور رب جبل سافون، طالباً من عنت أن تبني له معبداً خاصاً به. وقد أشارت إلى جبل سافون أيضاً أسطورة كاماريي الحثية. وفي العصور الكلاسيكية اشتهر باسم جبل كاسيوس ووصف على أنه مكان المعركة التي دارت رحاها بين زيوس والأفعوان تيفون الذي طبقاً للجنة اليونانية ولد في كهف جبلي في كيليكيا بالأناضول حيث هاجمه زيوس أول مرة. ومن المهم أن نعرف أن الجبل البركاني الواقع شمال بحيرة «فان» ما يزال يعرف بجبل صوفان مع أن جبل سافون بعل يوصف عامة بأنه سافون القريب من أوغاريت (يعرف اليوم باسم الجبل الأقرع). وكما أصبح حور اسماً استخدم ليدل على ابن الربة إيزيس في مصر، فإن اسم بعل على ما يبدو قد استخدم ليحل محل اسم تموز كزوج للربة مع أن اسم تموز ظل يستخدم حتى عام ٦٢٠ قبل المسيح في أورشليم.

وقد اعتبر إله ذكري آخر لأوغارب عرف باسم إيل زوجاً للربة المعروفة باسم أشيرا ويظن أنه جزء من ديانة الربة جاء من الأزمنة الموعلة في القدم. ومع ذلك نحن نشك مرة أخرى بطبيعة إيل في أوغاريت لأن النصوص هناك تشير باستمرار إليه باسم ثور - إيل مما يدل على روابطه مع إله العاصفة الهندوأوروبي أيضاً.

اللوفانيون أو اللوفيشيون أو اللوفيتيون:

بالقرب من الأرض الحثية في الأناضول قامت مجموعة أخرى من الهندوأوروبيين عرفت باسم اللوفانيين أو اللوانيين أو اللافيين أو اللاوين وذلك حسب الترجمة. عاش بعض اللوفانيين جنوب الحثيين مباشرة في إقليم عرف باسم كيليكيا، القرية من جبل طوروس. وكانت هذه المنطقة تشبه تماماً المنطقة التي فيها ازدهرت عبادة الربة في كاتال جيوك ذات مرة. ومنذ أمد طويل واللوفانيون يعتبرون جزءاً من الأمة الحثية، ولكن في العقود القليلة الأخيرة فقط اتضح وجودهم باعتبارهم مجموعة منفصلة. لم يعرف إلا القليل جداً عن هؤلاء الناس باستثناء أنهم كانوا المؤلفين لما يشار إليه منذ أمد طويل باسم الهيروغليفية الحثية، وهي كلمات تصويرية ظهرت في النصب الملكية وفي نصوص قليلة. وكان من الصعب جداً حل رموز هذه الهيروغليفية، فحتى اليوم ما يزال بعضها سراً.

تقدم تواريخ مختلفة للدخول اللوفاني إلى الأناضول. فأولبرايت يكتب أن «اللوفانيين احتلوا آسيا الصغرى الجنوبية ليس بعد بداية الألف الثالث قبل المسيح». وفي «تاريخ كمبردج القديم» يتخيل ساغس التاريخ بعد ذلك فيقول «الاستنتاج أن

اللوفيانين تغلغلوا في الأناضول الغربية من عام ٢٣٠٠ قبل المسيح هو استنتاج غير محتمل بحد ذاته». ويتفق البروفسور لويدي مع كورسلاند قائلاً «قراءة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح اكتسحت الأناضول موجة كبيرة من الهندوأوروبيين الذين يتحدثون لهجة عرفت باسم اللوفيانة... وقد ترافق انتصارهم بالدمار الشامل...».

ويزعم بعض المؤلفين أن اللوفيانة تعتبر لغة مهجورة قياساً للحثية. وقد جاءنا اسم لوفيان من خلال النصوص الحثية التي أشارت إلى البلاد التي عاش فيها أولئك الناس باسم لوفيا وأشارت إلى لغتهم باسم لوفيلي. وكما جرى مع الحثيين إذ سموا حثيين وكما جرى مع الحوريين فسموا حوريتيين كذلك قد يكونون سموا لويانيين أو لوفيانين. ويشير إليهم الأركيولوجيون الفرنسيون باسم اللوفيتيين. ويسميهم الألمان لوفيشن. وقد يكون اسمهم الحقيقي عاملاً هاماً، كما سوف أشرح في الفصل التالي.

خبراء اللغات يصفون اللوفيلية بأنها لغة هندوأوروبية، مرتبطة كثيراً بالحثية. إنها مثل هيروغليفية تلك الشعوب التي ترجمت ترجمة تدريجية حتى صرنا نعرف القليل عنها. كتب البروفسور هانزغوتربوك، المختص بالحثيات في عام ١٩٦١ «علينا أن نفترض أن اللوفيانين خلقوا شعباً يتكلم لغة أخرى ولكن هذه اللغة ظلت غير معروفة وغير مسماة. واللغة المكتوبة بما يسمى الهيروغليفية الحثية ليست شيئاً سوى لهجة لوفيانة».

بسبب مشكلات حل الهيروغليفية والوضع البائس لما اكتشف منذ أمد طويل ومحدودية المادة نفسها فإنه لم يعرف إلا القليل عن الديانة اللوفيانة. نعرف أن الإله الأكبر كان رب العاصفة الذي يشبه اسمه اسم الرب الحثي ثارو. في اللوفيانة سمي تاهوند أو تارهونا أو ثارهويس. ويخبرنا غوتربوك أنه لم يتم العثور على مادة ميثولوجية في الهيروغليفية وأنها في معظمها ذات سمة صوتية. وهذا ما يشير إليه بأنه «النمط السحري» وهو «رقي وتعاويز تدخل في النصوص الطقسية». هذه السيطرة للمادة الدينية في هيروغليفيتهم المهجورة، بينما رسائلهم الأخرى في الكتابة كانت متاحة، يشير إلى أن اللوفيانين قد يكون لديهم طائفة كهنوتية مثل البراهميين في الهند أو كبة الكهان عند رع في أنو مصر. وهناك دلالات أخرى تؤكد هذا الاحتمال بما فيها حقيقة أن المدارس الكتابية أنتجت الأساطير بالحورية والحثية والأكادية التي يبدو أنها استقرت في الديار اللوفيانة في كيزواتنا.

ويرى غوتربوك أن « كيزواتنا، الإقليم الموجود في الجنوب الشرقي، بما فيه سهل كيليكيا، كان المقاطعة الخثية التي لابد أن تكون المدارس الكتابية الحورية قد ازدهرت فيها ازدهاراً كبيراً. وهو يزعم هذا على أساس حقيقة وجود الكثير من الكلمات اللوفيانية الدخيلة في نصوص كتبت باللغة الخثية ولكنها تعالج أساطير حورية. ولكن بالمقابل يحتمل أيضاً أن يكون اللوفانيون هم أنفسهم الذين قاموا بهذه الترجمات.

ليس هناك إلا القليل عن اللوفانيين ما لم يظهر المزيد من تفسيرات الهيروغليفية أو يظهر الكثير من المكتشفات. إلا أن دورهم في التاريخ الديني قد يكون فائقاً كما سوف أشرح ذلك في الفصل التالي الذي يتابع اختبارنا للثقافات الأبوية التي دمرت تدريجياً ديانة الربة.

الفصل الخامس

واحد من عرقهم

على غير ماقد يترأى، فإن المجموعة التالية من الناس الذين سوف ندرس ارتباطهم بالهندوأوروبيين هم العبريون. وكما يقول جورج مندنغال «لا يمكن أن تعامل إسرائيل القديمة كموضوع مستقل منعزل في الدراسة، لأن تاريخها مرتبط ارتباطاً لا ينفصم بالتاريخ الشرقي القديم سواء ما تعلق بالدين أو التاريخ السياسي أو الثقافة».

كما يعلق مندنغال أن «الفرضيات قائمة على بحث سليم وعلى معالم عملية بارزة، فهي مبنية لا كبديل عن الوقائع وإنما لتضع الاحتمالات وترشد الدراسة المستقبلية. ومن روح هذا الموقف أمل أن يفهم ماسوف أقوله».

إبراهيم (اللفظ الأصلي ابراهام - المترجم) أبو القبائل العبرية والنبي الأول للرب العبري يهوه، إما أن يكون مرتبطاً بجميع الهندوأوروبيين الذين عاشوا في مدينة أقربائه حران، أو أن يكون قد تأثر بهم. ومن المحتمل أن اسم الرب اليهودي/ المسيحي، المعروف في العهد القديم باسم يهوه وإن كان الآلف لنا هو اسم يهوها، اشتق أصلاً من الكلمة السنسكريتية ياهفا وتعني المتدفق أبداً. وقد يكون اسم إبراهيم نفسه مرتبطاً باسم الطائفة الكهنوتية الآرية في الهند وهي البراهمية، والمواقف الأبوية للعبريين تشكلت، ليس من فراغ ثقافي كما هو شائع، وإنما من ارتباطاتهم بالغزاة الشماليين أصحاب الاتجاه الذكوري.

بال تأكيد لم يفكر أحد مطلقاً أن العبريين هندوأوروبيون، ومع الزمن استقروا في كنعان بعد إقامتهم في مصر، وقد تكون أغليبتهم سامية. ومع ذلك هناك مجموعة بعيدة عن العبريين تحسب كقبيلة من قبائلهم. هذه المجموعة هي اللاويون الكهنة. وهذه بالتأكيد أعظم فرضية مناقضة يمكن أن تطرح، ولكن على مسؤولية ردود الفعل الدينية والعاطفية والأكاديمية السائدة سوف أطرح أن اللاويين قد يكونون بطريقة ما مرتبطين بالهندوأوروبيين وعلى الأخص باللوفيانين أو الليوفياتين أو اللوفينيين أو الليفيين حسب الترجمات التي تنقل الاسم. وعلى الرغم من الاعتقاد المقبول عالمياً

تقريباً أن العبريين كانوا دائماً شعباً سامياً مجموعته، فإن ثمة من الأدلة المثيرة تدل أن ارتباطاتهم بالهندوأوروبيين يجب على الأقل أن تدرس في هذا المسار.

من المهم قبل أن نقطع شوطاً بعيداً أن نتحقق أن أقدم نصوص العهد القديم بالعبرية هي النصوص التي عثروا عليها في قمران، ويرجع تاريخها إلى قرنين أو ثلاثة قبل المسيح. وأقدم نسخة قبل هذه المكتشفات هي الترجمة اليونانية التي تعود إلى هذه الفترة ذاتها. وأقدم نص عبري متاح قبل مكتشفات قمران كان قرابة القرن العاشر بعد المسيح. واستقراء للمفردات والبنية اللغوية وأسماء الأمكنة والناس يعتقد عموماً أن ذلك الجزء من العهد القديم المعروف بالتاريخ اليهودي كتب قرابة عام ١٠٠٠ قبل المسيح، بينما بقية الأقسام المعروفة باسم الكهنوتي كتبت قرابة عام ٦٠٠ قبل المسيح. ولا بد لنا من أن نأخذ بالحسبان أن التوراة كما نعرفها هي نتيجة كثير من التغيرات عبر القرون، وهذا عامل يظهر الدليل عليه من المقاطع المتناقضة. ويلاحظ البروفسور أدوارد شيرا:

«في مسألة التوراة، إلى جانب عملية التوسع هذه التي ترتبط بكل النتاج الأدبي للآثار القديمة، هناك مسألة أخرى واتجاه آخر مناقض وهو بالتحديد الرقابة الغيورة من قبل الكاهن الذي لا يريد أن يشتمل الكتاب على موضوعات أو شروحات لا تتفق مع مفهومه الخاص إما عن الله وإما عما يلائم تاريخ مؤسسي العرق، والذي بكل تقوى ولكن بقسوة لا رحمة فيها يجتث ما لا يستحسنه».

أيضاً يكتب جورج ودنغرين بروفسور اللغات الشرقية في جامعة ابسال في السويد أننا «يجب ألا نغض الطرف عن حقيقة أن العهد القديم كما وصل إلينا في الشريعة اليهودية هو عبارة عن جزء واحد فقط - ولا نعرف حتى إذا كان الجزء الأعظم - من أدب إسرائيل القومي. وعلاوة على ذلك فإن هذا الجزء الباقي كما يبدو واضحاً قد تعرضت مقاطع كثيرة فيه للرقابة وطهرت حسب المقتضى».

الهندوأوروبيون في سفر التكوين:

الباحثون في التوراة يتفقون على أن تاريخ إبراهيم يرجع إلى ١٨٠٠ - ١٧٠٠ قبل الميلاد. ولكن الكثيرين من هؤلاء الباحثين أنفسهم يحددون تاريخ موسى قرابة عام ١٣٠٠ أو ١٢٥٠ قبل المسيح. ولو تقصينا بدقة الأجيال كما وصفت في التوراة لوجدنا أن هناك سبعة أجيال بينهم هذان الشخصان الأيوان. أو حتى أربعمئة سنة تبدو زمناً طويلاً لسبعة أجيال. وبما أن تاريخ موسى قائم على دليل تاريخي ويفضي

بصورة مباشرة إلى مزيد من السجلات التاريخية لشاول وداود وسليمان إني سأضع إبراهيم قرابة عام ١٣٥٠ قبل المسيح. وبوضع موسى في عام ١٣٠٠ قبل المسيح فإن الزمن يسمح لنا بأكثر من أربعين سنة بين كل جيل، وباستخدام القوائم التوراتية ذاتها للأجيال، إلا إذا افترضنا أن هناك أسماء محذوفة، وتخصيص خمس وثلاثين أو أربعين سنة لكل جيل، نجد أنه حتى الشخصية الأولية لنوح الذي هو الجيل العاشر قبل إبراهيم سيكون تاريخه قرابة عام ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ قبل المسيح، وهذا تاريخ يتفق مع زمن وصول الهندو أوروبيين إلى الشرق الأدنى.

يخبرنا العهد القديم أن إبراهيم عاش في أور الكلدانيين. وهناك اتفاق عام على أنها مدينة أور في سومر التي تبعد خمسة أميال تقريباً عن أريدو. وبعد الإشارة الأولى إلى أور يشار باستمرار إلى حران باعتبارها بلاد إبراهيم، بلاد عشيرته وبيت أبيه. وتقول التوراة بعد أن يترك أور «فأتوا حران وأقاموا هناك» (تكوين ١١: ٣٢) ولكن في حران «قال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك» (١٢: ١). بعض باحثي التوراة يرون أنه مادام هناك مدن في ذلك الوقت تسمى أور كيش وأوروك وأورا وأورفا وأسماء أخرى (أور تعني قديم أو عظيم) فلا بد أن تكون واحدة من هذه المدن هي أور التوراتية. وبما أن حران لا تبدو وطنه الفعلي ومدينة عشيرته، ويبدو هذا الربط أوضح في قصتي اسحق ويعقوب، فقد نظن حتى أن إبراهيم أو أسرته انتقلت من حران إلى أور في زمن قديم نوعاً ما. ونحن نعلم أنه كان هناك حوريون في نيبور قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح. وفي كل الأحوال فإن التوراة تشير إلى أن إبراهيم انتقل من أور إلى حران مع زوجته وأسرته.

إن المعلومات عن الغزوات الهندو أوروبية جعلت من الواضح أنه حتى عام ١٨٠٠ قبل المسيح انتقل كثير من الحوريين إلى المنطقة التي عرفت تلريجياً باسم ميتاني. كانت حران قائمة في وسط المملكة. فاسم المدينة نفسه ناتج من موقعها في الديار الحورية، فهي ليست بعيدة عن الاستيطان الحوري القديم في أوريك، الذي يرجع تاريخه إلى عام ٢٤٠٠ قبل المسيح. فعلاقة إبراهيم بهذه المدينة قد يكون مشاراً إليها في أسماء أقربائه. فجدّه وأحد إخوته كلاهما سمي ناحور. واسم أخيه الثاني حاران. وخلال التوراة، وبالأخص في سفر التكوين، توجد إشارات إلى الحثيين والشعب الحوري، وهم من المرتبطين جداً بأسرة إبراهيم. فنحن نقرأ في سفر التكوين ٢٣: ٦ أنه فيما بعد كان إبراهيم في كنعان، فاحتاج إلى مكان يدفن فيه زوجته سارة. والآن عندما يدفن الناس موتاهم فإنهم يسعون عموماً للعثور على أرض مخصصة أو على

الأقل مألوفة. لذلك من الغريب أن الإنسان الذي تقدم منه إبراهيم لاستخدام أرضه لدفن سارة كان عفرون الحثي. والأغرب من ذلك كان جواب عفرون عندما دفع له إبراهيم ثمن الأرض. قال الحثي لإبراهيم «اسمعنا ياسيدي أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا أدفن ميتك» (تكوين ٢٣: ٦). والقصة نفسها عن الأرض في الديار الحثية استخدمت مرة ثانية عندما مات إبراهيم. وحتى حفيده يعقوب قبل أن يموت في مصر طلب من أبنائه أن يحملوا جسده ويعودوا به إلى كنعان لدفنه في الأرض التي اشتراها إبراهيم من عفرون الحثي.

كان اسحق ابناً لإبراهيم. وكان لاسحق ابنان يعقوب وعيسو. وعندما حل أوان اختيار زوجة لاسحق أرسل إبراهيم خادمه إلى حران للبحث عن ناحور ابنة أخي إبراهيم. وكذلك مرة أخرى عندما تزوج يعقوب كانت حفيدة ناحور هي التي اختيرت، وأيضاً من حران. وقد تزوج زوجتين. الأولى كان ابنة ايلون الحثي والأخرى ابنة زيبون الحوري. ثم انتقل عيسو مع أسرته إلى منطقة في كنعان عرفت في التوراة بـ «بلاد سعيير الجبلية، أرض الحورين». في قائمة الأجيال (السلالات) الكثيرة في الكتابات التوراتية نقف على قائمة أنساب عيسو، ولكن الغريب جداً أننا نتعاطى قائمة عن أنساب سعيير الحوري، جد زوجة عيسو.

معظم هذه الروابط مع الحثيين والحورين حصلت في سفر التكوين، السفر الأول في التوراة. فيما بعد، في سفر حزقيال نقرأ مرتين توبيخاً لبني إسرائيل عندما يقول حزقيال «كان أبوكم عمورياً وكانت أمكم حثية». وهذا يدل أن سارة هي التي كانت هندوأوروبية أو حتى أم إبراهيم التي لوحظ غيابها خلال سفر التكوين. ولا شك أنه لا يوجد دليل استنتاجي عن الروابط الدقيقة لكن الاشتراك المتكرر لأسرة إبراهيم مع الشعب والأمكنة التي نعرف أنها مرتبطة بالممالك الهندوأوروبية، في الوقت الذي وجدت فيه تماماً، يجب أن يؤخذ في الحسبان من دون شك.

بعض الروابط:

ومشابهة غريبة أخرى هي العادة العبرية في الزواج السلفي (زواج الأرملة من سلفها، أي شقيق زوجها - المترجم) أي القانون الذي يفرض على أرملة الرجل أن تتزوج من شقيق زوجها، فإن لم يوجد فمن حميها. يكتب البروفسور غوردون «بما أن هذا ظاهر جداً في الهند القديمة وظهرت فجأة في الشرق الأدنى فقط في بداية الغزوات الهندوأوروبية، فمن الواضح أنها أدخلت، أو على الأقل صارت عادة شعبية

على يد الهندوأوروبيين». ويناقش البروفسور غورتي أيضاً هذه العادة من الزواج السلفي بين الحثيين ويعلق قائلاً «القانون يشبهه ملحوظاً قانون العبريين في الزواج السلفي». إن شيئاً وثيق الصلة بالبيت كالزواج السلفي لم يكن عادة هكذا تتبنى بكل بساطة وإنما هي عادة تضرب بجذورها في أعماق المجتمعات التي تمارس فيها.

ومنذ أمد طويل استنتج البروفسور غوردون العلاقة الوثيقة بين الهندوأوروبيين والعبريين في ميدان الأدب واللغويات والعادات. ومع أنه لم يقدم علاقة وثيقة كما قدمت أنا آنفاً فإنه يقول «نستطيع الآن أن نعرف لماذا كان العبريون والإغريق هم الذين برزوا كأول مؤرخين في الغرب. كلاهما بدأ سيرته التاريخية على أساس حثي». كما يشير روبرت كريفر أيضاً إلى علاقة وثيقة بين العبريين والمفاهيم والآداب الإغريقية الهندوأوروبية حتى أنه يدافع عن موقفه بالتعليق أنه ليس «إسرائيلياً بريطانياً».

كما أشرت من قبل فإن العبريين احتفظوا بذكر أسطورة المعركة بين يهوه واللوياثان، مع أن القسم الأعظم قد نحي فيما بعد، والأرجح أنه نحي في زمن إضافة ليجندة آدم وحواء، في سفر أيوب ٣٦: ١٣ وفي الزمور ١٠٤ مانزال نقرأ أن يهوه دمر الحية البدائية. في الزمور ٧٤ أيضاً نجد: «أنت شققت وحش البحر إلى شقين (كما فعل مردوخ) وحطمت رأس حية البحر فوق المياه. وسحقت اللوياثان المتعدد الرؤوس» (جاء في الزمور ٧٤: ١٣ - ١٤ نقلاً عن الترجمة العربية: أنت شققت البحر بقوتك. كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لويثان - المترجم). في هذا العصر أيضاً ظهر هذا الأفعوان اللوياثان في نصوص أوغاريت شمال كنعان باعتباره عدو بعل رب العاصفة. ومع أننا لانعرف بعد إذا كان حكام أوغاريت، التي تبعد بضعة أميال جنوب أرض الحثيين واللويفانيين، هم من الهندوأوروبيين، إلا أنهم كانوا في علاقة صداقة حميمة جداً مع ملوك الحثيين. ولا نعرف إذا كان في أوغاريت عدد كبير من الحوريين في الزمن الذي كتبت فيه النصوص، قرابة القرن الرابع عشر قبل المسيح. والد بعل في أوغاريت هو داغون. وداغ ماتزال كلمة مستخدمة في تركيا لتعني الجبل. إن نصوص أوغاريت تصف إخضاع بعل للتين لوتان أو لاوتان أو اللوياثان. وكما أشرت من قبل فإن لات أو إيلات بالكنعانية تعني الربة. ويظهر الاسم مرة ثانية في الأسطورة اليونانية الهندوأوروبية عن هرقل الذي يقتل الأفعوان لادون، الذي قيل إنه يحرس الشجرة المقدمة للربة.

إن الأوصاف التوراتية لإخضاع يهوه للحية البدائية قد يكون بكل بساطة نسخة أخرى للقصة الشائعة الآن عن الإله الذكر الهندوأوروبي وهو يدحر حية الظلام، الربة.

وبعد عصر موسي حتى سقوط الدولتين العبريتين يبدو أنَّ العبريين الذين احتقروا اسم بعل باعتباره اسماً لرب العاصفة تمثلوه في ديانة الربة في دور تموز الابن/ العاشق. في اللغة الأكادية كلمة بعل تعني السيد كما أن بعلة تعني السيدة. وقراءة عام ١٠٠٠ قبل المسيح ارتبط بعل ارتباطاً وثيقاً بعشتوريت (عشتاروت - المترجم) باعتباره زوجها. ولكن في عصر الدخول الأول لاسم بعل في أوغاريت (من الممكن أن يكون أصله بالا بالسسكريتية التي تعني الجبار) عصر لم يكن قد اتخذ لنفسه معبده الخاص، كان هو ويهوه إلهاً واحداً. نقرأ في النصوص الأوغاريتية «يا بعل ها هم أعداؤك هاهم أعداؤك الذين سوف تسحقهم». وفي المزمور التوراتي ٩٢ نجد «لأنه هوذا أعداؤك يارب لأنه هوذا أعداؤك يبيدون». وفي أوغاريت كان يشار إلى بعل على أنه ممتطي الغيوم. وفي المزمور ١٠٤: ٣ يوصف يهوه بأنه يستخدم الغيوم لمركبته.

وما يزال هناك مقطع ملغز آخر في التوراة قد يكشف عن نفسه كمرجع للارتباطات الهندوأوروبية المبكرة. فإذا انتبه المرء أن الآريين نظروا إلى أنفسهم على أنهم عرق متفوق على الناس الذين أخضعوهم وحكموهم، فربما يفهم المقطع انعكاساً لهذا الموقف. ففي القسم الأول من التوراة (التكوين ٦: ٢ - ٤) كتب: «حدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا... في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم النفليم (الجبابرة) الذين منذ الدهر ذرو اسم».

هذا المقطع الذي برز جداً في التدفق الجاري للأسفار يدل أن رجال قضاء هبطوا ليكونوا مسؤولين عن تطور الثقافة البشرية، فيشير إلى صورة الآريين أنفسهم باعتبارهم أضخم أبداناً، وباعتبارهم في ذلك الوقت العابدين الوحيدين لرب النور على قمة الجبل، بالمقارنة مع سكان المتوسط الصغار عابدي الربة. هذا التهجين الذي نعلم أنه كان يقابل بالاحتقار من قبل الكهنة الآريين، يبدو السبب الخفي للظوفان العظيم الذي لم ينج منه سوى نوح وما حمل في فلكه من أقاربه.

ويظهر الأدب الإيراني بعد أربعة قرون من المرحلة التي سميت الأقسام اليهودية في العهد القديم مترافقة في أن مع الأقسام الكهنوتية. والتشابهات بين الأساطير العبرية والأساطير الإيرانية قد يكون نتيجة التوصلات في تلك الفترة (قراءة ٦٠٠ قبل المسيح) مع أنه من الصعب تقرير أي ثقافة هي الأصلية. لكن هناك احتمالاً وهو أن كلتا الثقافتين انحدرتا من الفكر الديني الهندوأوروبي. في نصوص بهلوية لعام ٤٠٠ قبل

المسيح، القائمة على الآفستا ٦٠٠ قبل المسيح يوصف خلق الكون بأنه جرى في سبعة أيام. وهذا يتفق اتفاقاً غريباً مع السجل العبري. أولاً السماء ثانياً الماء ثالثاً الأرض رابعاً النبات خامساً القطعان سادساً الإنسان وفي اليوم السابع كان أوهرمازد (أهورامزدا) نفسه. فالسجل مشابه تماماً، وحتى في حال اختلاف فإن المرء يفترض أنه لم يكن أخذاً مباشراً بل هذا الاختلاف كان نتيجة خطين من التطور انبثقا أصلاً من المصدر الأقدم ذاته.

وهناك نص آخر في الأسفار البهلوية يعالج النظرة الهندوإيرانية للمرأة الأولى، عرفت باسم جيه «ملكة الأبالسة البغايا». وتتبنى القصة خصائص ليجندة آدم وحواء من حيث أنها جعلت جيه تظهر في الخلق بصحبة الشيطان (أهرمان). في هذه الرواية للقصة لانجدها تحادته وإنما تتواصل معه جنسياً كبديل عن الكلام. ثم تسرد القصة عنها أنها انضمت إلى الشيطان إلى درجة أنها دنست بعد ذلك كل النساء، اللواتي بدورهن سوف يدنس كل الرجال. ثم نخبرنا القصة «بما أن النساء خاضعات للشيطان فإنهن سيب الدنس في الرجال». لاشك أنها ليست القصة ذاتها ولكن لاشك أن الفكرة الكامنة هي ذاتها والموقف هو ذاته. وفوق ذلك يمكن أن نسأل لماذا يجب أن تكون قصص العبريين تسير جنباً إلى جنب مع قصص الإيرانيين الهندوأوريين.

وهناك قصة ذات مقابل توراثي هي قصة رجل إيراني يسمى ييما. يحضره أهورا أن دماراً سوف يحل على العالم بشكل طوفان، لأن الشعب قد أخطأ. ويعلمه أن يني فارا، وقد ترجمت كلمة فارا بكلمة قلعة. وطلب منه أن يحضر إلى هذه الفارا ناراً وطعاماً وحيواناً وبشرًا - زوجاً من كل نوع. على أن الليجندة القديمة لطوفان عظيم لم تبرز فقط في الأديين الإيرانيين والعبريين بل برزت أيضاً في ليجندة سومرية قديمة. والشائع هو افتراض أن العبريين استعاروا الليجندة من السومريين. ولكن سجل الطوفان قد عرفه «العرق الجبلي» الذي وصل قبل مرحلة جمدة نصر في سومر بقليل، وربما رويت الليجندة كذاكرة أسطورية لوصول أجدادهم إلى الأرض الجبلية في آراتا. وقد تكون تراكمت فيما بعد بوصولهم الخاص إلى سومر، وربما أدى وصف هطول المطر الغزير على تلك المنطقة في ذلك الزمن إلى البيت: «إن غمر إنليل قد حلو الأرض قد تجددت». ومع ظهوره في الأساطير السومرية ربما يكون قد ظل في ذاكرة أولئك الذين أقاموا فيما بعد في آراتا (أرارات؟) وتواصلوا تدريجياً بنوح جد إبراهيم وأيضاً بالإيراني ييما.

ويزداد الشبه كثيراً عندما نتحقق أن سومر لا تملك مرتفعات عالية، فلا جبل تستقر عليه السفينة (وهو ما ادعاه السومريون). فالرواية العبرية تصف استقرار السفينة في أرارات نفسه. وجبل أرارات معروف بالاسم حتى هذا اليوم. إن ذراه ترتفع فوق كل الجبال تقريباً، فوصل إلى ارتفاع يقدر بـ ١٧٠٠٠ قدم تقريباً. ومكانه في أقصى القمة الشرقية لتركيا بالقرب من الحدود الإيرانية الروسية، في أرض كانت تعرف باسم أراراتو التي هي الاسم ذاته أرارات. والحقيقة أنه يحازي نهر الأراكس الذي يصب في بحر قزوين. وقد نجد من المهم أيضاً أن العبريين يزعمون أن نوحاً، الجد الأول للعبريين، انطلق من المنطقة نفسها تماماً بعد الطوفان، التي اتضح تاريخياً أن الهندوأوروبيين انطلقوا منها ودخلوا الأناضول.

تشابه آخر بين ليجندات التوراة وليجنيدات سومر فيما يتعلق بقنوات الري. وتسجل التوراة أنه بعد أن خلق يهوه العالم لم تكن هناك نباتات لأنه لم تكن هناك مياه. ونقرأ في سفر التكوين ٢: ٦ «ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض». في ليجندة ديلمون، الفردوس السومري، كان هناك نقص في المياه، فلم تظهر نباتات. عندئذ أمر أنكي رب أريدو أن تصعد المياه من الأرض وتسقي التربة. وفي أسطورة توطيد أنكي للنظام العالمي نقرأ أيضاً عن نشاطات أنكي في بناء القنوات. كل هذه القصص تصف أرضاً لا يوجد فيها إلا القليل من الأمطار أو لا ينزل فيها مطر. يجب أن تخرج المياه من الأرض. وهذا هو بالضبط الوضع في أريدو العبيدية، حيث كانت أول مكان تتطور فيه قنوات الري - وروايات هذه الفترة ظلت تروي لمدة ألفي سنة، في بداية الألف الثاني في سومر. وأيضاً يمكن أن نخمن أنهم شقوا طريقهم خلفاً إلى أراتا، مهتمين بالتواصل الدائم بين المكانين.

وارتباطات موسى ويوسف وإبراهيم مع الملكية المصرية تعتبر عاملاً هاماً في العلاقة بين العبريين والهندوأوروبيين. وكما أشرت من قبل، خلال فترة الأسرة الثامنة عشرة كلها (قرابة ١٥٧٠ - ١٣٠٠ قبل المسيح) توجد سجلات عن الأميرات الحثيات والخوريات اللواتي أرسلن إلى الملوك المصريين كزوجات لاشك للتغلغل في أنماط السلالة الأمومية. وأثناء هذه الفترة ذاتها لانجد كاهنات في المعابد المصرية، وكلمة بارو (فرعون) طبقت فقط على الملك أكثر مما طبقت على البيت الملكي. وأيضاً أثناء هذه الفترة حدث ثورة أخناتون الدينية فأتاحت للجيش الحثية والخورية أن تسيطر على أعظم في كنعان، وثالثة الرسائل التي وجدت في أرشيف قصر أخناتون كانت من أمراء بأسماء هندوإيرانية معروفة.

وبذا نجد أن من المهم، وفقاً للتوراة، أن «تبنى» ابنة فرعون موسى، وقد قيل إنها وجدته طفلاً. ونقرأ في سفر الخروج ٢: ٥ - ١٠ أن ابنة فرعون هي أول من عثر عليه وقدمته لامرأة قيل إنها أمه الحقيقية لتعني به كما تعني الأمهات بالأطفال «ولما شب الطفل احضرته إلى ابنة فرعون التي تبنته وسمته موسى». كثير من فراعنة الأسر السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة لهم أسماء كهذا الاسم مثل كاموس واموس وتوتموس ورامسيس. إنه لشيء غريب أن ابنة فرعون أعطت هذا الطفل «اللقيط» اسماً ملكياً.

ولكن حتى قبل موسى هناك يوسف، وهو ابن آخر اتصل اتصالاً وثيقاً بالملكية المصرية. قيل إنه حصل على مركزه بسبب قدرته على تفسير الأحلام. ونقرأ في سفر التكوين ٤١: ٤١ «ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر».

وحتى إبراهيم قبلهما يبدو أنه كان وثيق الصلة بالملكية المصرية. في سفر التكوين ١٢: ١٠ - ٢٠ أيضاً يجد إبراهيم وساره نفسيهما في مصر والسبب كما قيل وجود مجاعة في أرض كنعان. لكننا نعلم هذه المرة أن إبراهيم طلب من سارة أن تدعي أنها أخته. والأرجح بسبب جمالها فأخذت إلى قصر فرعون كزوجة له.

وأيضاً لا يوجد لدينا دليل حاسم مادامت التوراة لاتشير إلى الفراعنة بأسمائهم الخاصة. ولكن مرحلة إبراهيم ويوسف قد تكون أثناء عصر الأسرة الثامنة عشرة، بينما مرحلة موسى لا بد أن تكون بعد ذلك بقليل. أيضاً ربما نسأل إذا كان هناك اتصال محتمل هذه المرة بين الأميرات الهندوأوروبيات وأولئك الذين صحبوهن والسجلات التوراتية لإبراهيم ويوسف وموسى كلها متعلقة بفراعنة مصر في تلك الفترة الخاصة.

الآلهة والجبال المتقدة:

شيء محير آخر ربما كان الأهم ويكشف الارتباط بين الهندوأوروبيين والعبريين وهو رمزية الجبل وعلى الأخص النور العظيم المتقد على الجبل. فالهندوأوروبيون عبدوا آباءهم القدماء «الذين يحلقون في ممالك النور الأبدي». كان اندرا رب الجبال وتوصف ممتلكاته بأنها ذهبية. ويقال إن اهورا الهندوأوروبي كان يتقد ويتوهج جالساً على قمة جبل حورا. وكما أشرت من قبل فإن كلمة حارا تعني بالإيرانية الهندوأوروبية الجبل.

قصة موسى في النصوص العبرية مترافقة دائماً مع جبل سيناء الموجود في الطرف

الجنوبي لشبه جزيرة سيناء. ولكن في كثير من الإشارات التوراتية إلى الجبل الذي عليه كلم موسى يهوه تشير إلى أن الجبل هو جبل حوريب. وقبل أن يقود موسى العبريين خارج مصر وجد هذا الجبل. فنحن نقرأ في سفر الخروج ٣: ١ أن موسى عندما كان وحده في الصحراء قبل زمن الخروج «جاء إلي حوريب، جبل الله». وبعد الخروج والصعود المألوف لموسى في جبل سيناء نقرأ أيضاً «فلا تنس اليوم الذي وقفت فيه أمام الرب إلهك في حوريب» (تثنية ٤: ١٠) وفي تثنية ٤: ١٥ «يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار».

وارتباط يهوه بالجبل أو باعتباره جبلاً يتضح في كل سفر الزمائم، وهو من أقدم أسفار التوراة. وفي الزمائم ٣١ و٦٢ و٧١ و٨٩ و٦٤ يشار إلى يهوه على أنه «صخرة حصن» وفي الزمور ٦٢ هو «صخرة خلاص» وفي الزمور ١٨ «صخرتي به احتمي» وفي الزمور ١٩ «صخرتي وولي». ونقرأ في الزمور ٢٨ «يا صخرتي» وفي الزمور ٤٢ «الرب صخرتي» وفي الزمور ٧٨ جاء «وأدخلهم في تخوم قدسه هذا الجبل الذي اقتنته يمينه». وفي الزمور ٤٨ نعلم أن يهوه «على جبل قدسه». وفي الزمور ٩٩ يخبر كاتبه القارئ «اسجدوا في جبل قدسه». وفي الزمور ٩٢ جاء «الرب صخرتي». فإن لم يكن ثمة الكثير من الإشارات إلى الجبل فإننا نرى في هذا رمزاً ثابتاً، ولكننا نقرأ أيضاً عن الارتباطات الوثيقة والأهمية الكبيرة للجبل لنفسه وليس كرمز.

في الخروج ٢٤: ١٧ لا يوصف ظهور يهوه بأنه على قمة جبل بل على ذروة تشتعل ناراً. «وبدا وجه الرب للإسرائيليين مثل نار صاعدة على قمة جبل». وفي تثنية ٥: ٤ «وجهاً لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار». وفي الزمور ١٤٤ يطلب من يهوه «أبرق بروقاً وبددهم» وفي الزمور ١٠٤ يوصف يهوه بأنه «اللابس النور».

ونجد زيوس الهندو أوروبي يبرقه وصواعقه على قمة جبل الأولم. وبعل برمز البرق ذاته يستقر على قمة جبل سافون. ويصور أرباب الحثيين والحواريين دائماً بصواعق نارية في يدهم، ويقفون فوق جبل أو حتى جبلين. وأهورا يسكن بيته المتقد على قمة جبل حارا. فهل يهوه العبري الذي تكلم من خلال النار في جبل حوريب يعتبر صورة مختلفة ومفهوماً مغايراً لتلك الأرباب الهندو أوروبية؟ أم يعتبر مثل الأب الإيراني الذي يسكن في النور المتوهج كما صورته الفيدا؟ أليس غريباً أن الكلمة العبرية للجبل هي حار؟

اللوفيتيون واللافيتيون:

مع أننا لاحظنا ارتباطات العبريين مع المجموعات الهندوأوروبية عامة، فمن الأرجح أن يكون اللوفيانيون هم الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بظهور الدين العبري. وهناك دليل أكثر يشير إلى أن اللوفياتيين (أو اللوفيتيون) هم أصل كهنة اللاوين عند العبريين.

النصوص اللوفانية ماتزال غير مفسرة. وكما أشرت من قبل كان اللوفيانيون على صلة وثيقة بكل من الحوريين والحثيين وظل الأركيولوجيون زمناً طويلاً يعتبرونهم حثيين. وبدراسة النصوص النثرية والطقسية والتعويذية التي تعزى إليهم فإن اللوفيانين كانوا طائفة منفصلة من الهندوأوروبيين، تشبه البراهميين في الهند. ويحق لنا أن نسأل لماذا استمروا في استخدام لغة هيروغليفية أقل مرونة في حين كانت الكتابات الأخرى متاحة ومستخدمة من قبل بقية الهندوأوروبيين، ولماذا استخدمت الهيروغليفية حصراً للطقوس النثرية وللكتابة على النصب الملكية. ويبدو أن كثيراً من المدارس الكتابية استقرت في ديارهم مما يشير إلى أن اللوفيانين الذين استخدموا اللغات الحورية والحثية والأكادية للتعبير عن أفكارهم احتفظوا في الوقت نفسه باللغة الهيروغليفية القديمة باعتبارها طريقتهم في الكتابة الأكثر سرانية (كما فعل العبريون بعد عصور طويلة باللغة العبرية).

وبين الهندوأريين هناك طائفة كهنوتية عرفت باسم البراهميين جعلت الأضاحي النارية أهم ركن من أركان دينها. ويكتب البروفسور نورمان براون عن البراهميين في القرن الرابع قبل المسيح، فيصفهم أنهم «... قوة مهيمنة للأضحية الفيدية التي يقدمها البراهميون طبقاً لطقوس شديدة التعقيد وتفرض سلطة لاتجاري». ويخبرنا أن «الإبراهيميين ضمنوا لأنفسهم كقَسمين وكموظفين رسميين لكل الطقوس الهامة، مركزاً متفوقاً أخلاقياً واجتماعياً على كل من العسكرية القديمة والأرستقراطية الحاكمة...».

ويكتب غوزيب سورماني أنه في الياجورفيدا السنسكريتية القديمة مجموعة من صيغ الأضاحي والصلوات الطقسية ترجع إلى ما بعد الفيدا بقليل «فالكهنة يحكمون المجتمع وهم الأساد حتى على الأرياب، الذين ينحنون لإرادتهم عن طريق الطقوس. والسلطة الكهنوتية للبراهميين كانت واضحة من قبل في هذه الفيدا».

ويمكن تطبيق هذه الأوصاف أيضاً على اللاوين العبريين كما تطبق على البراهميين. فإذا كان اللوفيانيون طائفة كهنوتية شبيهة بالبراهميين، ومجموعة منهم

عرفت فيما بعد باسم الطائفة الكهنوتية اللاوية للعبريين فإن هذه الرابطة تفسر المركز الفائق الذي حققه اللاويون بين القبائل العبرية.

وفقاً لأسفار التوراة المعروفة باسم الخروج واللاويين والعدد والثنية، أي الأسفار الأربعة الأخيرة من الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، نرى أن اللاويين ظلوا مجموعة خاصة جداً. ويوصف موسى بأنه لاوي الأب والأم وكذلك أخوه هرون. في سفر العدد ٨: ١٤ نقرأ كلمات يهوه: «وتفرز اللاويين من بين بني إسرائيل فيكون اللاويون لي». وفي سفر العدد ذاته ١٨: ٢ يقول يهوه لهرون «وأيضاً أخوتك سبط لاوي سبط أهلك قربهم معك... وأنت وبنوك قدام خيمة الشهادة».

اللاويون فقط يقبلون أعضاء في كهنوت يهوه. موسى وهرون وأبناء هرون هم الكهنة الأعلون. والكاهن اللاوي الأعلى كان محظوراً عليه أن يتزوج امرأة أجنبية بل حتى امرأة من أي قبيلة عبرية. وحتى داخل قبيلته الخاصة لم يكن يتزوج أرملة أو مطلقة، والحقيقة أنه لم يكن يتزوج أي امرأة لها علاقة جنسية مع رجل آخر.

لم يكن يسمح لأحد سوى اللاوي أن يدخل خيمة الاجتماع حيث تقام عبادة يهوه. والشريعة تحذر بأن من يفعل ذلك يعرض حياته للخطر ويفارم بها. وعندما اجتاز العبريون صحارى سيناء قادهم اللاويون فظلوا طيلة رحلة النهار علي رجسهم ليقروا أين يكون المخيم التالي. ومع أنه في البدء قيل إن موسى عمل قاضياً أوحد يفصل في كل النزاعات فإنه راح يعين بالتدريج موظفين كل موظف يقوم بمهمته في وحدات متميزة. وقد وزع هؤلاء على أعداد تتألف من عشرة وخمسين ومئة وألف مثلما يجري التنظيم في الجيش، وكل مجموعة عليها موظف مراقب. لقد كان اللاويون قضاة شريعة المجتمع. «لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليعخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وضربة» (الثنية ٢١: ٦).

اللاويون وحدهم لهم حق امتلاك واستخدام بوقين فضيين يستخدمان لدعوة المجموعة ونصب المخيم. فالنفخ في بوق واحد كان دعوة لزعماء القبائل الأخرى لتمثل أمام خيمة الاجتماع، مما يدل بوضوح أن سلطتهم كانت مفروضة على زعماء القبائل الأخرى. أما النفخ ببوقين فكان دعوة لجميع بني إسرائيل. ولم يكن يسمح باستخدام البوقين إلا للكهنة الهرونيين، كما كانوا أيضاً ينفخون بها أثناء المعركة لتجميع الإسرائيليين، والأرجح أن تكون القيادة الاستراتيجية العسكرية كما ورد في لفائف قمران.

و بينما كانوا في الصحراء، ونرجح أنهم كانوا يستعدون للمعركة التي سيخوضونها حال دخولهم بلاد كنعان، راحوا يحصون أو يعدون القبائل التي كانت في إمرتهم. في البداية كان هذا مخصصاً للقبائل الإحدى عشرة الأخرى. وكل رجل بلغ الحادية والعشرين وما فوق بات صالحاً للخدمة العسكرية كان يدخل ضمن التعداد. وفيما بعد عندما أحصى اللاويون ووضعت قوائم بكل الذكور الذين فوق الشهر، وجدوا أنهم ليسوا بحاجة إلى تأهيل عسكري. في سفر العدد ١٣: ١ - ١٥ تشكل فريق تجسس لاستجلاء الموقف لدى دخول كنعان: ومع أن كل قبيلة مثلها رجل منها فإن اللاويين لم يدرجوا في القائمة.

أحياناً كان يشار إلى تمرد بين القبائل الأخرى الذين شكوا من نقص الطعام وفقدان الرفاهيات التي عرفوها في مصر، مع أنهم يزعمون أنهم عوملوا معاملة سيئة كخدم وعبيد. بيد أن عقوبات تطبيق قانون اللاويين كانت شديدة. ويخبرنا سفر اللاويين ٢٤: ١٦ عن رجل رجم حتى الموت لأنه جدف على يهوه. وقدم لنا سفر العدد ١٥: ٣٢ قصة رجل وجد يجمع الحطب في يوم سبت وهذا ما حرمه اللاويون «ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلاً يحطب حطباً في يوم السبت فقدّمه الذين وجدوه يحطب حطباً إلى موسى وهرون وكل الجماعة فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل فقال الرب لموسى قتلاً يقتل الرجل يجرمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة فأخرجوه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى». وعندما استلم يشوع القيادة من موسى قدم الرجال له وعدهم «كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب حسب كل ما سمعنا لموسى نسمع لك إنما الرب إلهك يكون معك كما كان مع موسى وكل إنسان يعصي قولك ولا يسمع كلامك في كل ما تأمره يقتل» (يشوع ١: ١٦ - ١٨).

وكانت الأضاحي النارية ركناً هاماً وكبيراً من أركان طقوس اللاويين وهي تشبه تماماً تلك التي يقدمها البراهميون في البدء. الإصحاحات العشرة الأولى من سفر اللاويين تهتم كلها بالأضاحي النارية. في هذه الإصحاحات كما في كل من سفر العدد والثنية، التي تصف قوانين اللاويين وطقوسهم، نعلم أن الأضاحي النارية يجب أن تقدم مرتين في اليوم، وكذلك تقدم في يوم السبت في الانقلابات الفصلية للخلاص من الدنس والذنب والخطيئة.

لقد حصر اللاويون بأنفسهم حق أكل طعام التقدمة التي تجلب إلى خيمة الاجتماع، وهي كل الأضاحي التي أشرنا إليها أعلاه. وبهذه الطريقة صار الإسرائيليون

الآخرون يمدونهم بالقطيع والأغنام والكباش والحمام والحبوب والدقيق والخبز والزيت والخمر. إن حق اللاويين هذا وحق أسرهم (وإن كانوا كلهم من الذكور) أشار إليه العهد القديم مراراً وتكراراً حتى أنني ترددت في أن آتي بهذه القوانين هنا. وأعتقد أن مقطعاً واحداً وردت فيه هذه الأحكام يكفي لشرح الرضع بكامله.

بالنسبة إلى كل الأضاحي النارية بشتى صنوفها يشار إليها على أنها «تقدمات محرقة» حسب القائمة التي أشرنا إليها أعلاه، كلها تحضر إلى الكهنة في الخيمة. والقانون ينص على:

«لا يكون للكهنة اللاويين كل سبط لاوي قسم ولا نصيب مع إسرائيل يأكلون وقائد الرب ونصيبه فلا يكون له نصيب في وسط إخوته. الرب هو نصيبه كما قال له. وهذا يكون حق الكهنة من الشعب الذين يذبحون الذبائح بقرأ كانت أو غنماً. يعطون الكاهن المساعد والفكين والكرش وتعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك لأن الرب إلهك اختاره من جميع أسباطك لكي يقف ليعخدم باسم الرب هو وبنوه كل الأيام» (التثنية ١٨ : ١ - ١٥).

وكذلك يقدمون العطايا للأويين من فضة وذهب وملكية إنما هي بناء على أمر يهوه الذي يتكرر باستمرار. فعلى كل رجل فوق العشرين أن يقدم نصف شافل فدية عن حياته. وهناك أيضاً فدية أخرى عن طريقة الحياة وهي ٣٦٥، ١ شافل من الفضة تقدم للاويين كما جاء في سفر العدد. «وتعطي الفضة لهرون وبنيه» (عدد ٣ : ٤٨).

واللاويون الذين يبيعون بيوتهم لهم دائماً حق التحرير فإذا لم يدفعوا لتحرير البيت فإنه يعود إليهم أوتوماتيكياً بعد يوبيل السنوات السبع. وإذا اختار رجل من قبيلة أخرى أن يبيع بيته للاوي فإن لهذا اللاوي وحده حق تقرير الثمن. فإذا أراد الرجل أن يسترد بيته ويشتريه ثانية فعليه أن يتوقع دفع ٢٠ بالمائة زيادة عن القيمة.

وهناك مقدمة أخرى تشتمل على ست عجلات مغطاة واثني عشر ثوراً: «خذها منهم واعطها للاويين» (عدد ٧ : ٥) وفي إصحاح آخر نقرأ أن أطباقاً من الفضة ثمنها ٢٤٠٠ شافل ومن الذهب وثمانها ١٢٠ شافل و٣٦ ثوراً و٧٢ كبشاً مسمناً و٧٢ من ذكور الماعز و٧٢ كبشاً في كل عام هي تقدمات مهداة للخيمة (عدد ٧ : ٨٤ - ٨٨). وفي سفر العدد ١٨ : ٨ «وقال الرب لهرون وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعي مع جميع أقداس بني إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية» ونقرأ في سفر العدد ٢١ «وأما بنو لاوي فقد أعطيتهم كل عشر في إسرائيل».

وكما قرأنا أعلاه لم يكن اللاويون يملكون أي وقف، وهو عادة يعطى حتى لا يأخذوا غيره. ولكن في سفر العدد ٣٥: ٢ - ٦ نقرأ «أوص بني إسرائيل أن يعطوا اللاويين من نصيب ملكهم مدناً للسكن ومسارح للمدن حوالها تعطون اللاويين» فأعطيت لهم ثمان وأربعون مدينة.

تعليمات متشددة جداً للباس اللاويين، فثيابهم يجب أن تكون من الخمل والقماش الأرجواني والكتان الرفيع بذهب وأحجار ثمينة، كما وصفت في سفر الخروج ٢٨. وكان أبناء هرون إلى جانب أروابهم يتلقون أيضاً أغذية رأس «رفيعة وعظيمة» ربما ذكرى القبعات الطويلة للحنثيين. وحتى العطر كان يقدم لهرون وأبنائه. فإن تجرأ أحد وارتابها فلا بد من أن «يطرد من قبيلة أبيه».

ويذكرون القبائل الأخرى «واللاوي الذي في أبوابك لا تتركه» (ثنية ١٤: ٢٧) «واحترز من أن تترك اللاوي كل أيامك على أرضك» (ثنية ١٢: ١٩) وترك هنا بمعنى تسي أو تهمل وليس بمعنى تدع - المترجم).

وفي سفر الثنية ٣١: ٢٤ نقرأ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين «... خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم». وهكذا فإن هذه القوانين (التوراة) كتبها أولاً اللاويون وأودعت في يد أصحاب الملكية الوحيدة وهم اللاويون الذين كانوا الوحيديين الذين يقتربون منها، كانوا الوحيديين الذين يفسرونها ويراقبونها أو يغيرون منها بالطريقة التي يرونها مناسبة.

إن الصورة العامة لاتشير أبداً إلى صورة كهنة البدو أو المرشدين الآسيويين وإنما تشير إلى أرستقراطية غندورة اللباس دسمة المطعم فاخرة البيوت يستخفها الطرب وتضمخ بالعطور، حكمت بموجب سلطة فائقة على بقية الشعب العبري.

وبقراءتنا القوانين المتعلقة باللاويين نجد أن مركزهم فائق جداً إذا قيس ببقية بني إسرائيل. فاللاويون، وفقاً لما جاء في التوراة التي نعرفها، هم على ما يقال من سلالة لاوي (بغير العربية تلفظ ليفي - المترجم) أحد أبناء يعقوب الإثني عشر وأيضاً لو تتبعنا السلالات فإن موسى سيكون الحفيد الأعظم للاوي. وهذا ليس بالضبط سجعاً بأعداد الذكور الذين أحصوا بعد الخروج من مصر بوقت قصير. ومع أن هناك شيئاً من المبالغة الاحصائية فإن اللاويين يزعمون أنه كان بينهم ٢٢٠٠٠ من الذكور، وهي تماماً أسرة من ثلاثة أجيال.

إن وضعهم كطبقة حاكمة للشعب العبري لاشك أنه نموذج هندوأوروبي، يدل أنهم حصروا هذا التراث ليبرروا علاقتهم بالقبائل الأخرى. على أي حال فإن قصص ابراهيم واسحق ويعقوب وعيسو هي القصص الأوثق صلة بالحثيين والحريرين وتشير بقوة إلى أن يعقوب و ابراهيم قد يكونان حقاً أجداد موسى وأخيه هرون اللذين كانا زعميي اللاوين، بينما بقية اللاوين وكذلك أبناء القبائل الإحدى عشرة الأخرى فإنهم فهموا بأن هذه السلالة الجدودية إنما كانت رمزية ولم تكن بيولوجية. فانطلاقاً من عددهم فإن القبائل الأخرى ربما تجمعت معاً تحت الرمز ذاته، الذي بدوره يفسر لماذا يعقوب، الذي يفترض أنه والد الأبناء الإثني عشر الذين انسلوا القبائل الإثني عشرة للعبريين، كان يسمى حقاً إسرائيل، فهو الذي يعتبر الأب الأول للشعب العبري أكثر مما يعتبر ابراهيم.

والافتراض أن العبريين الأصليين لم يكونوا عرقاً واحداً نجده موجوداً ومؤكداً في المزامير. في المزمور ١٠٧ نجد «ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو ومن البلدان جمعهم من المشرق ومن المغرب من الشمال ومن البحر...» كذلك نقرأ أيضاً في المزمور ٨٧ إن صهيون، وهي اسم آخر لبني إسرائيل «ستدعى الأم التي منها يولد الناس من كل عرق». ويعني هذا أن إسرائيل في زمن كتابة هذه المزامير كانت ترى نفسها مجموعة من العروق، كل عرق تجمع مع الآخر تحت شعار إسرائيل، ربما كان منهم شعب الصحراء السامي والمصريون والكنعانيون وآخرون، وكل من يريد أن ينظم تحت قيادة اللاوين.

ولا يزال ثمة مقطع غريب آخر فيما يتعلق باللاوين باعتبارهم مجموعة هندوأوروبية نجده في سفر التثنية ١٨ : ١٤ - ٢٢. هنا نجد تصوراً ليهوه وهو يكلم موسى على قمة الجبل. فيهبط موسى ويشرح للإسرائيليين الآخرين أن يهوه أخبره قائلاً «أقيم نبياً من وسط أخوتهم مثلك، واحداً من عرقهم».

لاوي وليفي، الاسم العبري لكهنتهم، هما كلمة واحدة كما تدل على ذلك الترجمات الانكليزية والألمانية والفرنسية. وأعتقد أن هذا الاسم أو الاسم الذي جاء من اللوفيانين مشتقان من مادة الاندلاعات البركانية وكتلة المهل الملتهب المتدفق من قمة جبل.

لافا باللاتينية تعني الاغتسال في جدول متدفق، بينما لافيت تعني يسكب. وفي الحثية لاهو أيضاً يسكب. ونجد هذه الكلمة تعيش في الكلمة الفرنسية لافي ومعناها

يغسل. والآن إن هذا يفترض أن الكلمة ترافقت من حيث الأساس مع السوائل. ولكن أيضاً نجد في الألمانية كلمة لافين تعني الكتلة الضخمة من الثلج، وكلمة لافيش الانكليزية تعني التدفق بغزارة. وهكذا تبدو الكلمات مرتبطة بأي كتلة متحركة أو متدفقة.

وسلسلة كلمات مشابهة أيضاً ترتبط بالنور الملتهب. ليفو باللاتينية تعني يصعد وعلى الأخص المترافق مع شروق الشمس. وفي السنسكريتية تعني لوها الحمرة المتوهجة، بينما البرق يدعى لوهلا. بينما نجد في الألمانية كلمة لوهي تعني يتوهج أو يلتهب أما في الدانمركية فكلمة لو تعني الدخول في اللهب. ولكن كلمة لافا في الانكليزية والألمانية والكلمة الفرنسية لافي، كل واحدة تعني الكتلة المنصهرة الملتهبة التي تندفق من جبل بركاني، ذلك أننا قد نجد مفتاحاً لهذين المفهومين، وهما النور واللهب، وهو أنهما في الوقت نفسه يسكبان.

إن صورة الرب على الجبل الملتهب، الصورة الهندوأوروبية لالههم الذكر، التي تظهر أيضاً في التصور العبري لقصص جبل حوريب، ربما تشير إلى ارتباطهم ارتباطاً بعيداً في زمن من الأزمان كمتعبدين للجبال البركانية. وفي حديث سفر الخروج عن «جبل الرب» نقرأ هذه الأوصاف: «وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً، فارتعد كل الشعب الذي في المحلة» (خروج ١٩: ١٦). وفي سفر الخروج ٢٠: ١٨ - ٢١: «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب لاتخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لاتخطئوا. فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقرب من الضباب حيث كان الله». وفيما بعد في سفر التثنية عندما كان موسى يسرد الأحداث التي جرت في «حوريب جبل الرب» ذكر العبريين «فتقدمتم ووقفتم في أسفل الجبل والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتاً» (تثنية ٤: ١١ - ١٣). يذكرهم بالعجل «الوثني» الذي صنعوه أثناء غيابه، ويتذكر «أما خطيتكم العجل الذي صنعتموه فأخذته وأحرقته بالنار ورضضته وطحنته جيداً حتى نعم كالغبار ثم طرحت غباره في النهر المنحدر من الجبل» (تثنية ٩: ٢١).

أيضاً ننظر في المزامير العبرية فنجد «يمطر على الأشجار فخاباً ناراً وكبريتاً»

(مزمور ١١). «نار قدماه تأكل وحوله عاصف جداً» (مزمور ٥٠). «حتى متى يتقد كالنار غضبك» (مزمور ٨٩). «أضاءت بروقه المسكونة وارتعدت. ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب» (مزمور ٩٧). «والسحابة ينشرها مثل ستار والنار لتضيء الليل» (مزمور ٣٩). «لاشك أن أعظم وصف حي ليهوه كجبل بركاني نجده في المزمور ١٨. ففيه نقرأ «فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال وارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. وجمر اشتعلت منه... من الشعاع قدماه عبرت سحبه. برد وجمر نار.... أرسل سهامه فشتتهم». إنه تصور من الصعب تجاهله.

ونرى من المهم أن نلاحظ أن الجبل الواقع شمال بحيرة «فان» في الأرض التي عرفت في يوم ما بأرارتو، ويسمونه حتى اليوم جبل صوفان، هو جبل بركاني. وفي كيليكيا، في بلاد اللوفيانين كيزواتنا يوجد جبلان بركانيان. أحدهما ويعرف حتى اليوم بحسن داغ له قمتان بركانيتان، وربما يفسر هذا لماذا يصور إله العاصفة الحثي والملك الحثي يقفان على جبل مزدوج القمة، كل قدم على إحدى ذروتيه. في إقليم القوقاز، إلى الجنوب تماماً، أيضاً في أرض أورارتو، يوجد ما لا يقل عن ثلاثة عشر جبلاً بركانياً، ثلاثة مازال فعالة حتى اليوم. أحد هذه الجبال قريب من باكو، على بحر قزوين، بالقرب من مصب نهر الأراكس. ومما يذكر أيضاً هنا أنه في المعركة الليجندي اليونانية بين زيوس والأفعوان تيفون، كان تيفون قد ولد في كهف جبلي في كيليكيا حيث قام زيوس بمهاجمته أولاً، ثم فيما بعد تعارك مع زيوس على جبل كاسيوس (سافون) وأخيراً قتل هزيوس على جبل بركاني وهو جبل اتنا في صقلية. ولكن قد يكون من الأهم أنه شرق سيناء في الجزيرة العربية نجد قافلة من الجبال البركانية الخامدة الآن على طول الشاطئ الغربي المواجه لمصر، وأن جبل أرارات نفسه بركاني.

وحتى نحصل على صورة أوضح لتلك الأزمان، من المهم التحقق أن الجبال البركانية تثور عدة مرات في فترة قصيرة نسبياً. فجبل كيلوا في هاواي ثار اثنتي عشرة مرة خلال العشرين سنة الأخيرة. (وبالمناسبة فإن هذا الجبل عبد باعتباره الرب ييلي). وحتى اليوم مازال بقايا الزارادشتيين في إيران يصلون للنار، بينما في ديار كوردش وتقع في جزء منها في الأرض التي كانت تسمى أورارتو، مازال النيران توقد على قمم الجبال في احتفالات رأس السنة.

إن عبادة الآلهة الهندوأوروبية والعبرية كجبال بركانية قد تفسر الأهمية العظمى

لطقوس النار بين كل من البراهميين واللاويين. وقد يفسر أيضاً اسم يهوه، الذي طالما حير باحثي التوراة الذين راحوا يتصيدون المعنى في نصوص الثقافات السامية، لأن كلمة يهوه بالسنسكريتية تعني التدفق، مما يشير إلى لافا الاندفاع البركاني، وقد يكون ذا صلة بكلمة لافا نفسها. وقد يكون من الهام أيضاً أن مجموعة أخرى ممن يتكلمون اللغة اللوفيانية تعتقد أنها عاشت في منطقة من جبل بركاني آخر في تركيا، والغريب أن هؤلاء الناس يسمون الأهويين.

إن الروابط بين الهندوأوروبيين والعبريين أكثر عدداً من أن نهملها، ولكن فقط إذا فهمنا النصوص اللوفيانية فهماً أفضل أو إذا اكتشفت مادة جديدة في ظروف أفضل، فقد نستطيع بالتدريج أن تثبت أو نرفض العلاقة المباشرة بين اللوفيانين واللاويين.

اللاويون وأبناء النور:

إن اشتراك العبريين والهندوأوروبيين بعبادة إله نور تثبت المكتشفات الحديثة للنصوص العبرية التي تعرف شعبياً باسم لفائف البحر الميت. فهذه اللفائف المكتشفة في قمران بفلسطين هي أقدم النصوص العبرية لأسفار العهد القديم، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وهي محفوظة مع النسخة اليونانية والنسخة العبرية المتأخرة مع بعض الاختلافات. ولكن هناك نصاً إضافياً يعتبر جديداً كل الجدة عند باحثي التوراة. إنه وثيقة تعرف باسم «لفافة حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام». وتتألف اللفافة من مخططات المعركة التي سوف تشن. والعدو يحدده اسم جماعي هو أبناء الظلام والعبريون، وكانوا مايزالون بقيادة الكهنة اللاويين، هم أبناء النور. تبدأ بالتقرير أن «الشغل الشاغل لأبناء النور هو الهجوم على مجموعة أبناء الظلام... أبناء النور هم مجموعة الله». كثير من الدارسين عزوا هذا الأثر المدهش إلى تأثير من إيران حيث كانت عبادة أهورا ماتزال سائدة. ولكن عندما نفكر أن كثيراً من النصوص الأخرى المكتشفة في قمران هي من العهد القديم قد نسأل لماذا حشرت هذه الوثيقة الخاصة بين تلك النصوص. كما أنه لا توجد إشارة إلى أهورا. وكما سبق وراينا فإن مفهوم إله النور لم يكن مفهوماً جديداً على العبريين. فالثنائية الهندوأوروبية للنور والظلام تظهر كامنة في الوصف القديم لخلق يهوه للعالم. ففي سفر التكوين ١: ٣ نقرأ «وقال الله ليكن نور فكان نور ورأى الله النور أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة».

عامل هام آخر في اللقافة وهو أنها تكشف أن اللاويين الكهنة ما زالوا مسيطرين. والشعب في قمران هو من قبائل يهوذا وبنيامين، وهم الذين بقوا أحياء في الجنوب بعد أن أخضعت قبائل إسرائيل في الشمال وتفرقت عام ٧٢٢ قبل المسيح. ومع أن دولة يهوذا الجنوبية أخضعت عام ٥٨٦ قبل المسيح، فإن كثيراً من الناس قد عادوا إلى المنطقة ليعيشوا تحت حكم أجنبي. ومن هاتين القبيلتين ينحدر يهود هذه الأيام، أما الآخرون فقد تشتتوا وعاشوا مع سكان سوريا ولبنان وتركيا والعراق، على الرغم من المحاولات غير النظامية لاختفاء آثارهم في إيرلندا أو في مختلف الثقافات الهندية لأمريكا الشمالية.

في لقافة قمران، تماماً كما في أسفار العهد القديم نلاحظ أن لباس اللاويين وراياتهم ومركزهم قد وصفت وصفاً خاصاً ودقيقاً. فالرايات مزينة بأسماء هرون وأبنائه. والأهم من ذلك هو حقيقة أن اللاويين كانوا أيضاً، أو ظلو، في وظيفة أبواق المعركة. وإشارات البوق مشروحة شرحاً دقيقاً في اللقافة، كما في إدارة حرب، فأتماط مختلفة من نفخات البوق تأمر «استعدوا للمعركة» «تقدموا» «اقتربوا» «ابدأوا القتال» «ترجعوا».

هذه الوثيقة عن قيادة اللاويين المكتوبة بعد لاوي عصر موسى بعشرة قرون ربما تقدم لنا فكرة عن مدى دقة وتماسك المركز الموسوي القديم للاويين الذي قطع كل هذه القرون.

هذا المظهر الحربي للعبريين، الموصوف منذ أيام موسى وما بعد سوف نناقشه في الفصول الأخيرة التي تهتم بالقمع العبري لعبادة الربة. ولكن نستخدم هذا المظهر الآن لشرح اسم العبريين باعتبارهم يهودا (يهوذا). فالكلمة السنسكريتية للمحارب هي يودها.

خلاصة:

لا بد أن أضع هنا تعليقاً قبل أن أخلص هذا الفصل. فإذا حظيت هذه الفرضية بمزيد من البحث فإننا سوف ننظر إلى أحداث الحرب العالمية الثانية والقطاعات التي أنزلت في عيربي القرن العشرين على يد آربي ألمانيا النازية الذين يتبعون الأسلوب ذاته ولكن ليس كقطاعات تراجيدية بل كقطاعات ساخرة. فالأبحاث والحفريات عن الثقافة الحثية قام بها أولاً الأركيولوجيون الألمان خلال هذا القرن. لقد كانت قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة أن الموافقة حصلت بالترجيع على أن الناسيلية هي الاسم

الحقيقي للغة الحثيين، ونيسا أو ناسا هي عاصمتهم الأولى. فالاسم الأصلي للغزة الحثيين قد يكون النيزيانين أو النازيانين. ونازي صارت عاصمة الأمة الهندوأوروبية في ميثاني. ولا يستطيع المرء إلا أن يدهش كيف تأثر أدولف هتلر بالتقارير عن هذه المكتشفات التي عرفت طريقها إلى الإعلام الشعبي في ذلك الزمن. فهل هذه الوثائق هي التي جعلته يغير اسمه من شيكلغروير إلى هتلر، التي تعني بالألمانية مايقارب «معلم هت»؟ ومن الغرابة أن الارتباط الأكثر بروزاً بين الحثيين والعبريين هو استخدام العبريين كلمة نازي لتعني الأمير.

في القرنين الأخيرين راجع علماء الدين والأركيولوجيا والتاريخ وحتى العلم كثيراً من الأفكار التي كانت متبناة كحقيقة سبقت ظهور أي اكتشاف أركيولوجي. كما نجد مراجعة أخرى تفسر نشأة الإله يهوه، إله النار على قمة جبل حوريب ظهور فهم أفضل للثقافة اللويفية. فإن حدث هذا فقد يساعد على شرح الكثير من القوانين والمواقف الأبوية للكهنة العبريين اللاويين في العهد القديم وإلحاقهم على تحطيم ديانة الربة.

بمعرفة أن ديانة الربة قد تأثرت بغزو الهندوأوروبيين على الأقل عام ٢٤٠٠ قبل المسيح ومابعد، ومن الممكن وإن كان بأقل دقة أن يكون الغزو في مصر منذ عام ٣٠٠٠ قبل المسيح، وفي سومر يمتد إلى مراحل قديمة جداً في الثقافة السومرية ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل المسيح، يمكننا أن نفهم فهماً أفضل التحولات التي حدثت في أساطير وطقوس وعادات ديانة الربة خلال الأحقاب التاريخية. وبالتالي فقد بدأنا نفهم المواجهة التي برزت عندما بدأ الشماليون الأيوون قمع الديانة القديمة وكل مايمثلها.

من أعظم الموضوعات المتناقضة هو مفهوم الحق المقدس للامتياز الملكي ومؤسسة الملكية (بالنسبة إلى الملك وليس للملكة - المترجم) الوراثة. إن أقدم القوانين والأساطير تشير أن شعب ديانة الربة كانوا موجهين على نحو جماعي عفوي، وإن كانوا ربما نظموا من خلال تمرکز معابد الربة. ويحق لنا أن نسأل كيف تم الانتقال من ديانة الربة إلى حق الملكية المقدسة المستمد من إله ذكر - الملكية التي نعرفها اليوم.

الفصل السادس

لو لم يبك الملك

حتى في الأحقاب النيوليثية والتاريخية القديمة يبدو أن من الممكن في كثير من المدن والمستوطنات أن ينصب شخص ما على العرش بموجب حق مقدس، كما تزعم الملكيات الباقية في العالم حتى في هذه الأيام. والفارق الكبير هو أن الحق المقدس كان يدعمه إله ذكر، ولكن عن طريق الربة. ويدل البرهان الوثائقي والميثولوجي أن هذا الحق، أكثر من كونه يوهب لذكر، كان أصلاً للمرأة، الكاهنة العظمى للربة، التي حصلت على هذا المركز بسبب عادة السلالة الأمومية. وهذه المرأة التي تقوم بدور الكاهنة العظمى للربة قد تعتبر أيضاً ملكة أو حاكمة قبيلة وكانت هذه هي الحالة في كيريم حيث تصبح الكاهنة العظمى، كما يقول فريزر، رأس الدولة على نحو أتوماتيكي.

تراتب هذين الدورين، دور الكاهنة العظمى ودور الملكة، يتكرر كثيراً في العصور التاريخية القديمة في ألواح ونصوص الشرق الأدنى. كثير من الكتاب، وربما باستخدامهم مجتمعنا ذا الاتجاه الذكوري نمطاً، عكسوا السبب والنتيجة، فأشاروا أن المرأة عندما أصبحت ملكة حصلت أيضاً على لقب الكاهنة العظمى، وهو مركز، كما يفترضون، ناجم عن زواجها بالملك. ولكن الدليل، كما سوف أشرح يشير إلى أن الأسلوب كان معكوساً، ذلك أن الإشراف الأعلى والأكثر قدسية للإلهة الأنثى في أقدم العصور هو أساس مفهوم الملكية.

وكما أشرنا من قبل تبدو معابد الربة في الأحقاب النيوليثية والنحاسية أنها جوهر المجتمع، يتضح ذلك من ملكية الأرض وقطعان المواشي ومعظم الملكية الأمومية. كان هذا هو الوضع حتى العصور التاريخية القديمة لانا وبيت السماء ومعبد الربة إينانا في أريك.

يكتب مورتيغات أنه «قراءة عام ٣٠٠٠ قبل المسيح في أوروك (أريك)، وركاء الحالية، المكان المقدس لإينانا، ربة السماء السومرية، شيد مجمع من الأبنية التي تعد

حتى اليوم من بين أروع الأعمال المعمارية، وهي في حالة جيدة من الصيانة». أثبتت الاكتشافات في أريك بابل أن مجمع المعبد في إينا الموجود سابقاً قبل عام ٣٠٠٠ قبل المسيح، مركز منظمة اقتصادية واسعة. وطبقاً لسدني سميث، أستاذ أركيولوجيا الشرق الأدنى «... في سومر يدير المعبد كل نشاط أساسي، ليس فقط في القضايا التي تعتبر عملاً دينياً دائماً، بل أيضاً في النشاطات المدنية للحرفيين والتجار والاستثمار الزراعي للمزارعين والرعاة ومقتني الدواجن وصيادي الأسماك وزارعي الثمار».

في العصور النيوليتية والتاريخية كانت اتنو، اسم الكاهنة العظمى في سومر، وتاواواناس، اسم الكاهنة العظمى في الأناضول، ومن يقابلهن في المناطق الأخرى القادة الاسمين لمجتمعات المعبد. إن المركز الكهنوتي للسيدة المقدسة وهي إحدى الهبات التي شكا منها أنكي ونقلته إينانا من أريدو إلى أريك، قد يعود إلى هذا الوضع تماماً.

ولكن لا علاقة للقائد الاسمي بالملكية. والحقيقة أن هناك عدة وثائق وأساطير تدل أن مجتمعات عبادة الربة النيوليتية والتاريخية كانت تحكمها جمعيات مؤلفة على الأرجح من أعضاء المجتمع المسنين. جاء في أحد ألواح ماين النهرين أنه «تحت إرشاد إينانا في أغادي قدمت نساؤها المسنات ورجالها المسنون استشارة حكيمة». فكبر السن هو هبة أخرى من هبات الحضارة التي قدمتها إينانا إلى أريك. ويكتب غورني أن الحائنين قبل وصول الحثيين «كانوا منظمين تنظيمياً إلى حد بعيد في عدد من الإدارات المدنية المستقلة وكل مدينة تحكمها هيئة من المتقدمين في السن». حتى في عصر الحثيين تصف النصوص مجموعة عرفت باسم النساء المسنات كن يشغلن مراكز نبوية وإرشادية وكن أيضاً يمارسن التطبيب الذهني والجسدي.

وقد أثر البروفسور نور كليد جاكوبسون في جامعة شيكاغو في كثير من الأركيولوجيين والمؤرخين الآخرين حول هذا الموضوع. ونظريته القائمة على حقيقة أن الأساطير السومرية القديمة تتضمن كلاً من الآلهة الإناث والآلهة الذكور في الجمعيات صاحبة القرار في السماء، تدل أن مساهمة النساء في القيادة تعكس تماماً المجتمعات التي كتبت الليجنندات، فالنساء والرجال يساهمون في حكومة المجتمع. ويمكننا اعتبار مفهوم الوحدانية، الذي يقدم لنا على أنه نمط من الدين الأكثر حضارة وتعقيداً يعكس الأيديولوجيات السياسية التي حصرت كل السلطات في يد شخص مهيمن، بينما التعددية، وبالأخص كما برزت في صورة الجمعيات المقدسة، ترمز إلى موقف عامي في المجتمعات التي تطورت واتبعت هذا النمط من التفكير اللاهوتي.

لا توجد معطيات محددة عن العلاقة بين الكاهنة العليا وتلك المجموعات من المسنين وإن كان «تحت إرشاد إينانا» قد يشير إلى الدور الذي لعبته كاهنتها العليا. وانطلاقاً من السجلات الميثولوجية عن الربة (مع الفهم أن الكاهنة العليا تمثل تجسدها على الأرض) فإننا نعرف على صورة ليس لامرأة احتفالية ولا لامرأة تتخذ زوجاً دائماً، كما فعلت الملكات في مراحل تاريخية، وإنما على امرأة تختار عاشقها أو أزواجها سنوياً مادامت تحتفظ بالمركز الدائم للمقام الأعلى لنفسها.

إن رمزية أزواجها السنويين الشبان، الابن الميت/ عاشق الربة، تحصل وتكرر في ليجندات ديانة الربة المسجلة على الأرجح في الأحقاب النيوليثية والتاريخية القديمة. إنه موجود في معظم الليجندات القديمة لسومر ومصر واستمر في كل الأحقاب التاريخية للشرق الأدنى حتى القرون الأولى للمسيحية، التي قد تكون احتفظت من الدين القديم بالحزن السنوي على موت المسيح.

وقد اكتشف السير جيمس فريزر، مؤلف «الفصل الذهبي» هذا الموضوع ودرسه بتوسع وعمق أكثر من أي باحث آخر في الدين المقارن. ومع أن بعض استنتاجاته ونظرياته كانت موضع مساءلة كتاب متأخرين، فإن الكتلة العظمى للمادة في مجلداته الإثنى عشر تقدم حتى اليوم أكبر كمية من المعلومات القيّمة - وربما الأهم صلة بالموضوع - ما تزال تطرح بعض النقاط الهامة. فموضوع الموت السنوي للابن/ عاشق الربة يفيدنا هنا لأنه يبدو نشأ مباشرة من الطقوس والعادات الأصلية للديانة الأنثوية القديمة. إنه يرمز إلى ممارسة من أعظم الممارسات القديمة المسجلة - التضحية الطقسية بالزوج «الملك» السنوي الذي تقوم به الكاهنة العليا.

عدة وثائق عن قبائل في إفريقيا تصف الملكات اللواتي يقين عازبات، بينما اتخذن عشاقاً من درجة أقل. سجلات من نيجيريا تفيد أن ذكراً من الذكور يظل زوجاً للملكة حتى تجدد نفسها حبلى، فتقوم مجموعة من النساء بشنقه - فقد أدى مهمته الأرضية.

وثائق عديدة، ليجندات وشذرات من نصوص وصلوات تشير أن هناك ممارسات مشابهة في معظم ثقافة عبادة الربة في الشرق الأدنى، مع تعديلات مختلفة قليلاً تعتمد على المكان والتحويلات التدريجية التي جرت عبر السنين. ولا جدوى من طرح أي تعميم حول ماذا جرى ولماذا جرى، مادامت المعلومات في كل ثقافة نوعية لن تدعم هذا التقرير الفضفاض. ومع ذلك توجد قطع من الأدلة في كل مكان تدل أنه

في الأحقاب النيوليثية وربما حتى في الأحقاب التاريخية القديمة كان زوج الكاهنة العليا يلقي موتاً عنيفاً، بينما تبقى هي لتقيم الحزن.

إن المادة مأخوذة من ثلاثة خطوط منفصلة من الأدلة. الأول يشتمل على سجلات الاحتفالات الفعلية التي تصف زواج الزوج بالكاهنة التي تدعّمه بالمركز الذي سمي فيما بعد الملكية (نسبة إلى الملك - المترجم) والثاني وثائق الطقوس التي استخدمت في العصور التاريخية بدلاً عن الضحية الأصلية: بدائل بشرية واغتصاب وصور وضحية حيوانية. والثالث هو معظم الأوصاف التفصيلية التي تقدمها الليجنندات التي رافقت تلك الطقوس البديلة، فهي في اللحظة الاحتفالية الخاصة تقدم الشرح الثيولوجي والعمل الرمزي المتخذ.

وتدل هذه العادة أن الكاهنة العليا، باعتبارها تجسيداً للربة، تختار عاشقاً، والأرجح أنه فتى أصغر منها، مادام يشار إليه على أنه ابن الربة. وثائق كثيرة تخبرنا عن الاتحاد المقدس الذي يتم بينهما، ويشار إليه عادة باسم هيروس غاموس أي الزواج المقدس. هذا الزواج المقدس أو الاتحاد الجنسي يعود إلى الأحقاب التاريخية في سومر ومصر وبابل وحتى اليونان الكلاسية. وبعد الاحتفال الجنسي يقوم الفتى بدوره كزوج الكاهنة. لقد كان «الملك».

يكتب البروفسور سميث «أن الاستنتاج الذي لاخلاف حوله هو أن طقس الزواج المقدس يرجع إلى العهود القديمة البعيدة، وهذا هو السبب في دخوله في عبادات آلهة مختلفة متميزة... وتبدو طبيعته السنوية مرتبطة بتعيين الملك سنوياً». ويصف بوتوروث وضع الذكر الذي يرتبط بالكاهنة العليا في المنطقة الإيجية فيخبرنا أن «الوصول إلى المقدس كان من خلال الملكة».

إن الاتحاد الجنسي المقدس مع الكاهنة العليا منح الزوج الذكر وضعاً امتيازياً. وطبقاً لما يقوله البروفسور ساغس أنه في سومر وبابل في الأحقاب التاريخية تحدد الربة بعد الزواج المقدس مصير الملك للسنة القادمة. لكن في الأيام الأكثر قدماً كان مركز الملكية أبعد من أن يستمر. فالذكر المختار يمارس حقوقه الملكية لفترة معينة من الزمن. وفي نهاية هذا الزمن (ربما سنة تبدأ من الاحتفال الذي يجري سنوياً، ولكن تدل السجلات الأخرى على فترة أطول في مناطق معينة)، عندئذ يضحي طقوسياً بهذا الفتى.

في عام ١٩١٤ كتب سيتفن لانغدون أن «الشخصيات المقدسة لتموز وأدونيس

وأوزيريس تمثل مبدأً ثيولوجياً وهو تجسيد الأفكار الدينية التي كانت توضح باتخاذ شكل أكثر ملموسية. فليس الابن المقدس هو الذي يهلك في الأمواج، بل ملك بشري كان يذبح...».

في عام ١٩٥٢ وصف تشارلز سلتمان من جامعة كامبردج الوضع بهذه الطريقة. «كانت الربة العظمى دائماً فاتقة والأسماء الكثيرة التي كانت تطلق عليها لم تكن إلا اختلافاً في الألقاب التي تضافى عليها في أماكن متنوعة. ليس لها زوج نظامي وإنما هو صديقها، عشيقها الشاب الذي يموت أو يقتل في كل خريف وكان يجده في البحث كل ربيع فيعود إلى الربة، كشهم جديد قد يُخذ كل عام ليعاشر الملكة الأرضية».

في عام ١٩٥٧ كتب روبرت غريغز عن قتل الملك طقوسياً كما تبدى في اليونان ما قبل الهندوأوروبية، فشرحه على النحو التالي «إن تريال نيف تختار على ما يبدو عاشقاً سنوياً من شبان حاشيتها الفتيان، ليكون ملكاً يضحى به في نهاية العام... فالملك المقدس يستمر في مركزه عن طريق حق الزواج بتريال نيف... وفي مقدمته لكتابه «الأساطير اليونانية» يشرح نظرياته حول كيف كانت الملكية في إقليم إيجيا مؤسسة دائمة، أما باعتبارها تمديداً تدريجياً للسنة إلى سنة طويلة فقد أدخله الآخيون من الهندوأوروبيين الغزاة في القرن الثالث عشر قبل المسيح، وفيما بعد تأسست الملكية الدائمة على يد الدورين الهندوأوروبيين قرابة عام ١١٠٠ قبل المسيح. كل من فريزر وجيمس يقدم قبائل شيلوك في النيل الأعلى كمثال مشابه. في عام ١٩٣٧ يكتب البروفسور جيمس قاتلاً «كانت العادة في هذه القبيلة حتى العصر الحديث أن يدفع الملك إلى الموت حالما تظهر شارات ضعف صحته ورجولته. ولذلك فإنه حالما يعجز عن تأمين العواطف الجنسية لزوجاته، فإن من واجبه أن يعلمن المسنين بالحقيقة، فتتخذ الإجراءات لقتله وتعيين خليفة قوي يحكم بدلاً منه». وقد وضع فريزر كنعان وقبرص وقرطاج في لائحة واحدة كمناطق ظهرت فيها الدلائل الواضحة في الأزمنة القديمة عن قتل الملك. ويتفق فريزر ولانغدون وسيلتمان وغريغز وكثير من الباحثين الآخرين أن الليجندة كانت تمثل وأن الذكر الذي يقتل كان الملك المؤقت للمدينة، الشاب الذي لعب سابقاً دور الابن/ العاشق في الاتحاد الجنسي المقدس.

معظم الباحثين الذين ناقشوا التضحية بالملك اعتبروا ذلك طقساً خصوصياً، والدليل أن بقاياها تنثر فوق الحقول المبلورة حديثاً. ومع أن هذا أصبح عادة في المراحل المتأخرة، فإن ليجندة من ليجنديات العهود القديمة المسجلة (وهي عن الربة إينانا كتبت بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح بوقت قصير) والأرجح أنها سجل مكتوب عن أساطير وأفكار

دينية أقدم، قدمت لنا دافعاً مختلفاً. ففي هذه الليجنطة تحصل التضحية بالزوج عندما لا يعود رغباً في الإذعان لرغائب وأوامر وسلطة الربة. وقد يكشف هذا السجل القديم الأصول القديمة جداً لأسباب موت الزوج الذكر. وفيما بعد صارت أفكار الخصب أو التطهر من الخطايا بالتدريج تجسداً لعادة من أجل ضمان أو تفسير استمراريتها.

إن التفسير المقبول للتضحية بالملك كطقس خصوبي كان على الأرجح نتيجة حقيقة أن كل الليجندات المتاحة حتى الآن تروي حزن الربة على موت ابنها/ عشيقها. فقط بعد اكتشاف وحل الشذرات الأخيرة لليجنطة السومرية التي أضافت معلومات أنه مع أن إينانا حزنت على الموت، إلا أن ذلك حصل نتيجة غضبها من غرور الفتى، صرنا في موقف التساؤل عن المعنى والأسباب الحقيقية لهذا الطقس القديم ورحنا نراجع تلك التفسيرات المقبولة من الأغلبية.

من الأجدي أن نتحن السجلات العديدة للزواج المقدس أو الابن/ العاشق باعتباره ملكاً وموقف الكاهنة العليا، في العديد من ثقافات الشرق الأدنى، حتى نحصل على فهم أعمق للعادة كما عرفت أصلاً بدراسة تعديلاتها المختلفة في المراحل التاريخية التي أعقبت الغزوات الهندوأوروبية.

سومر - الأزواج العاشقون لإينانا:

في السجلات السومرية عن إينانا وتموز (وهنا يحدد كاتبها الحقيقي) نعلم أنه بعد أن «يثبت نفسه» في مخدعها حددت له مستقبله فجعلته «راعي الأرض». ومع أن هذا الموقف هو موقف رمزي كأبي موقف هام، فإننا نتذكر أنه كان يوجد قطعان ضخمة من الحيوانات التي تملكها وتصونها هيئة المعابد وقد يكون اللقب أصلاً وصفاً لدوره الفعلي. فالابن/ العاشق الأصلي كراع يظهر في النسخ الكثيرة للقصة في شتى المناطق كما يدل على علاقة الابن/ العاشق الأصلي بالعبادة الأخيرة ليسوع.

ولكن مهما كانت طبيعة الموقف فإن الليجنطة السومرية تخبرنا أنه عندما كانت إينانا تبحث عن بديل عنها في ديار الموتى تفاضت عن خادمها الخاص لأنه كان موالياً لها خدمها بإخلاص، وتفاضت عن إله صغير لأنه انحنى لها حالماً سألته، ولكنها اختارت ابنها/ عشيقها دموزي الذي تجرأ بكل مسرة أن يتسلق عرشها أثناء غيابها وتصرف بطريقة وقحة لدى عودتها. فموت دموزي السومري الأكثر قدماً لم يكن بمحض المصادفة. لقد مات بناء على أمر من إينانا.

إن الوثائق السومرية تكشف أن أصول الملكية في سومر بدأت مع موقف «أن»

الذي يعرف بأنه كان كاهن الربة وزوجها، والأنية حلت محلها فيما بعد الأنسية التي يبدو أنها صارت تقدم المزيد من السلطات الدنيوية. ومنصب الأنسي استبدل بلقب ومركز عرف بكلمة لوغال التي تعني حرفياً «الرجل الهام» ولكن جرت العادة أن تترجم إلى كلمة ملك. هناك كلمة قديمة أخرى هي موكاريب ترجمت أيضاً إلى كلمة ملك مع أنها تعني حرفياً «حامل التقدّمات». ويشرح ساغس أن الأنسي كان في الأصل يختار، والأرجح في أيام الحرب، ولكن قرابة نهاية الألف الثالث صار هذا المركز وراثياً. ويعلق البروفسور سدني سميث أن الوثائق التي تصف الاستخدام الواسع لقدسية المتنبّي ورؤياه تكشف أنه حتى بعد أن صار دور الملك دائماً «لاملك يعمل طبقاً لحكمه وحده».

ويبدو أن مركز الملك كقائد تأسس في مرحلة تذكرنا بها السجلات المكتوبة التي ظهرت عن ذلك الزمن. ففي ليجنדה من أوائل الألف الثاني عن أنانا نقراً «في ذلك الزمن لم يكن ثمة تاج يوضع على رأس... في البدء لم يكن ثمة إدارة ملكية لشعب الربة، ثم هبطت الملكية من السماء». لكن هذه الملكية كما دلت السجلات التي وصلتنا عن شعب عبيد وشمسوحور في سومر ومصر، وقد وصلت بزورق شراعي وليس بسفينة فضائية.

يخبرنا البروفسور صموئيل نوح كيرير، السومريولوجي البارز أنه في الأحقاب التاريخية لسومر:

«كان الطقس الأهم للسنة الجديدة هو الهيروس غاموس، أي الزواج المقدس بين الملك الذي يمثل الرب دموزي وإحدى الكاهنات، التي تمثل الربة إينانا... وتظهر الفكرة أن ملك سومر، ولاعبرة لمن يكون أو من أي مدينة أصله وفصله، يجب أن يصبح زوج ربة الحب واهبة الحياة، أي إينانا الأريكية... فملوك سومر عرفوا بأنهم «أزواج عشاق» لإينانا في الوثائق السومرية منذ زمن اثميركار (قرابة ٢٦٠٠ قبل المسيح) وحتى مابعد أيام سومر، ماداموا يتوحدون سرانيا بدموزي».

ويصف البروفسور كرومر دور كاهنة إينانا على أنه كدور «الشريك المهيمن» ويشرح بأنها هي التي تجعله ملكاً، وليس هناك طريقة أخرى، إذ تحضر عشيقها إلى بيتها الخاص وهي التي يطلب منها كملكة السماء أن تسمح له بأن يتمتع أياماً طوالاً في حضنها. كما أن البروفسور هنري فرانكفورت استنتج أيضاً أن «اعتماد الملك على الربة في الزواج المقدس شيء مؤكد. فنصوص اسين لاتدع مجالاً للشك أن المبادرة

تكون منها». كل ملوك اسين، مدينة سومر التي ازدهرت بين ٢٠٠٠ و ١٨٠٠ قبل المسيح، يتحدثون عن أنفسهم كـ «الزوج العشيق لإينانا».

أيضاً تشير ألواح حكم شوسين قرابة ١٩٨٠ قبل المسيح إلى الدور العدواني لإينانا في الزواج المقدس. فنحن نقرأ حوارها «يا عريسي دعني لأطلقك. ملاطفتي النفيسة أحلى من العسل، فدعني في المضجع أتمتع بجمالك الطيب».

عندما خاض انيركار (وهو أنسي في أريك) معركة ضد ملك أراتا انتصر فيها. عندئذ قال له ملك أراتا «أنت عشيق إينانا فأنت وحدك الممجد. فعلاً إن إينانا قد اختارتك لحضنها المقدس». لوح آخر يخبرنا «إلى إيناتوم، أنسي لاغاش (قرابة ٢٢٠٠ قبل المسيح) قدمت إينانا، نظراً لعشقها له، ملكية كيش بالإضافة إلى أنسية لاغاش».

ونقرأ في نصوص عن شولغي، ملك الأسرة الثالثة في أور (قرابة ٢٠٤٠ قبل المسيح) أيتها الربة إليك سوف أقيم الشعائر التي تؤلف ولأني لك. سوف أنجز لك النموذج المقدس». وفي هذه الألواح نفسها، التي هي على ما يبدو حوار مكتوب لأدوار في الدراما الاحتفالية المقدسة عن الهيروس غاموس، فتقول الربة العليا لإينانا عن شولغي «عندما يمارس الحب معي في مضجعي فأني بدوري سوف أبدي حبي للسيد وسأجعل له مصيراً جيداً، سأجعله راعياً على الأرض».

هناك اسمان آخران للربة في سومر كل واحد (حسب الأماكن المختلفة) يصفها بأنها أم إينانا، يشيران أيضاً إلى ارتباطها بهذه العادة. أحد النقوش يخبرنا عن الربة نينماه (الربة الأم) «ترفع» ريم سين إلى الملكية قرابة عام ١٨٠٠ قبل المسيح في لارسا. ووثائق عن أربعة من ملوك سومر سجلت أن الربة المعروفة باسم نليل تأتي بهم إلى كوخها دائماً - وهذا يعني أن اتحاداً جنسياً مقدساً قد تم بين الملك والمهيا والكاهنة العليا للربة. ويكتب البروفسور سدني «تبين السجلات الخاصة باحتفالات نليل أن المناسبات التي يحضر فيها ملك سومري وأكادي إلى الكوخ تحدد تأسيس سلالات مختلفة».

في بداية حكم لبيت - عشتار قرابة عام ١٩٣٠ قبل المسيح، كانت أخته الكاهنة العليا في أور. ولكن عندما غزت مجموعة أخرى من الناس هذه المدينة، اشترك اسمها مع اسم ملكهم. تقريباً في هذا الزمن، وحتى في زمن اميركار كانت العادات القديمة تستخدم لتبرر نتائج المعارك والاجتياحات العسكرية، فالزواج بالكاهنة العليا كان يستخدم للحصول على شرعية للعرش في عيون الناس. ويكتب سدني سميث عن «المركز السياسي الاستثنائي للكاهنة». يصف لبيت - عشتار والمرأة التي عرفت على

أنها أخته فيقول «إن الحادثة كلها توضح الأهمية السياسية لتلك التعينات... فالتعيين المتقطع للأميرات أور، عندما اضطرت المدينة أن تعترف بحكم رجال ليسوا من منشأ جنوبي، يرجع إلى دوافع سياسية على نحو واضح».

وكما أوضحنا في الفصل السابع يبدو بعد تعاظم قوة اتباع أنكي وإنليل، أن الكاهنة العليا كممثلة للربة قد خسرت قسماً كبيراً من امتيازاتها، ولكن ترك لها دور منح الملكية، وهي من العادات الأمومية التي ظلت تكرم. إن المركز الفعلي للكاهنة العليا في هذه المرحلة يدعو إلى التساؤل. فنحن نعرف من السجلات أن الكثيرات منهن كن بنات أو أخوات أو أمهات الملوك الذين كانوا في السلطة. فسجلات عصر حمورابي تبين أن أخته كانت كاهنة ناديتو مما يدل أن الكاهنة العليا قد ارتبطت بهذه المجموعة التي يبدو أنها تنظم الشؤون العملية في المعابد والأرض المشتركة.

بابل - هي التي تمسك مقاليد الملوك:

في بابل من القرن الثامن عشر حتى القرن السادس قبل المسيح، التي أعقبت سومر كقوة عظمى في بلاد ما بين النهرين، كانت الربة تعرف باسم عشتار. كانت نسخة أكادية من إينانا وكانت مبعجة مثل عشتار حتى في معبد أريك. موت ابنها/ عاشقها الذي عرف في سومر باسم دموزي، سمي الآن تموز. ويعلق البروفسور جيمس على علاقة عشتار وتموز فيكتب «كانت الشريك المهيمن في هذا التحالف، لأنه عندما صار ذا علاقة وثيقة بعشتار في أسطورة تموز، كان ابنها كما كان زوجها وأخاها، ف دائماً يخضع لها باعتباره الإله - الشاب».

إن مزايا وليجنيدات إينانا وعشتار متشابهة حتى أن كثيراً من الكتاب يتحدثون عن الربة إينانا/عشتار. ولكن توجد اختلافات معينة في الليجنيدات، توجد انتقالات ربما تعكس التغير في المواقف عبر قرون نتيجة غزوات كثيرة مستمرة وناجحة للهندوأوروبيين. لانكاد في أي أدب بابلي نعلم أن عشتار سببت حقاً موت تموز الذي جاء أنه حدث بطريقة عرضية مختلفة. إن الليجنيدات تشرح شرحاً عاماً أن تموز مات وأن عشتار حزنت.

ولكن في الملحمة البابلية جلجاميش المبنية على ساغا سومرية لم يبق منها إلا شذرات، ورد اسم تموز في قائمة طويلة للعشاق الذين ألحقت بهم عشتار الأذى عميقاً. وجلجاميش المصنف تاريخياً على أنه أنسي أريك القديم، لم يكن له شرف أن يصبح زوج عشتار وهكذا أضيف إلى القائمة. فالأرجح أن القصة تمثل رفضاً قديماً

لزوج/ ملك أن يتبع العادات والتقاليد ويحاول أن يؤسس ملكاً قوياً دائماً. فطلبه للخلود في الليجنده نفسها يكشف أيضاً هذا كرسالة خفية.

لقد ظهرت قصة جلجاميش في سومر. ولكننا مرة ثانية نقول إننا نشبهه بتأخير أو حضور الشماليين الأيوين، وربما أولئك الذين من أراتا. فاسم جلجاميش قد يكون مرتبطاً بالمدينة الحورية المتأخرة كركاميش، التي كان اسمها القديم كاركاميش. وقصة جلجاميش لم توجد فقط في الأدب السومري والبابلي وإنما أيضاً في النصوص الحورية والحثية أيضاً.

إن اسم جلجاميش مدرج في قائمة أنسيات أريك كأنسي لها، ولذلك يجمع دور «الملك» كزوج للكهنة العليا. وقد جاء اسم أبيه في قائمة باعتباره لوغال باندا الذي وصف أيضاً، وإن كان أنسياً سابقاً لأريك، بأنه راع وبدوي. وفي البداية الأولى للقصة نعلم أن جلجاميش يضطهد أريك «انتزع الابن من الأب وانتزع العذراء من حبيبها. وبعد ذلك نقرأ أنه بصدد حضور وليمة فيها سوف «يخصب امرأة المصير» مما يشير إلى دوره في الزواج المقدس. شخصية أخرى تظهر في هذا الوقت. إنه يعرف باسم أنكيدو، رجل الغابات التوحش. ويعامل أنكيدو بأن يلبس ثياباً فاخرة وطعاماً رائعاً وشراباً ويصاحب القادشتو، المرأة المقدسة في المعبد ويقضي معها الاتصالات الجنسية الأولى.

بعد ذلك بوقت قصير تعرض عشتار الزواج على جلجاميش فتحبزه أنها حدثت بجماله مشتاقة. لكن جلجاميش يعمل ليس وفقاً للدور الذي يفترض أن يلعبه، فيرفض اقتراح الربة. ويعمله هذا يستعرض كل عشاقها الماضين الذين لاقوا مصيراً أليماً وينتهي كلامه بالقول «وأنت سوف تحبينني أيضاً ومن ثم تجعلين مصيري مثل هؤلاء». ومن بين هؤلاء العشاق الماضين يشار إلى تومز كعاشق من أصغر عشاق عشتار. ويظهر اسم دموزي فعلاً مرتين في قوائم ملوك سومر، مرة مباشرة بين لوغال باندا وجلجاميش، ومرة قبل حتى بفترة أقدم، وليس إلا أسماء قليلة بعد علالو، أول ملك على سومر في أريدو. دموزي الثاني، وجلجاميش ظهرا ابتداء من ٢٥٠٠ قبل المسيح تقريباً.

بعد رفض الزواج نشب قتال بين عشتار وأنكيدو وجلجاميش، وفيه أهان الرجلان الربة فقتلا ثورها السماوي ورميا في وجهها عظم فخذة أو الأعضاء الجنسية (إن ذلك يعتمد على الترجمة) ويخاطبها جلجاميش «لو استطعت لكنت فعلت ذلك معك» (أي يقتلها ويرمي بأعضائها الجنسية) ونتيجة لهذه الحادثة يموت أنكيدو، الذي نرجح

أن يكون رمزاً للضحية البديلة. وينجو جلجاميش وفي هذه النقطة يذهب بحثاً عن الخلود، وهنا يعرض قصة الطوفان السومري والناجين منه.

بغض النظر عن الارتباطات المحتملة بين اسم جلجاميش واسم المدينة الحوري المتأخرة كاركاميش، فإن التلميحات التي تظهر منذ البداية أن جلجاميش يضطهد أريك، والحبكة العامة للقصة، ووجود النصوص الحورية والحشية للملحمة ذاتها، وعوامل متعددة أخرى تجعلنا نفترض أن هذه الملحمة قد تكون انعكاساً أيضاً لموقف الشماليين. في قوائم الملوك السومريين يسبق أئيركار مباشرة لوغال باندا، والد جلجاميش. وتكشف عدة ألواح مسمارية أن كلاً من أئيركار ولوغال باندا كانا وثيقي الصلة بأرض أراتا (الأرجح أراتو). وتخبرنا أسطورة عن مصاحبة لوغال باندا لأئيركار إلى تلك المنطقة، وهي رحلة تتوقف عند حادث سري في مكان يسمى جبل حوروم. وكان لأئيركار ارتباطات وثيقة جداً مع معبد أنكي في أريدو، زاعماً أن شعب أراتا أرسل الجزية إلى هناك. فالملك الذي سبق أئيركار هو الذي أسس الأسرة الأولى لأريك. وتخبرنا قوائم الملوك أنه «خاض البحار وصعد الجبال» مما يدل على الأرجح أنه قام بأسفاره قبل الوصول إلى أريك، والأغلب أن يكون وصوله من ديار أراتا. وسجل التمرد ضد عشتار (على الأرجح كما هي ممثلة بالكاهنة العليا) ربما يكون قد حصل في زمن تأسيس الملكية في أريك ثم أضيفت القصة فيما بعد إلى السجلات البابلية لجلجاميش، الذي يبدو أنه صار بطلاً أسطورياً في كثير من القصص الأخرى نتيجة حملاته العسكرية.

ومهما كان الزمن الذي حصل فيه ذلك فإن هذا السجل يرمز إلى حادثة تشبه ديودوروس الصقلي التي جرت معه عند التوبيين في النيل الأعلى. كتب أن ملكاً رفض أن يكون أضحية فذبح جميع الكهنوت الحاضرين وبذلك أعلن لنفسه ملكية أبدية.

وفي العصور البابلية لم يكن الملك يدفع للموت. ومع ذلك وصفت عشتار بأنها ماتزال هي التي تعين الملك «هي التي تهيه سمعته» وفي أحد النقوش لقبت «مستشارة جميع الحكام، هي التي تمسك بمقاييد الملوك» وفي نقش آخر عرفت بأنها «هي التي تمنح الصولجان والعرش وعام الحكم لجميع الملوك». وكتب سرغون الأكادي أحد أقدم ملوك وسط ما بين النهرين (قرابة ٢٣٠٠ قبل المسيح) أن أمه كانت كاهنة عليا، وأن أباه كان مجهولاً. ويقول فيما بعد إن عشتار عشقته «... بعدئذ مارست الملك لسنوات».

في كتاب «طفولة الإنسان» يناقش فروينوس شعيرة التضحية بالملك، فقال موضحاً «من قبل في بابل القديمة تضاعلت هذه الشعيرة، فحالما يدخل الملك في مهرجان رأس السنة الجديدة إلى المعبد يكفني بخلع ثوبه فيذل ويضرب، بينما بديل عنه في السوق ينال كل مجد في الاحتفال، يدفع إلى الموت شتقاً».

مختلف سجلات الاحتفالات التي ظهرت خلال المراحل البابلية تروي لنا عن ذهاب الملك إلى المعبد ليضرب على وجهه، وتخلع عنه مؤقتاً ثيابه وشارة الملك. وتخبرنا نصوص أخرى أن شعره يجز ويتزع عنه زناره، وفي هذه الحالة يرمى في النهر. وعندما يخرج عليه أن يمشي بثياب من خيش عدة أيام رمزاً للحزن. ويلاحظ ساغس أنه توجد بعض الأدلة، حتى من الألف الأول أن الملك لدى موته قد يكون تمثيلاً لتموز الرب الميت (على سبيل الافتراض).

كان هذا تذكيراً رمزياً بالأيام التي كان فيها الزوج/ الملك يلقي مصرعه. ولكن تماماً كما أن جلعاميش استمر في الحياة، بينما أنكيدو مات، كذلك فإن البديل الذي يفقد حياته عندما صارت الملكية في سومر وبابل مؤسسة دائمة ووراثية. وهناك للمباحث إلى التطهير من الخطايا والغفران في هذه الطقوس - وبذلك يكون الملك قد عوقب. ولكن من أجل ماذا؟ يبدو أنه تدريجياً صار العقوبة التي تنفذ بسبب خطايا الشعب، ولكن أليس هذا ناشئاً من العقاب الأقدم لرفضه الإذعان للمملكة الكاهنة؟ وحقيقة أن حسن الحظ سيكون من نصيبه إذا نفرت الدموع من عينيه عندما يضرب، قد تكشف تلك الأصول. ووفقاً للألواح البابلية «إذا لم يك الملك عندما يضرب، فإن فأك للسنه ستي».

مصر - إيزيس تحزن لموت أوزيريس:

يكتب ساغس عن طقس قتل الملك فيقرر أن «هذه الممارسة الأخيرة وقعت بالتأكيد في مصر في عصور ما قبل التاريخ، بينما يناقش بعض الباحثين أنها استمرت في العصور التاريخية». وفي السجلات القديمة لمصر بعد عام ٣٠٠٠ قبل المسيح بوقت قصير كان يضحي بالرجال على «ضريح أوزيريس» الزوج/ الأخ للربة إيزيس. وتخبرنا السجلات أن الرجال الذين يضحي بهم كانوا ذوي لحى حمراء، ربما كما أشرت من قبل نتيجة غزو الشمسوحوريين.

في السلالة الإلهية المصرية كان حورس ابناً لإيزيس. ولدى موته أصبح أوزيريس. ومع أن موت أوزيريس هو الذي يحتفل بذكراه، فإن حورس فعلاً، حورس الابن هو

الذي مات. وموت أوزيريس فإن حورس الجديد يعتلي العرش. وهكذا في الأساطير التراكمية في مصر، حيث كل فكرة جديدة تقتضي إضافتها فإن حذف شيء ما يكون قليلاً، وينخرط كل من حورس وأوزيريس في معركة ضد سيت. فقصص موت أوزيريس لم تكن فقط يقام ذكرها وتمثل تمثيلاً احتفالياً في مصر وإنما كانت أيضاً مرتبطة بكنعان ارتباطاً وثيقاً. بيلوس (جبيل - المترجم) مدينة تقع شمال بيروت قليلاً في لبنان، كانت مستعمرة مصرية أو ميناء تجارياً منذ الأسرة الثانية في مصر التي حكمت بين ٢٨٥٠ - ٢٦٠٠ قبل المسيح ولكن حتى عصر متأخر ١٥٠ بعد المسيح يتحدث لوقيان عن موت عاشق الربة. ويكشف لوقيان أن الطقوس السرية لأدونيس هي ذاتها التي لأوزيريس. وتزعم بعض السجلات أن جسد أدونيس دفن في أفاقا الواقعة على بعد بضعة أميال عن بيلوس، بينما تخبرنا القصة المصرية أن أوزيريس أعادت الجثمان إلى مصر لدفنه، وتصف تفصيلاً مختلف القضايا التي واجهتها وهي تقوم بهذا.

كريت - الرب (الذي يموت عاجلاً بعد زفافه):

تصف هوكس الربة وموت الشاب في جزيرة كريت حيث ازدهرت عبادة الربة الأنثى منذ ما قبل ٣٠٠٠ قبل المسيح حتى وصول الدورين الهندوأوروبيين قرابة عام ١١٠٠ قبل المسيح فرأت «عادة يصاحبها إله ذكر فتي، روح السنة الذي هو زوجها وابنها، والذي يموت ثم يولد ثانية - وهذه نسخة كريتية عن أدونيس. وفي كريت المينوسية كان هذا الإله الشاب خاضعاً دائماً للربة - كان وسيلة لإخصابها فيظهر في مواقف متواضعة وتعبدية».

ويشير ستليانوس الكسيو أن «الزواج المقدس في كريت، اتحاد الربة والرب (الذي يموت عادة بعد زفافه بقليل) يرمز إلى خصب الأرض».

وحتى في العصور الكلاسية كان زيوس الهندوأوروبي يعبد شعب كريت طفلاً مقدساً باعتباره ابناً لأمه ريا. وتخبرنا الثيوغونيا الإغريقية أن الربة ريا خبأت الطفل زيوس من أبيه في كهف كريت. ففي إحدى الليجندات وصفت ريا بكونها «هوجمت جنسياً» من قبل ابنها زيوس، والأرجح أن يكون هذا بقية لما كان شائعاً بينهم قديماً من زواج مقدس. وفي كريت ينظرون إلى زيوس على أنه الابن الميت، وهذا مفهوم رسخه عميقاً الإغريق الهندوأوروبيون في الأرض الأم، الذين أكدوا أن زيوس كان خالداً.

كعنان الشمالية - سيدة الملوك:

في نصوص أوغاريت في القرن الرابع عشر قبل المسيح بنا كثير من السجلات أنه نتيجة تمثل دين الربة للمفاهيم الهندوأوروبية الأكثر جدة، والأرجح أن تكون مشتقة من عدد كبير من الحورين الذين عاشوا هناك في ذلك الوقت. فالنصوص تخبرنا قصة موت بعل، رب جبل صافون. إنها تسجل موت بعل على أنه كان نتيجة معركة مع موت، وهو اسم مجهول، وإن كانت الليجنلة تكشف أن موت كان عدواً يخافه بعل خوفاً شديداً. بعد موته حملت الربة عنات جسد بعل على كتفها لتجد مكاناً تدفنه فيه. وحالما فعلت هذا انتقمت له بقتل موت، وهو حادث وصف وصفاً مفصلاً. ولكن يبدو أن الانتقام بالقتل هو السبب أن بعل كان مسموحاً له أن يعود إلى عالم الحياة. وبعدها طبقاً للأسطورة، ينضم إلى عنات في أحد الحقول ويجثو أمامها مبدياً امتنانه «معجباً بقرني قوتها، تتخذ هي شكل عجلة مقدسة ويتخذ هو شكل ثور في اتحاد جنسي مقدس. وحتى في هذه المرحلة كانت عنات ماتزال معروفة باسم «سيدة السماء، سيدة الملوك».

الأناضول - هي التي تهيمن على الملوك:

لا توجد سجلات بين النصوص الحثية عن الأناضول تشير أن الملك كان يدفع إلى الموت، ربما لأن المادة المكتوبة القديمة التي وجدت هي من انتاج الحثيين الهندوأوروبيين أنفسهم ومع ذلك فإن سون ربة أرينا، الربة الحثية التي يبدو أن الغزاة تبنيوها، كانت ماتزال تعرف في الصلاة على أنها «هي المهيمنة على الملوك في السماء وعلى الأرض». وتصف نصوص الحثيين طقساً تقوم به الملكة أمام ثمانية تماثيل للربة سون يحمل اسم الملكة/ الكاهنة العليا السابقة.

ويكتب غورني «كانت الإلهة القومية العظمى للحثيين هي الربة سون في أرينا، التي تدبر الملوكية (نسبة إلى الملك - المترجم) والملكاتية (نسبة إلى الملكة - المترجم) ولذلك لا يدهشنا أن نجد أن «احتفالاتها المنظمة» كانت من بين الاحتفالات التي كان من الضروري أن يحضرها الملك». ومع أن الدليل ضعيف، إلا أنه يشير إلى العلاقة الكبيرة ذاتها بين كاهنة الربة والملك في تاريخ ما قبل الحثيين.

بعد عام ١٠٠٠ قبل المسيح تقريباً سادت قصص الربة، وعندها كانت تعرف باسم سيبيل ويعرف الفتى بالراعي أتييس، في الأناضول، فعادت ثانية ليجندات بقيت من الدين القديم لدين الربة. نسخ مختلفة عن موت أتييس، ومترافقة في الوقت نفسه

بخصائه، تعيد قصة موت الابن/ العاشق. وما هو هام في سجلات سيبييل وأتيس أن هذه النسخة من دين الربة هي التي دخلت إلى روما بالتدريج. وقد احتفل بها هناك بمواكب ومهرجانات عظيمة حتى عام ٢٦٨ بعد المسيح واعتنق ديانتها أباطرة من أمثال كلوديوس وأوغسطس. ونحن نستطيع أن نخمن تخميناً فقط تأثير هذا على الدين المسيحي حيث تطور هناك في ذلك الوقت. والتقارير الرومانية عن طقوس سيبييل تسجل أن ابنها، وهذه المرة على شكل تمثال شخص، كان يربط إلى شجرة ثم يدفن. وبعد ثلاثة أيام يقال إن نوراً ظهر من القبر وقام أتيس من بين الأموات محرراً العالم بولادته الثانية. وكانت سيبييل دائماً متوحدة مع الربة ريا التي كانت معروفة على أنها أم زيوس، ومن المحتمل جداً في روما ما قبل المسيحية أن أم الإله الميت كانت تعرف باسم ما ريا (Ma Rhea).

قبرص واليونان - طقوس من أجل الراعي الميت:

في جزيرة قبرص كان موت أدونيس يذكر في عبادة أفروديت. وتشرح القصص اليونانية أن الربة اتخذت راعياً شاباً عشيماً لها، وقد وقعت في حب هذا الشاب منذ أن رآته طفلاً لأول مرة. وبعد أن عاشت معه لمدة سنة في غابات التلال القبرصية، ثم تركته - كما تقول الليجنلة - عندما زارت مدينة كورنث، إحدى أعظم مراكز عبادة أفروديت في اليونان الكلاسية. وفي غيابها يهاجم خنزير بري أدونيس فيصرعه. ووصف الميت يظهر أيضاً في بعض ليجندات أوزيريس وأتيس. ومن خلال عبادة أفروديت التي كانت في جزيرة قبرص وثيقة الصلة مع عشتاروت الكنعانية، استمرت طقوس أدونيس الشاب الراعي الميت في اليونان الكلاسية وإن لم يرض عنها رسميو الحكومة الهندوأوروبيون.

إسرائيل - رب ميت اسمه تموز:

في السجلات التوراتية وصفت طقوس موت الابن/ العاشق مرة ثانية، هذه المرة ظهرت بين النساء العبريات اللواتي صلين في المعبد بأورشليم قرابة عام ٢٥٠ قبل المسيح. فنحن نقرأ في سفر حزقيال «فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز» (حزقيال ٨: ١٢) وهناك كن عند جدار المعبد مازلن يقمن باحتفالات الحزن باكيات على تموز.

وكتب البروفسور روبنسون عام ١٩٣٣ عن الموت الاحتفالي لتموز كما جرى في

إسرائيل فزعم «هذا الموضوع درس جيداً في السنوات الحديثة وعموماً جرى الاتفاق (وإن لم يكن إجماعاً) أن الطقوس الذي فيه الرب المحتضر والزوج المقدس والموكب الاحتفالي وجد في إسرائيل».

وأشار البروفسور ويدنغرين أننا «قادرين بذلك أن نؤكد أن هذا الحزن الطقوسي موجود في إسرائيل كما كان موجوداً في بلاد ما بين النهرين بعد موت تموز، وأن هذا المهرجان النواحي كان يحتفل به مع عيد المظال، بعد الاحتفالات اليوبيلية بالزواج المقدس».

الأرباب الخفية والكهنة الخفيان:

يحتمل أنه في مناطق معينة كان أحد الطقوس البديلة التي تحمل محل موت الملك الحالي هو فعل الخشاء، وربما كان هذا الفعل هو الأصل الفعلي للخوف الفانتازي الفرويدي. إن انتزاع أعضاء التناسل الذكرية بدا في عدة ليجنندات أنه إخطار بعزل الذكر الحاكم. وهذه السجلات موجودة في المناطق العامة ذاتها التي تفيدنا أيضاً عن موت الزوج الذكر، وفي بعضها، من أمثال أوزيريس وأتيس، يعتبر الخشاء والموت مرتبطين ارتباطاً وثيقاً جداً.

ارتبطت الميثولوجيا الخفية الهندوأوروبية بقصة كوماري الذي انتزع مركز السلطة من الرب الحاكم السابق أنوا حالما صار كوماري في طبقة رفيعة. إن الميثولوجيا اليونانية استعارت على نحو خاص من تلك القصص الخفية القديمة، فروت لنا كيف خصى كرونوس أباه أورانوس واغتصب مكانه كما أشارت عليه أمه، الربة غايا، ثم خشي كرونوس من أن يفعل به أبناءه ما فعله هو بأبيه، وبعد سلسلة من الأحداث الميثولوجية اليونانية ينتزع فيها ابنه زيوس بالتدريج السلطة ويطيح بأبيه. وكل من القصص الخفية واليونانية إنما هي قصص هندوأوروبية. إن الخشاء هو الحل الهندوأوروبي الأصلي لقتل الملك الطقسي.

كشفت الأسطورة الأناضولية عن الربة إينار أنه ما إن ينام رجل مع الربة (المقصود الكاهنة العليا) فإنه لا يستطيع ثانية أن ينام مع امرأة أخرى، خوفاً من أن يحول إليها القوة المقدسة للربة. وإحدى ليجنندات أتيس تفسر خصاءه الطوعي كردة فعل على خوفه من عدم إيمانه بالربة. فإذا كان من غير المسموح للزوج أن يقيم علاقات جنسية مع أي امرأة بعد أن يكون قد نام مع الكاهنة العليا، فقد يكون الخشاء هو الحل الذي سمح له ليبقى حياً.

عندما قطع جسد أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة على يد سيت الذي يرسم أحياناً على شكل خنزير بري، تصلحه إيزيس عن طريق جمع كل القطع. ولكن طبقاً لأسطورة مصرية نجد أن أعضائه التناسلية قد فقدت نهائياً إذ التهمت أسماك نهر النيل. وكذلك نلاحظ أن الأعضاء التناسلية لأورانوس أيضاً «تبعثرت في المياه». ويبدو أن أتيس الأناضولي قد خصى نفسه في حميا الحب أو الدين أو الخوف من عدم الثقة أو العار أو العقاب الذاتي، كما تقول نسخة القصة. إن جميع الخدم والمساعدين الملكيين في ليجندات عشتار وإينانا وصفوا بأنهم خصيان.

ويظهر عنصر الخصاء، في كثير من السجلات القديمة لديانة الربة. وهناك إشارات متكررة إلى حضور كهنة خصيان في سومر القديمة وبابل وكنعان، وعلى الأخص في الأناضول، حيث تفيد النصوص الكلاسية أن عدد الرجال الذين كانوا يخدمون دين الربة في ذلك الزمن كان يربو على خمسة آلاف في مدن معينة. فالكهنة الخصيان في أناضول العصور الكلاسية كانوا يسمون أنفسهم أتيس.

وهناك اقتراحات قدمت لشرح التصميم الواضح لهؤلاء الرجال على خصاء أنفسهم، وهي عادة قد نجدها غريبة في هذه الأيام. ويدعم هذه التفسيرات مثل الكهنة في ثياب نسائية في كل الشرق الأدنى، وهو اللباس الذي قيل إن الكاهن الخصى يلبسه.

يكتب سستيليانوس الكسيو يرتدي الكهنة والموسيقيون أرواباً نسائية طويلة لها طراز نوعي خاص، وقد أدت هذه الممارسة إلى الظن أنه ربما بسبب التأثير السوري وجدت جماعات من الكهنة المخصيين في القصور الكريتية. وخلال مرحلة متأخرة شكل كهنة سيبييل وأتيس المخصيون في آسيا الصغرى طبقة متماثلة.

ويبدو من الممكن أنهم بدأوا يستحوزون على السلطة كرجال حتى داخل دين الربة، فقد حلوا محل الكاهنات. وربما اكتسبوا هذا الحق بتوحدهم وتقليدهم لحالة خصاء الابن/ العاشق، أو في محاولة لتقليد الأكليروس النسائي، الذي في الأصل يمتلك السلطة، فقد حاولوا تخليص أنفسهم من ذكوريتهم وذلك عن طريق تبني طقوس الخصاء وارتداء ثياب النساء.

في الأناضول وحتى في روما بعد أن يكرس الفتى نفسه للربة يأخذ السكين المقدسة ويقطع أعضائه الجنسية، ثم يركض في الشوارع ويحمل الأجزاء المبتورة، ويرمي هذه الأجزاء في بيت على طريقه، فتقضي العادة أن على سكان ذلك

البيت أن يقدموا له رداء نسائياً فيرتديه منذ ذلك الوقت وما بعد.

يعلق على هذه العادة ج. ر. تايلور في اختصاره لمجلد بريفولت «الأمهات». لقد لاحظ أن «الخطوة الأولى في تحديد وضع النساء كانت انتزاع احتكار الوظيفة الدينية منهن». وقد استنتج غريغز أن الملك كان صاحب امتياز بأن يتوب عن الملكة، ولكن إذا هو لبس ثوبها، وأشار إلى أن هذا النظام كان معمولاً به في لاغاش السومرية.

في بعض مناطق أناضول العصور الكلاسية تبين أن الكهنة الخصيان قد حصلوا تماماً على السيطرة على ديانة الربة. مجموعة ضخمة من الكهنة الخصيان رافقوا التمثال وطقوس سييل عندما دخلت إلى روما لأول مرة. ويمكن لنا أن نتأمل أثر هذا وتأثيره على الدين المسيحي المتشكل جديداً، وعلى عادة التبتل بين الكهنة، التي ما تزال موجودة في قوانين الكنيسة الكاثوليكية.

لقد قضت قوانين العبرين القدماء أن الرجل إذا كان بلا قضيب لا يعتبر عضواً في رعايا الدين. «لا يدخل مخصي بالرض أو محبوب في جماعة الرب» (تثنية ٢٣: ١). ومن المهم الإشارة أن التوراة تزعم أن الميثاق الأساسي الذي أعطاه يهوه هو القيام بعملية الختان. وهذه العملية يجب أن تتم لجميع العبرين الذكور عقب الولادة بفترة قصيرة جداً. ومع أن الكتاب في المجتمع المعاصر فسروا ذلك بإجراء صحي وقائي ضد الأمراض التناسلية، فإنه يرجح أن يكون وسيلة لتأكيد «ذكورة» العبرين العابدين للذكورة من «أنوثة» أولئك الذين انضموا إلى دين الربة؟.

خلاصة:

الزوج الشاب المخصي و/أو الميت، هو أثر من العصور التي كانت فيها الكاهنة العليا تمارس الحق المقدس على العرش، تجاهله أو أساء فهمه الكتاب الذين ركزوا اهتمامهم في منطقة جغرافية واحدة أو مرحلة زمنية واحدة وعجزوا عن فحص الانتقال التدريجي من تفوق الإلهة الأنثى وكاهناتها إلى القمع التدريجي وطمس هذه العقائد.

وأحياناً يكون سوء الفهم بسبب الانفصال عن كل الأدلة الوثائقية. في عام ١٩٦٤ مرّ ليو أوبنهايم بأقل من سطرين مروراً سريعاً بالربة التي أول ماعبدت في سومر كالإلهة كبرى للغة المكتوبة، ثم انطلق ليكتب خمس صفحات بكاملها في شرح نظريته أن كلمة عشتارو هي مفهوم تتضمن القدر أو مصير الحياة، ثم جسدها الرجال فيما بعد

بالربة عشتار. ويؤكد أن هذا بدوره يفسر لماذا كانت الربة دائماً توصف بأنها «هي المعتنية وينبوع سلطة الملك وسمعته». ولكن كتلة الدلائل الضخمة أوضحت أن عشتار وكذلك النسخ الأخرى للربة في الشرقين الأدنى والأوسط وصفت بأنها «نبع سلطة الملك وسمعته» لأنها كانت تتطلب حقاً أن يصبح الملك الزوج الجنسي للكهنة العليا، المجسدة للربة على الأرض، التي تمسك بمقاليد حقوق العرش الملكي من خلال السلالة الأمومية.

لقد اختفت عادة القتل الطقسي للملك حالما حققت القبائل الأبوية السيطرة. وربما استخدمت النسخ الكثيرة لليجنده جلجاميش في مختلف اللغات، من أجل هذا الغرض. لقد غدت الملكية الدائمة هي القاعدة حالما حقق الإله المذكر التفوق، ودور المحسن بالحق المقدس للعرش انتقل إليه تدريجياً، وهو مفهوم حقوق الملكية الذي مايزال حتى في هذه الأيام.

ثمة شيء من الشك أن العادات الأصلية لقتل الملك قتلاً طقوسياً، والمركز السياسي للكهنة العليا، تمثل عقبة كبرى أمام رغبة غزاة الشمال في حيازة الملكية الدائمة والسيطرة الكاملة على الحكومة. ولكن نقطة ثانية من المواجهة، وربما لانتقل عن ذلك أهمية، تقودنا في الفصل التالي إلى تفسير أعمق للمواقف والأنماط الثقافية التي أحاطت بالجنس وأعيد إنتاجها في ديانة الربة، وسمحت بل حتى شجعت نظام القرابة الأنثوية على الاستمرار.

الفصل السابع

العادات الجنسية المقدسة

«الكنعانيون عرفوا من خلال العهد القديم على أنهم العنصر الأكبر في سكان فلسطين الذين طردتهم إسرائيل في احتلالها لـ «الأرض التي تتدفق لبناً وعسلاً». بكل سخط وتعميم واسع احتقر الأنبياء العبريون والمصلحون ومحررو العهد القديم الكنعانيين ووصموهم بالعار. وسبب الإدانة ترجع إلى أنهم يتهافون على العهر مثل بعليم وعشترت، وهذه من مظاهر عبادة آلهة الخصب الكنعانية، التي مسخوها بالإشارة إلى جانب واحد منها فقط وهو الإباحة الجنسية...».

هكذا علق البروفسور جون غراي في كتابه «الكنعانيون» الذي أصدره عام ١٩٦٤. هذه «الإباحة الجنسية» التي نسبت إلى الكنعانيين تشير إلى العادات الجنسية المقدسة في الدين القديم، وقد كانت هذه العادات موجودة في كثير من المناطق الأخرى للشرقين الأدنى والأوسط.

وفي العصور التوراتية كانت مازال سارية كما كانت منذ آلاف السنين في سومر وبابل وكنعان، لأن كثيراً من النساء كن يعشن داخل مجمع المعبد، نواة المجتمع في الأزمنة السحيقة. وكما رأينا فإن المعابد كانت تملك الكثير جداً من الأراضي الزراعية والقطعان الوفيرة من الحيوانات الآهلة وهي التي تحتفظ بالسجلات الثقافية والاقتصادية ويبدو أنها تعمل باعتبارها المراكز الأساسية المهيمنة على المجتمع. فالنساء اللواتي يقمن في الأرباض المقدسة للجدلة الإلهية يتخذن عشاقهن من بين رجال المجتمع. فيمارسن الحب مع أولئك الذين يأتون إلى المعبد ليقدموا التكريم للربة. وهؤلاء الناس كانوا يعتبرون الفعل الجنسي مقدساً وعظيماً ولذلك كان يمارس في منزل خالقة السماء والأرض وكل ماهو حي. وكمظهر من مظاهرها الكثيرة كانت الربة تقدس باعتبارها إلهة كبرى للحب الجنسي.

بعض الأركيولوجيين يفترضون أن تلك العادات الجنسية للمعابد التي برزت وتكررت في دين الإلهة الأنثى خلال المراحل التاريخية القديمة في الشرقين الأدنى

والأوسط، يجب أن ينظر إليها على أنها نمط من السحر الرمزي البدائي لتحريض الخصب في القطعان والنباتات كما في البشر أيضاً. وفي رأيي أنها تطورت نتيجة الوعي القديم جداً وفهم علاقة الجنس بإعادة الإنتاج. وبما أن هذا الارتباط لوحظ أولاً في النساء فقد دخل في بنية الدين كوسيلة لضمان النسل بين النساء اللواتي اخترن الحياة والاهتمام بالأطفال داخل مجمع المعبد، وكذلك يحتمل أيضاً أن يكون طريقة لحبل منظم.

فمفهوم إعادة الإنتاج موضح بالصور في رقيم حجري رمادي اكتشف في معبد نيوليثي للربة في كاتال حيوك، نقش هناك منذ ثمانية آلاف سنة مضت. أحد جوانب الأثر يرسم جسدين لعاشقين في عناق حميم، وفي الجانب الآخر رسم امرأة تعتنى بطفل.

والناس اليوم الذين ربوا وتبرمجوا على «أخلاقية» الأديان الذكورية المعاصرة قد يجدون الأوضاع والعادات الجنسية القديمة صادمة أو حتى دنسة. فلا بد أن نعتبر أمثال هذه المحاكمات أو ردود الفعل نتيجة تعاليم وشروط الأوضاع الدينية الحالية في مجتمعنا، التي هي نفسها قائمة على أيديولوجيات أولئك الذين أدانوا العادات الجنسية للربة.

في عبادة الإلهة الأنثى، كان الجنس هبة منها للبشرية. لقد كان سرانياً ومقدساً. كانت ربة الحب الجنسي والتناسل. لكن في أديان اليوم نجد الوضع مقلوباً عكسياً تقريباً. فالجنس وعلى الأخص الجنس غير الزوجي يعتبر بديهاً قذراً، بل حتى يعتبر خاطئاً. ناهيك عن دعوة الأديان القديمة التي تبني موافقة صريحة على كل جنسية بشرية «عبادات الخصب» فإننا نعتبر الأديان الحالية غريبة في ربط العار وحتى الخطيئة بعملية الحمل بحياة إنسانية جديدة ربما بعد قرون من الآن يقوم المؤرخون والبحاث بتصنيف هذه الأديان تحت عنوان «عبادة العقم».

أدلة وثائقية من سومر وبابل وكنعان والأناضول وقبرص واليونان وحتى في التوراة تبين أنه على الرغم من أن الزواج كان معروفاً في أقدم السجلات المكتوبة استمرت النساء المتزوجات مثل المرأة المفردة في العيش لفترات من الزمن داخل مجمع المعبد مثبتات العادات الجنسية القديمة للربة. والتوراة نفسها تكشف أن هؤلاء النسوة كن حرائر في المجيء والذهاب كما يحلو لهن. فالنساء الثريات والعائلات الملكية وكذلك نساء العامة شاركن في العادات الجنسية للربة. هؤلاء النساء كن حرائر أن يتزوجن في

أي وقت، وبخبرنا سترابو أنه حتى آخر القرن الأول قبل المسيح كن يعتبرن زوجات صالحات بصورة استثنائية. وفي العصور التاريخية الأقدم لم تكن مسألة أو حتى مفهوم الاحترام واللباقة قد طرحت - لقد ابتكرت في الأخلاق الجديدة.

«أديان العالم القديم المتوسطي (الخاص بالبحر المتوسط - المترجم) باستثناء الدين العبري، قبلت عمليات إنسال الحياة على أنها إلهية، على الأقل ليست كشيء غريب ومقيت من الربوبية. ولكن الدعاة المسيحيين، العاملين في الاتجاه العبري ضخموا فردانية الله عن الظواهر البسيطة للولادة، ولذلك انتجوا أحياناً انحيازاً معادياً للجنس فمهدوا للشقاق بين النظرة البيولوجية والعقيدة الدينية الجارية، ولذلك لم يكن الفكر الأخلاقي الحديث رابحاً أبداً».

هكذا علق المؤرخ فارنل في اكسفورد عام ١٨٩٦. كان واحداً من المؤلفين القلائل لتلك الحقبة، وأبرز الذين درسوا الموقف الديني القديم من الجنس بطريقة موضوعية، من دون أن يقدم صفحات سوداء مخجلة ارتباكاً أو يعلق بكرهية دينية.

في هذا الفصل عازمت أن أفسر وأشير إلى الأسباب الكامنة وراء هذا «العداء الجنسي» الذي يظهر عند العبريين وبالتالي عند الأديان المسيحية والمواجهات الناجمة. ولم يكن هذا الموقف المعادي للجنس نتيجة الطهارة الموروثة أو الجنس الأقل الشائع بين أنصار العقائد اليهودية المسيحية. وكما سوف نرى فإنه تطور وانتشر بسبب دوافع سياسية محضة، يرمي إلى تحقيق أهداف تسمح للعبريين الأيوين الغزاة باستيلاء أكبر على البلاد وسيطرة حكومية عن طريق تدمير النظام الأمومي القديم.

من عصر أقدم الغزوات الهندوأوروبية استمرت التشريعات المتعلقة بنساء المعابد المقدسات، القادشتو - تشريعات تتعلق بحقوق الوراثة وحقوق الملكية وحقوق العمل وعلاقاتهن الشرعية والاقتصادية بالأولاد - تظهر في القوانين. ومع ذلك فإن الهندوأوروبيين، كما عرفناهم لم يتخذوا موقفاً صريحاً ضد العادات الجنسية ذاتها. على الأقل لا يوجد أي أدب اكتشف وترجم حتى الآن يشير إلى هذا، مع أن القوانين الصارمة المتعلقة بعدم الثقة بالنساء المتزوجات قد استهدفت تلك العلاقات.

ولكن يمكن أن نلاحظ الارتباطات بين العبريين اللاويين القادة. فالقوانين اللاوية للإسرائيليين، من عصر موسى وما بعد فرضت العنصرية على النساء حتى حلول الزواج، تحت طائلة التهديد بالموت رجماً أو حرقاً، فإن تزوجن فتنة كاملة، من جانب المرأة فقط، التي تظل مهددة بالموت. ربما كانت عقوبة الموت للمرأة المتزوجة أو المخطوبة التي

اغتنبت تعرض بوضوح الإلحاح اللاوي على الإقرار بالأبوة. فالمشاركة في العادات الجنسية المقدسة في المعابد لاشك أنها تخرق هذه القوانين. وإلى جانب فرض أشد القيود الجنسية على النساء، نجد أن الكهنة والأنبياء اللاويين يدينون باستمرار عادات المعبد الجنسية. وأعتقد أن نقطة المواجهة كانت على النحو التالي:

إذا كانت النساء المقدسات للربة، كالفادشتو، يمارسن الحب مع مختلف الرجال ولا يخلصن لزوج واحد فإن الأطفال الذين تلدهم هؤلاء النساء سيكونون مجهولي الأبوة. وتكشف الوثائق السومرية والبابلية أن أولئك النساء أثناء انضمامهن إلى مجمع المعبد، يملكن أرضاً وممتلكات أخرى ويقمن بنشاطات عملية واسعة. وتفقد مختلف السجلات أنهن كن من أسر ثرية ومرغوبات في المجتمع. واتباعاً لعادات النسب الأصلية لدين الربة فإن الأولاد الذين تلدهم القادشتو سوف يرثون الأسماء والألقاب والملكية العائدة لأمهاتهم. وقد استمرت السلالة الأمومية في الوجود كبنية اجتماعية موروثة للمجتمع. فحتى البنات قد يصبحن هن أنفسهن قادشتو. أخذ نقوش ترالس في غرب الأناضول حفرت عليه في أواخر عام ٢٠٠ بعد المسيح امرأة اسمها أوريليا اميلياس معلنة بكل افتخار أنها خدمت في المعبد بمشاركها في العادات الجنسية، كما فعلت أمها وجداتها من قبل.

إن العادات الجنسية المقدسة للدين الأنثوي تقدم لنا روابط أخرى واضحة بين عبادة الجدة الإلهية كما عرفت في سومر وبابل والأناضول واليونان وقرطاجة وصقلية وقبرص وحتى في كنعان. فالنساء اللواتي كن يمارسن الحب في المعابد كن يعرفن بلغتهن «النساء المقدسات» «الطاهرات». واسمهن الأكادي قادشتو يترجم حرفياً إلى «النساء الطاهرات» أو «النساء المقدسات» فالنساء المقدسات يشرن باستمرار إلى «بغايا المعبد» أو بغايا الطقوس. إن استخدام كلمة «بغي» كترجمة لكلمة قادشتو لا ينفي التطهر الذي يعتبر مقدساً وحسب بل يشير أيضاً، حسب استدلالات الكلمة وتضميناتها الاجتماعية، إلى الذاتية العرقية من طرف الكاتب. إنها تقود الكاتب إلى سوء تفسير العقائد الدينية والبنية الاجتماعية للمرحلة. ويبدو لي أن كلمة «بغي» تشوه تماماً المعنى الحقيقي للعادات القديمة التي يفترض أن الكاتب يقوم بشرحها.

يكتب البروفسور أولبرايت المعجب بالمثل العليا للإسرائيليين:

«البغاء المقدس كان ملازماً تماماً لعبادة الربة الفينيقية مهما كان اسمها الشخصي، كما نعرف من كثير من الإشارات في الأدب الكلاسي، وعلى الأخص في كتب

هيرودوت وسترابو ولوقيان. وكانت الربة مثل البغي المقدسة تسمى المرأة المقدسة وهذا غريب جداً على نظرتنا... ولقد انتشرت الممارسة بين السكان الكنعانيين الأصليين لفلسطين ثم أعيد إدخالها باستمرار من الأقطار المحيطة بإسرائيل باعتبارها «عادة مقدسة جداً» حسب كلمات لوقيان عندما ناقش الممارسة نفسها في مدينة هيرابوليس في سوريا قرابة ألف سنة بعد آسا.

ويكتب البروفسور جيمس الأقل عدائية نوعاً ما «لقد نجمت من ممارسة البغاء الطقسي بعلاقته مع المعابد الإسرائيلية بشيلوه التي أدانها عاموس... كما اهتم بها هوشع كثيراً جداً، فقد استمرت الكاهنات في ممارسة وظائفهن بغيرة قوية في أيامه (٧٥٠ - ٧٣٥ قبل المسيح) على الرغم من جهود عاموس والاصلاحيين الآخرين مثل آسا للإجهاز عليهن».

حتى في الأرض العبرية لليهودية:

على الرغم من الأوصاف المعاصرة للعادات الجنسية فقد وجد الأركيولوجيون سجلات عن النساء المقدسات في أقدم سجلات سومر. إن ليجندة إينانا وأنكي موجودة في قائمة العادات الجنسية المقدسة على أنها من الهيات العظيمة التي أحضرتها إينانا لتمدين شعب أريك. فقد كانت ملكة السماء تحظى بتقدير جليل جداً من النساء المقدسات، اللواتي كن بدورهن يتمتعن بحمايتها. وكانت نساء المعبد في أريك يعرفن باسم نوغيخ: الطاهرة أو التي لا عيب فيها. إحدى الشذرات السومرية الهامة سجلت اسم ليليث التي وصفت على أنها عذراء شابة باعتبارها «يد إينانا». ونقرأ على هذا اللوح القديم أن ليليث أوفدت من قبل إينانا لتجمع الرجال من الشارع وتأتي بهم إلى المعبد. وهذا الاسم ذاته ظهر فيما بعد في الميثولوجيا العبرية على أنها زوجة آدم الأولى، التي رفضت أن تكون خاضعة له جنسياً، وفيما بعد كاسم لشيطانة تهيم على وجهها تنتظر أن تجد منياً مُراقاً، الذي منه تخلق «أطفالها الشياطين غير الشرعيين». كل هذه القصص تطورت كردة فعل على ليليث الأصلية، المرتبطة جداً بالعادات الجنسية لعبادة الربة.

في القرن الثامن عشر قبل المسيح، بدأ اسم عشتار في بابل يحل محل اسم إينانا السومري. ويشير أحد الألواح إلى أريك حيث حلت عبادة عشتار تدريجياً محل عبادة إينانا، باعتبارها مدينة «المحظيات والبغايا» (ترجمة وقتية للكلمتين). وأشار اللوح نفسه إلى الكهان الذين حللوا الحب مع الغرباء بحجة أنهم تجسيدات للروح القدس. فناء

عشتار عرفن بالكلمة الأكادية قاشتو بينما في المعبد الهام في بابل عرفن باسم عشاريتو التي تعني «نساء عشتار».

بقايا من هذه العادات الجنسية القديمة وصفها هيرودوت الذي أفاد أنه في عصره، قرابة عام ٤٥٠ قبل المسيح كانت نساء بابل يمارسن الحب مع غريب مرة في حياتهن فقط باعتبار ذلك تجربتهن الجنسية الأولى، وفيما بعد يتزوجن ويمارسن الجنس مع أزواجهن فقط منذ ذلك الوقت وما بعد.

وسجل سترابو الذي ولد في الأناضول قبل ولادة المسيح بوقت قصير أن العادات الجنسية اتبعت في عبادة الربة في كثير من مناطق الأناضول في ذلك الوقت. وكانت هناك عبادات إما باسم سييل أو أنيتيس. لقد أخبر أن تلك العادات كانت مظهراً مكملًا للعبادة في كومانا وفي ليديا أيضاً، حيث يؤيد ذلك نقش من ترالس وليديا. وكتب أنه في رحلاته شاهد بأمر عينه أن الأطفال الذين يولدون بهذه الطريقة كانوا يعتبرون شرعيين ومحترمين ويأخذون اسم أمهم ومركزها الاجتماعي. وأضاف أن الاسم واللقب كانا يستخدمان بكل كبرياء في كل النقوش الرسمية وعلق أنه في الأناضول، في زمنه «كانت الأم غير المتزوجة تعبد».

فالنساء المقدسات خدمن في معبد أفروديت في كورنثة خلال المرحلة الكلاسية لليونان. وفيما بعد تحدث لوقيان عن العادات في زمنه عام ١٥٠ بعد المسيح. أوضح أن النساء في ذلك الوقت اتخذن الغرباء عشاقاً فقط في احتفال عيد أدونيس. وحتى عندما دخلت عبادة إيزيس المصرية إلى روما فإن النساء المقدسات اتبعن العادات الجنسية المتبعة هناك، في معبد إيزيس.

لا توجد سجلات معروفة في هذا العصر تدل أن نساء مصر القديمة اتبعن العادات الجنسية ولكن في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الكاهن المصلح حزقيال، يتهم بغضب مجموعة من النساء العبريات بالفسق والدعارة مؤكداً أنهن تعلمن هذه الأساليب الجنسية الشريرة من المصريين. وهو يحذر في مقطع من مقاطع سفره «وأبطل رذيلتك عنك وزناك من أرض مصر» (حزقيال ٢٣: ٢٧) وفي قصته المجازية عن فتاتين شابتين، رمز بهما إلى الأمتين المنفصلتين للشعب العبري وهما اليهودية وإسرائيل، فلام الفتاتين لأنهما - وقد كانتا منفلتتي الحرية الجنسية في مصر - امرأتان شريرتان وساقطتان في كنعان.

إن عبادة الربة من أمثال عشتوريت (عشتار) كانت منتشرة في منطقة المتوسط.

فالكنعانيون من صور إلى صيدا (الفينيقيون) أسسوا معابد عشتوريت في قرطاجة وأريكس في صقلية وفي عدة مواقع في قبرص، وفي كل هذه الأماكن كانت تتبع العادات الجنسية المقدسة. ويتحدث سوزومينوس عن العادات المقدسة في معابد عشتوريت في أفاقا وبلبك في المنطقة المعروفة اليوم باسم لبنان. وقد شرح فارنل كثيراً من الارتباطات في المنطقة المتوسطة.

في دين عشتوريت تماماً، كما في عبادة الربة في كل مكان في الشرقين الأدنى والأوسط، استمرت النساء في اتباع العادات الجنسية المقدسة. وتربط التوراة تلك القادشتو في أورشليم بالثقب المنسوجة أو الألبسة الخاصة بالأسيريم (الربة عشيره) فيما يسميه رولاند دي فوكس «بيت البغايا المقدسات». كما يؤكد أن العادات الجنسية كانت عادية جداً في المعابد الكنعانية وقد قامت النساء الإسرائيليات بهذه الممارسة على الرغم من إدانة قادة العبريين.

والشيء الهام في فهمنا الواقعي لعداء العبريين لهذه العادة هو التحقق أن النساء المقدسات تابعن خدمة المقدسة الأنثى بالأساليب الجنسية القديمة - حتى في الأرض العبرية لليهودية. فقد ظلت العادات الجنسية مظهراً من مظاهر العبادة الدينية في المعبد في أورشليم، المعبد الذي زعموا أنه ليهوه، وهو المعبد ذاته الذي كان النسوة يكرمن فيه وينحن على تموز.

كتب البروفسور جيمس وعدة باحثين آخرين عن عبادة عشتوريت القائمة جنباً إلى جنب مع عبادة يهوه في أورشليم. كما وصف جيمس العادات الجنسية في أورشليم وفي المعبد العبري في شيلوه.

ونعلم من سفر هوشع في العهد القديم أن امرأة، وهي هنا جومر (زوجة هوشع) كانت حرة أن تتزوج وتربي الأطفال وتتابع ممارسة الحب مع الرجال الآخرين في المعبد فترتدي أفخم ما عندها لتمارس هذه العملية. فحتى في هذه السجلات التاريخية التي يتضح أنها كتبت لتدين صفة أفعالها فإن الوصف يكشف أنها شاركت في العادات الجنسية بمحض إرادتها ولكن كحظيات مسرة وليس كالأطراف المختلفة. هذا الموقف غير مقبول أبداً لدى الرجال الذين تبثوا النظام العبري الأبوي، مثل أشعيا، ولكنه يفصح أنه بالنسبة إلى أولئك الذين ينتمون إلى الأنظمة الدينية الأخرى كان سلوكاً عادياً جداً.

قبلت هذه العادات الجنسية لآلاف السنين كعادات طبيعية بين سكان الشرقين

الأدنى والأوسط. لقد تقبلوا بل حتى شجعوا استمرار أنماط النسب الأمومي فانتعش نظام القرابة الأمومية. ولكن داخل الممارسة الفعلية للعادات الجنسية كانت هناك حاجة للاهتمام بأبوة الأطفال - فقط بالمعرفة المحددة للأبوة استطاع النظام الأبوي أن يبقى. اعتقد أنه على محاولة إقامة هذه المعرفة المحددة للأبوة التي تجعل إقرار الأبوة ممكناً أدينت أخيراً هذه العادات الجنسية القديمة باعتبارها آثمة فاسدة، ولهذا السبب ابتكر الكهنة اللاويون مفهوم الأخلاقية الجنسية: عذرية النساء قبل الزواج، والثقة الزوجية بالنساء، وبكلمة أخرى السيطرة الكاملة على معرفة الأبوة.

حيث تقف يتحدد تماماً مآثره. فمن نظرة أولئك الذين اتبعوا دين الربة كانوا لا يرون غضاضة في اتباع الأساليب القديمة. ومن وجهة نظر القبائل العبرية الغازية اعتبر هذا الدين القديم قصفاً وشرأ وامتعة وعاراً وضعة وخطيئة، اعتبر عبادة خصب منحلة. ولكننا نشك في أنه خلف هذا المثال الأخلاقي كانت هناك محاولة سياسية للاستيلاء على الأرض والملكية تتاح لهم فقط بقيام مؤسسة النظام الأبوي، ربما هو النظام الذي عرفوه في الأرض الشمالية للهندوأوروبيين؟ فهل لهذه الأسباب أعلنت الشرائع اللاوية أن أي نشاط جنسي للنساء لا يتم داخل حدود مضجع الزواج يعتبر خاطئاً، أي ضد قوانين يهوه؟ فطبقاً للتوراة أسست هذه الشرائع في أيام موسى، قبل غزو القبائل العبرية لأرض كنعان بوقت قصير. لقد جرت المواجهات الأرضية والاجتماعية جنياً إلى جنب. لقد كانت معركة طويلة وشنيعة بدأت منذ وصول العبريين إلى كنعان واستمرت حتى العصر الروماني وبداية العصر المسيحي، ومعظم هذه المعركة مسجل في التوراة.

الفهم الكامل لمدى معاداة العبريين للسلوك الجنسي ومحاولة الكهنة اللاويين تغيير السلوك الجنسي ومواقف النساء العبريات سوف نختبره عن طريق معرفة إلى أي مدى أثر دين الربة مباشرة في الشعب العبري. فهل كانت عادات ديانة الربة تسلية نادرة جويته في مناسبات غير منتظمة، أم كانت ديناً مائزلاً، على الرغم من غزوات الهندوأوروبيين واللاويين عاملاً فعالاً في حياة أولئك الذين عاشوا في كنعان؟

الفصل الثامن

قدموا البخور للملكة السماء

مع أن تماثيل الإلهة الأثني دفنت عميقاً تحت رمال ماكان يسمى في يوم من الأيام بلاد كنعان، فقد راحت التنقيبات الأركيولوجية تكشفها باستمرار. تماثيل الربة هذه، بعضها يعود إلى ما قبل ٧٠٠٠ قبل المسيح، تقدم شهادة صامته للعبادة القديمة لربة السماء في البلاد التي تذكر اليوم على أنها مهد كل من اليهودية والمسيحية.

حديثاً نشر إيفال يادين، أستاذ الأركيولوجيا في الجامعة العبرية في أورشليم ومدير مؤسسة الأركيولوجيا هناك، تقريره عن تنقيبات مدينة حاصور في كنعان التوراتية. ويصف بطريقة مراوغة نوعاً ما الدليل على وجود عبادة الربة بهذه الطريقة:

«مع أن الدين الرسمي لإسرائيل الشمالية كان دين يهوه - إله إسرائيل - فإننا نعرف من أشعار التوراة ومن المكتشفات الأركيولوجية أن عبادة بعل وعشتار قد أثرت عميقاً في السكان المحليين على شكل معتقدات فولكلورية أو شعبية - وهذا ما أمن ضماناً مضاعفة. والحقيقة أننا اكتشفنا تماثيل طينية صغيرة تمثل عشتار ربة الخصب، وما يمكن أن يسمى بقايا المقدسات المرتبطات بعبادة بعل وعشتار».

لدى مناقشة عصر البرونز المتأخر في كنعان (قرابة ١٥٠٠ - ١٣٠٠ قبل المسيح) يخبرنا البروفسور أولبرايت أن:

«أحد الأنواع الشائعة للموضوعات الدينية الموجود في طبقات العصر البرونزي المتأخر يتألف مما يسمى بروشات عشتار. وهي بروشات فخارية بيضوية الشكل عموماً نقش عليها (بيد فاخوري أو سكااب معدن) الربة عشيرة العارية، في وضع أمامي وذراعاها مرفوعتان، تضم سويقات زنبقية أو أفعواناً أو الاثنيين معاً في يديها. رأس الربة مزين بحلقتين حلزونيتين طويلتين متوحدتين مع حلقات حاتور المصرية. وهذه البروشات مستعارة من بلاد ماين النهرين، حيث كانت شائعة قبل التاريخ في العصر البرونزي المبكر (قرابة ٣٢٠٠ - ٢١٠٠ قبل المسيح).

كاتلين كينون، المديرة السابقة للمدرسة الأركيولوجيا البريطانية في أورشليم تبحث في كنعان التوراتية فتكتب عن:

«بروشات عشتار هي موضوع العبادة الأكثر شيوعاً تقريباً في كل مواقع الفترة (العصر البرونزي المتأخر). تلك البروشات، مع ما يرافقها من دين فينيقي لا يمكنها على أي حال أن تؤخذ في أي موقع خاص دليلاً على أنها لم تقع تحت السيطرة الإسرائيلية، فحتى تل بيت مرسيم نفسها تقدم دليلاً واضحاً لتكرار هذه البروشات أو التماثيل الصغيرة المشابهة حتى القرن السابع قبل المسيح. واتهامات الأنبياء وحدها كافية لإظهار أن اليهودية ناضلت باستمرار ضد الدين القديم للبلاد».

في اكتشاف تأثير وأهمية عبادة الربة في كنعان زمن التوراة، نجد أنه مثل عشتوريت، عشيره، وعشتارت وأتوريت أو علات أو بعلات (وكلتاها معروفة كربة) كانت الإلهة الأساسية للمدن الكنعانية من أمثال صور وصيدا وعسقلان وبيت عنات وأفاكا وبييلوس وعشتوريت كارنيم.

في عام ١٨٩٤ ذهب روبرتسون سميث إلى أن عشتروت أصبحت الزوجة الأقل أهمية لبعل في «الزمن التوراتي»، ومع ذلك نقرأ نقوشاً للربة في كنعان باعتبارها حاکمة سماوية وربة الملوكية وأم جميع الآلهات. لقد توافقت فعلاً مع بعل، مع بعل واحد أو عدة بعليم ولكن إذا دققنا النظر نجد أن الطقوس وشكل الممارسات هي تلك التي ترفع إلى دين الربة القديم.

طبقاً لسيبتون ليود أستاذ الأركيولوجيا الآسيوية الغربية فإن كلمة بعل، التي تترجم عادة بكلمة سيد تتضمن في الأصل وضعاً مؤقتاً أو عبادة مؤقتة للملكية. وربما استخدم الاسم مثل الكلمة الهندوأوروبية باتي كما استخدم كسيد ومالك ومعلم وزوج، وكما أشرت من قبل يمكن أن يكون مرتبطاً بالكلمة السنسكريتية بال. وفي أوغاريت في شمال كنعان سأل بعل جبل صفون الربة التي تعرف هناك باسم عنات، أن تؤمن له معبداً لأنه ليس له معبد. وفي هذه الليجنادات ذاتها في القرن الرابع عشر قبل المسيح، تذبح عنات بسهولة العدو الذي كان قوياً لأن يخيف بعل أولاً ثم يقتله. ومع أن اسم بعل قد يكون دخل قبل قرون باعتباره إله العاصفة لجبل سافون على يد الحورين في أوغاريت فإن الاسم في زمن كتابة هذه الليجنادات كان أيضاً متوحداً مع زوج الربة وفي أوغاريت لعب بعل دوراً مزدوجاً كإله عاصفة للجبل وكزوج يموت فيما يشبه دموزي وتموز وأتيس وأوزيريس

وأدونيس. ونعلم أن حزن عنات عليه في موته يشبه حزن البقرة على عجلها.

وحتى ثور - إيل، الإله الذكر الأكبر، وقد وصفه بعض الكتاب أنه رأس الآلهة في أوغاريت، جاء عنه أنه اختبأ في حرم عميق من ثمانية غرف، يرتعد خوفاً عندما اقتربت منه عنات القوية. في هذه النصوص نفسها عرفت عنات بأنها «سيدة الملوكية وسيدة الدومنيون وسيدة السموات العلى». وفي ضوء ألواح كنعان الشمالية لا يستطيع المرء أن يدافع عن الفكرة بأن أياً من هؤلاء الآلهة الذكور صور على أنه شامل القوة أو على أنه جبار، ما لم يؤكد على افتراض أن كل الآلهة الذكور كانوا على هذا النحو. ومع أن هذه النتيجة لم ينطق بها معظم الكتاب فإن الربة عنات هي التي تظهر من تلك الليجنيدات الكنعانية إلهة الشجاعة والقوة الفائقة.

وقد أكد هستنغز في كتابه «معجم التوراة» عام ١٩٠٠ أن عشتوريت كانت فائقة فيقول عنها «كانت هذه الربة المعبود الرئيسي للساميين في المرحلة الأمومية البدائية لتنظيمهم. إنها تمثل الأمومة البشرية، حرة في حبها، أم منتجة للعشيرة وقادتها في السلم والحرب».

في صفحات العهد القديم قلما يظهر اسم عشتاروت وحده، هذا الاسم الذي استخلم في كنعان الشمالية حيث استوطن الشعب العبري. كان اسمها دائماً تقريباً مرتبطاً ببعل مثل شياطين الأفاعي التي كانت في الليجنيدات الهندوأوروبية أبناء أو أزواج الربة، وأحياناً كان يشار إلى الدين باسم بعليم. ومع أن من المحتمل جداً أن الدين الكنعاني في الجنوب حيث شن الأمراء الآريون غزوات عميقة قام برفع بعل إلى مكانة أرفع في الزمن التوراتي المتأخر فالعبادة والطقوس والعادات الجنسية والكهنة والخصيان والحزن على تموز أو بعل كزوج يموت ووفرة تماثيل عشتار وبروشاتها والأعمدة والأقطاب الرمزية (فعلاً تسمى عشيرة وإن كانت دائماً في حالة أدنى) كل ذلك يكشف أن الرمزية وعادات دين الربة هي التي كانت فعلاً هدف العدوان اليهودي. ومما يدل على ذلك أن الكهنة اللاويين كما شوها عن عمد تهجئة حروف اسمها وشوها التلفظ به (فهم يلفظونه بلفظ بوسيت وتعني العار) ويشيرون إليها بجنس المذكر رافضين حتى الإقرار بوضع الربة، كذلك تابعوا ربط اسمها بزوجها المذكور.

وكما قرأنا من قبل فإن التوراة والأدب الديني قد يكونان جزئياً نتيجة أهداف سياسية مقصودة مثلما هما سجل لعقيدة أو معرفة عتيقة. في مناقشة أسطورة الفردوس

في التوراة كتب كامبل عن «الميثولوجيات التأميرية والمعاكسة» وكتب البروفسور شيررا أن أسطورة مردوخ قام بالدعاية لها الجيوش البابلية، واستنتج أن ليجنده آشور عن التفوق كانت عبارة عن نسخة من أسطورة مردوخ أعيدت صياغتها. كما كتب أن أسطورة آدم وحواء «دخلت دوائر البحث» وبين أن التوراة خضعت لرقابة الكهان الذين كانت لديهم سلطة القرار فيما «يلائم وينسجم مع تاريخ مؤسسي العرق...» كما علق البروفسور ويدنغرين على التوراة كما تعلم «... هناك مقاطع كثيرة تعرضت بكل وضوح للرقابة حتى تظهر لتتسجم مع تاريخهم».

مع أن كثيراً من سجلات التوراة قائمة في الأرجح على أحداث تاريخية فعلية، أثبتتها بشتى الطرق وثائق ودلائل قدمتها الحفريات الأركيولوجية، لكن يبدو أن التقارير اللاوية التوراتية عن الدين «الوثني» في كنعان قدمت من وجهة نظر تفيد الميثولوجيا اللاوية وتقبل بها، ولم تقدم في سجل تاريخي موضوعي. وعلى الرغم من مختلف الطرائق المستخدمة لتشويش وتوحيد جنس الربة عشتوريت أو عشيراه حتى في التوراة كما نعرف اليوم فإن مقاطع ورميزات فضحت الحضور المؤثر والسائد للعبادة القديمة للإلهة الأثني، وتبنت ذلك المنتوجات الفنية للكنعانيين الآخرين في الشرق الأدنى.

عرف العبرانيون في مصر عبادة الربة إيزيس أو حاتور. وحتى أربعة أجيال عاشوا في أرض أحرزت النساء فيها مكانة رفيعة جداً، وقد استمر نظام السلالة الأمومية يقوم بعمله في معظم الأحقاب. وانطلاقاً من عدد العبريين الذين خرجوا من مصر بالمقارنة مع الأسرة ذات الإثني عشر سبطاً الذين دخلوا على مايفترض قبل أربعة أجيال، فإن من الأرجح أن عدداً كبيراً من هؤلاء العبريين المعروفين باسم الإسرائيليين قد يكونون فعلاً مصريين وكنعانيين وبدؤوا ساميين وشعباً آخر عابداً للربة انضم إليهم في مصر. وإلى شرق كنعان تماماً، في بابل، تنتصب معابد عشتار. وفي أرض كنعان، الأرض التي غزاها العبرانيون، وجعلوها لهم بعد الخروج من مصر، تكشف السجلات الأركيولوجية والمنتجات الفنية أن دين الربة عشتوريت وعشتار وعشيبة وعنات وعلات وبعلات ظل مزدهراً في كثير من المدن الكبرى.

دمروا مذابحهم وحطموا صورهم:

زعم الكتاب اللاويون للعهد القديم أن ربهم أحضرهم إلى أرض كنعان باعتبارها «أرض الميعاد». ومع ذلك فإن من الواضح حتى في سجلاتهم الخاصة أن كنعان لم

تكن أرضاً خالية حتى في عصر ابراهيم. في سفر العدد ١٣: ١٧ - ١٩ جاء أنه عقب وصول القبائل العبرية، قادمين من الصحاري في سيناء، أرسلوا مبعوثين متقدمين إلى مدن كنعان. وهذا هو تقريرهم عن الوضع قرابة ١٣٠٠ - ١٢٥٠ قبل المسيح: «ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحققاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتر والمدين حصينة عظيمة جداً» (عدد ١٣: ٢٧ - ٢٨).

ويوافق السجل التوراتي أن كنعان كانت من قبل آهلة وفيها كثير من الناس الذين يعيشون في مدن عظيمة محصنة. وعلى الرغم من هذا نقرأ عن نية العبريين القادمين ليس فقط أن يتابعوا حياتهم في أرض كنعان، بل التحطيم المقصود والعنيف للدين القائم وإحلال دينهم محله. وهذه النية أفصح عنها اللاويون كأمر من يهوه والذي يفترض أنه أعلن الأمر قبل أن يدخل الإسرائيليون إلى كنعان:

احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لتلا يصير فخاً في وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواربهم فإنك لا تسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو (خروج ٣٤: ١١ - ١٦).

بهذا الأمر بدأت الغزوة العبرية لكنعان. ومع أن الدخول العبري إلى «أرض الميعاد» في كنعان إنما هو تخيل الوصول إلى ملجأ السلم بعد قرون من العبودية في مصر، فطبقاً للتوراة فإن احتلالها اتخذ شكل سلسلة من الحصارات الدموية، التي تشبه تماماً غزوات الهندوأوروبيين القديمة.

وفي سفر التثنية ٢: ٣٣ نقرأ أنه تحت قيادة موسى وهرون قابل الإسرائيليون ملكاً يسمى سيحون في مدينة تسمى ياهص. وتخبرنا السجلات اللاوية (فدفعه الرب إلهاً أمامنا فضربناه وبنيه وجميع قومه وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال ولم نبق على حي). وعندما لاقوا عوج ملك باشان، يخبرنا سفر التثنية ٣: ٣ - ٧ أنه «دفع الرب إلهاً إلى أيدينا عوج أيضاً ملك باشان وجميع قومه فضربناه حتى لم يبق له حي... لم تكن قرية لم نأخذها منهم... ستون مدينة أخذناها... قتلنا كل الرجال والنساء والأطفال في كل مدينة».

توفي كل من هرون وموسى في الصحراء. واستلم يشوع القيادة ودخل الإسرائيليون أريحا (جيريكو). ونعلم من سفر يشوع ٦: ٢١ أنه «حرموا كل مافي

المدينة من رجل وامرأة. من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف». ولكن بهذا الحصار ذاته نعلم أن «كل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب» (يشوع ٦: ١٩) ونعلم من سفر يشوع ٦: ٢٤ أن تلك الأوامر نفذت «واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب». وفي معركة عاي تخبرنا التوراة «فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً. جميع أهالي عاي» (يشوع ٨: ٢٥). وفي سفر يشوع ٨: ٢٩ جاء أن يشوع «ملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء». وبما أن يهوه في مقطع مبكر قد أخبر يشوع بأن يفعل مع ملك عاي ما فعله مع ملك أريحا، فقد نفترض أن هذا كان مصير ملك أريحا أيضاً، مع أن سجل الأحداث لا يشير إلى ذلك.

ونقرأ في سفر يشوع الإصحاح العاشر:

وأخذ يشوع مقبلة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرّم ملكها هو وكل نفس بها. لم يبق حي. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة. فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها. لم يبق حي وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل فأخذها في اليوم التالي وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة.

حينئذ صعد حورام ملك جازر لإعانة لخيش وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق له حي.

ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وأخذوها في ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرّم كل نفس بها في ذلك اليوم حسب ما فعل بلخيش. ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون وحاربوها وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها. لم يبق حي حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها.

ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دير وحاربها وأخذها مع ملكها وكل مدنها، وضربها بحد السيف وحرّموا كل نفس بها. لم يبق حي كما فعل بحبرون فعل بدير وملكها وكما فعل بلبنة وملكها.

فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يبق حي بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل» (يشوع ١٠ : ٢٨ - ٤٠).

وفي حصارات مشابهة دمر يشوع والإسرائيليون مدن جبعون وحاصور وحتى بعل جاد في وادي لبنان تحت جبل حرمون. وأخشى مخاطرة التكرار، إذ أني لا أوافق على تعليق البروفسور أولبرايت أن «الطبيعة الداعرة للعبادة في كنعان حلت محلها عبادة إسرائيل ببساطتها الرعوية وصفاء الحياة، ووحدانيتها الرفيعة وقانونها الصارم في الأخلاق». وبدلاً من أن نقدم صورة العبيد المساكين المشردين مع مثل رفيعة يدخلون «أرض الميعاد» ليريحوا عظامهم المتعبة وينبؤوا حياة جديدة أفضل، نميل إلى أن نتذكر الوصف الذي قدمه البروفسور لويد لدخول اللوفيانين إلى الأناضول وطريقتهم التي حققت نجاحهم والتي «كانت متسمة بالدمار الشامل».

وإيماناً في رفض ماسماه «صفاء الحياة» أو «القانون الصارم في الأخلاق» نقرأ أنه على الرغم من كل السجلات التي تقول إن الإسرائيليين لم يتركوا حياً فإن ذلك ليس هو الحقيقة الكاملة. إذ في سفر العدد (٣١ : ١٧) نقرأ أنه بعد المعركة ضد المديانيين، وكانت ماتزال القيادة بيد موسى وهرون، جاء الأمر إلى الإسرائيليين «والآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة رجل ابقوهن لكم حيات». وفي سفر العدد ٣١ : ٣٥ نقرأ قائمة عن الأسلاب وغنائم الحرب التي أخذها الإسرائيليون في هذه المعركة ذاتها. وفي هذه القائمة يدرجون الأغنام والأبقار والحمير واثنين وثلاثين ألف فتاة «لم يعرفن مضاجعة رجل».

وفي سفر التثنية أيضاً قبل أمر يشوع نقرأ:

«وإذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك وسيبت منهم ميباً ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة فحين تدخلها إلى بيتك تخلق رأسها وتقلع أظفارها. وتنزع ثياب سبيها عنها وتقع في بيتك وتبكي أباه وأُمها شهراً من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون زوجة وإن لم تسر بها فاطلقها لنفسها. لاتبعها يعباً بفضة ولا تسترقها من أجل أنك أذلتها» (تثنية ٢١ : ١٠ - ١٤).

ومع أن هذه الأعداد أيضاً قد يكون مبالغاً فيها، فإن المقاطع تدل أن كثيراً من النساء اللواتي فيما بعد عرفن كزوجات للإسرائيليين قد يكن هن الفتيات اللواتي



خريطة ٤ - كنعان الشمالية حسب العهد القديم

شهدن قتل أسراهن وأصدقائهن وتدمير منازلهن ومدنهن. لا بد أنهن شعرن بالخوف والصدمة وقد أخذن بهذه الطريقة إلى القبائل العبرية، تصحبهن عاداتهن الطفولية وأديانهن مما جعل موقفهن ووضعهن في الحياة العبرية صعباً. ومع أن عدد النساء في القبائل العبرية لم يدرج في قائمة فإن المقاطع تدل أيضاً أنه عندما خرج العبريون من مصر كان لديهم نسبة مئوية كبيرة جداً من الرجال. كل هذه العوامل قد تساعدنا في تفسير «قبول» النساء العبريات للقوانين الأبوية الجديدة.

تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت:

مع أنه حسب السجلات التوراتية كان سكان كثير من المدن والعواصم قد ذبحوا، فإن عدة مدن كبيرة لم تمس، مدن كانت عشتاروت فيها مازال تعبد باحترام. وحالما قسمت الأراضي المحتلة في كنعان بين القبائل، كان اللاويون يعيشون وسط كل قبيلة منهم. من هذه النقطة وما بعد نلاحظ الهجمة الطويلة والضارية التي شنّها العبريون على ملكة السماء وبعلها. وعلى الرغم من كل التحذيرات كان دين الربة لإغراء كبيراً للعبريين الذين غزوا كنعان، فلكثير منهم كان هذا الدين يعتبر دين أجدادهم. إشارات إلى عبادة الشعب اليهودي في الدين القديم يظهر باستمرار في صفحات التوراة، وهي أيضاً من وضع الكهنة اللاويين:

سفر القضاة ٢: ١٣ «تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت». سفر القضاة ٣: ٧ «فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري» (السواري هي عشتاروت - المترجم). سفر صموئيل الأول ٧: ٣ - ٤ «وكلم صموئيل كل بيت إسرائيل قائلاً إن كنتم بكل قلوبكم راجين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين».

وفرة صموئيل كانت في عصر شاول، أول ملك عبري قرابة ١٠٥٠ قبل المسيح. وقبل هذا العصر كانت فترة القضاة. وحسب التوراة فإن الملك سليمان قرابة ٩٦٠ - ٩٢٢ قبل المسيح عبد عشتاروت أيضاً مثل الآلهة المحلية الأخرى. وقد كان مهتماً بفقدان ملكه لأنه نسي يهوه وعبد ملكة السماء، عشتاروت الصيدونيين. وفي الملوك الأول ١٥: ١٣ نجد تقريراً عن خلع ملكة مؤاب على يد ابنها (أو صغيرها) أما قرابة عام ٩١٠ قبل المسيح - والجريمة أنها عبدت عشيرة. واسم عشيرة استخدم أيضاً في نصوص كنعان الشمالية، في زمن عنات. وقد عبدتا كأُم وابنة في ذلك الوقت. ولكن عشيرة أيضاً توحدت مع عشتاروت التي كانت تحترم بعق في صور وصيدا تحت

ذلك الاسم. ويصف أحد نصوص كنعان الشمالية عشيرة على النحو التالي «لقد وصلت إلى مقام عشيرة الصوريين، أيضاً ربة الصيدونيين». وفي نصوص أوغاريت عرفت عشيرة باسم «خالقة الآلهة».

واستمر الخلل من يهوه، كما هو موصوف أعلاه، في السجلات التوراتية كما سوف نرى. ولكن أعظم المقاطع الفاضحة نجدها في سفر أرميا. لقد جرت هذه الحادثة في جالية عبرية في مصر قرابة عام ٦٠٠ قبل المسيح، فدين الرب هنا، والاحترام الذي يقدم لها حتى من قبل عبري ذلك العصر اعتبر ليس كدين جديد تبنيه حديثاً، وإنما كدين اتبعه العبريون من قبل - في أورشليم. كما يشير هذا السفر إلى أن هذا الدين كان دين نساء، مع أن الكاتب اللاوي رسم بعناية الأزواج والسلطة بأيديهم، ويفصحون عن تمسك واضح بالسلالة الذكورية في إجابة قدمها حتى عباد ملكة السماء:

«فأجاب أرميا كل الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يخزنن لآلهة أخرى وكل النساء الواقفات في محفل كبير وكل الشعب الساكن في أرض مصر في فتروس قائلين إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا باسم الرب بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخر للملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً. ولكن من حين كفنا عن التبخير للملكة السموات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كل وفينا بالسيف والجوع، وإذ كنا نبخر للملكة السموات ونسكب لها سكائب، فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعماً لتعبدنا ونسكب لها السكائب؟» (ارميا ٤٤: ١٥ - ١٩).

وتساءل البروفسور هوك «ماذا نقول عندما نجد في سجل حداثق أدونيس ومجالس حزقيال المتخيلة، نساء يعلن أنهن منذ أن توقفن عن خبز الكعك للملكة السماء لم يعد أي شيء يسير سيراً حسناً معهن، لا القداس ولا المعابد ولا النبوءات... ولا الممارسات العديدة الأخرى؟» وأجاب «لاشك أنه يستحيل رفض أن هؤلاء كن عناصر أجنبية، بعضهن كنعانيات وبعضهن أشو - بابليات وبعضهن مصريات، وكل هؤلاء دخلن في صورة دين إسرائيل كما يظهر في العهد القديم».

ولاحظ البروفسور ويدنغرين، كما لو كان يقدم جواباً إضافياً «ربة السموات هذه لا يمكن أن تكون سوى الربة عشتار التي تمتعت في عام ٦٠٠ قبل المسيح بعبادة رسمية في مملكة اليهودية».

كثير من مقاطع التوراة تشير إلى أن أوثن الإلهة الأنتى المكرمة باعتبارها عشيرة (في أسوأ الحالات) كانت موجودة على رأس كل هضبة، وتحت كل شجرة خضراء وعلى جوانب المذابح في المعابد. لقد كانت رمزاً متوحداً مع عبادة الرب كعشيرة وقد تكون سارية أو شجرة حية وربما نحتت تماثلاً. وكتب آرثر ايفانز أن «السجلات التوراتية تبرز المرة بعد الأخرى عبادة العشيرة إما كشجرة حية أو كبديل لها كالدعامة اليابسة أو العمود الذي كانت مذابح الكنعانيين تشاد أمامه».

إنني أشك في أن تكون العشيرات (جمع عشيرة - المترجم) شجرات تين فعلاً، تين الجميز، الشجرة التي اعتبرت في مصر «جسد الرب على الأرض». ثمة أسباب كثيرة للاعتقاد أن الأمر هو فعلاً على هذه الشاكلة، وهو الدليل الذي سوف نفحصه بعمق وإسهاب لدى حلنا أسطورة آدم وحواء - الدليل الذي ربما يفسر رمز الشجرة في أسطورة الفردوس.

وبمابعتنا اكتشاف حضور الرب في كنعان، تخبرنا التوراة أن العشيريم مع أن ارتباطهم بالعشيرة كرية لم يشرح، نجدهم في أي مكان. «وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة وبنوا لأنفسهم أنصافاً وسواري على كل تل عال وتحت كل شجرة خضراء. وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأعم الذين ساقهم الرب من أمامهم وعملوا أموراً قبيحة لإغاضة الرب. وعبدوا الأصنام التي قال الرب عنها لاتعملوا هذا الأمر» (ملوك الثاني ١٧ : ٩).

وحالما أعلن اللاويون أن المهمة العبرية هي تحطيم رموز الدين هذه التي غالباً مايشيرون إليها على أنها «أربابهم» حيث وجدوها، وهذا بالضبط ما فعلوه. لقد كتب الكهنة اللاويون أن التحطيم هو أمر من يهوه: تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأعم التي ترونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصافهم وتحرقون سواريهم بالنار (ثنائية ١٢ : ٢). لاتنصب لنفسك سارية من شجرة مابجانب مذبح الرب إلهك (ثنائية ١٦ : ٢١).

ولكن على الرغم من تحذيرات الكهنة اللاويين كان العشيريم ينصبون ويعبدون باستمرار. وفي سفر الملوك الأول نقرأ أن الملك آحاب، زوج ايزابل قرابة عام ٨٥٠ قبل المسيح أقام العشيرة. وقرابة القرن الثامن قبل المسيح تكلم اشعيا عن العشيريم في مدينة دمشق. ودمر جدعون في فترة القضاة العشيرة من أحد المعابد مستخدماً خشبها محرقة ليهوه. وجاء التهديد أن «الرب سوف يحرق إسرائيل لأنهم أقاموا العشيريم».

والملك حزقيا الذي حكم قرابة ٧١٥ - ٦٩٠ قبل المسيح «عمل ما كان مستقيماً في عيني الرب». لقد حطم الأنصاب وقطع العشيرة. وحزقيا نفسه هو الذي دمر أفعى برونزية كانت محفوظة في المعبد في أورشليم منذ وصول العبريين إلى كنعان. وبعد حزقيا أقام ابنه منسى الذي حكم خمساً وخمسين سنة العشيريم كما فعل ابنه عمون الذي خلفه.

وفي سفر الملوك الثاني ٢٥: ١٥ أخذ الكاهن اللاوي حلفيا الذي خدم الملك يوشيا قرابة ٦٣٠ قبل المسيح الأوعية التي صنعت من أجل عشيرة وبعل ورمها خارج هذا المعبد نفسه الذي في أورشليم. لقد نحى العشيرة. «نجس المرتفع الذي بناه سليمان لعشتاروت». «كسر التماثيل وقطع السواري وملأ مكانها من عظام الناس».

ومع أن دين الربة لم يشر إليه أبداً، فإن الدليل على عبادتها في كنعان خلال العصور التوراتية المتأخرة هو ظهور النواحات على ابنها/ عشيقها تموز. فنقرأ في سفر حزقيال عن نسوة يكين على تموز في المعبد نفسه الذي في أورشليم قرابة عام ٦٢٠ قبل المسيح، فابرن على ممارسة الاحتفالات الحزينة لدين الربة المعروفة أيضاً من سجلات عشتار البابلية. وكما اقتبسنا من قبل، أكد البروفسور ويدنغرين أن الحزن الطقوسي ظهر في إسرائيل، في ذكرى موت تموز كما كان تماماً في بلاد ما بين النهرين.

كتب ابشتاين في تاريخه عن اليهودية المنشور عام ١٩٥٩ فين تدفق الأفكار «الوثنية» وعلى الأخص في زمن سليمان، فيلوم زوجات سليمان على أساليهن الفاسقة. وهناك احتمال قوى أن عادة سليمان في ضم الأميرات الأجنبية إلى حريمه (يلغى السبعمة حسبما جاء في التوراة) كانت نظاماً ذا دافع سياسي لضمانة الحق المطلق في حكم البلاد المحتلة بالزواج من وريثاتها، فعلاقة حقوق الكثير من العروش في الشرق الأدنى بالنمط السلالي الأمومي للشعب العابد للربة قد يفسر العدد الكبير للنساء الملكيات الأجنبية - وكلهن مسجلات زوجات شرعيات لسليمان - والحضور المقبول للأديان التي جاءت معهن.

بعد حكم سليمان، عندما انقسمت القبائل العبرية إلى أمتين منفصلتين، استمرت عبادة الربة في الظهور. وكان هذا واضحاً في السامرة، عاصمة المملكة الشمالية إسرائيل، خلال فترة آحاب وايزابل (قرابة ٨٦٩ - ٨٥٠ قبل المسيح) فازدهرت عبادة عشتاروت وبعلاها ازدهاراً بارزاً في ذلك الزمن. فزواج آحاب العبري بايزابل، ابنة ملكة

وملك صيدا، اللذين خدما أيضاً ككاهنة عليا وككاهن عند عشتاروت وبعل، قد يكون قد ضمن له الحق الشرعي بالعرش، ولكن حتى الملك يربعام، قبل ذلك الوقت (قراءة ٩٢٢ - ٩٠١ قبل المسيح) صنع عجولاً ذهبية رموزاً لدين الربة.

في اليهودية، المملكة العبرية الجنوبية التي كانت عاصمتها أورشليم ربما حكم رجبعام عام ٩٢٢ - ٩١٥ قبل المسيح تقريباً وابنه ايام كزوجين للمملكة معه، وقيل إنهما مارسا العبادات «الوثنية» وكما نعرف فإن الملكة معه عبتت عشيرة وبالتدريج خلعت من عرشها لأنها صنعت لعشيرة وثناً. وفي عام ٨٤٢ قبل المسيح تقريباً حكمت الملكة عثليا في أورشليم وبحكمها استمر الدين «الوثني» مزدهراً. وباعتبارها ابنة ايزابل، فيمكن أن نتساءل مرة أخرى إذا كانت عثليا في نظر الكثير من شعب كنعان قد حصلت على حق الحكم كحفيدة للكاهنة العليا وكاهن عشتاروت في صيدا. وقراءة عام ٧٣٥ - ٧٢٧ قبل المسيح اتبع الملك آحاز أيضاً الدين القديم، فاقترف الشر في عيني الرب. وقراءة عام ٦٢٠ كانت النساء في عصر حزقيال يكنين على تموز في المعبد الذي في أورشليم، بينما في عصر أرميا، قراءة ٦٠٠ أعلن النساء المتمردات صراحة عن نيتهن في متابعة تبجيل ملكة السماء.

خلاصة:

كنتيجة للدليل الأركيولوجي الذي يسعف في تفسير كثير من الإشارات الغامضة، على الرغم من الكلمات المراوغة وفقدان التفسير التوراتي، فلا شك أنه في الأحقاب التوراتية الكنعانية كان الكهنة اللاويون للعبريين في تماس مستمر مع دين الربة. ومع أن الأمر بتدمير المنتجات الفنية قد حصل في المكتشفات الأركيولوجية في كنعان الجنوبية أقل من بقية الشرق الأدنى، فإن عدداً ضخماً من الأدلة على العبادة الواسعة جداً للربة قد اكتشف في كل البلدان الأخرى التي إما أن العبريين عاشوا فيها أو أنهم كانوا في تماس وثيق معها، من أمثال مصر وبابل وسينا وكنعان الجنوبية. ويحيط بالعبريين في كنعان الجنوبية السكان الأصليون لكنعان، وهم الشعب الذي عاش في المدن التي لم تكن قد دمرت، والذي كرم المعبود الأنثى منذ أقدم العصور.

وكما كشفت التوراة ذاتها، فإن عبادة الربة، حتى في العاصمتين العبريتين السامرية وأورشليم، وحتى من قبل أولئك الذين كانوا يعتبرون أعضاء القبائل التي اتبعت الدين الجديد ليهوه (وعلى الأخص الملوك والحكام الذين يبدو أنهم لم يختاروا من القبيلة اللاوية) كانت أحد أعظم العوامل المؤثرة في تطور المواقف اليهودية، وفيما بعد المواقف

المسيحية. فاحتمال أن يكون اللاويون قد ارتبطوا أصلاً باللوفيانين الهندوأوروبيين، بينما قد تكون القبائل الأخرى من سلالات الشعوب المتوسطية التي تعبد الربة، ربما يساعدنا في تفسير هذا الانقسام بين الكهنة اللاويين والأنبياء و «التحرد والارتداد» المستمرين للشعب الإسرائيلي الذي يبدو أنه انجرف نحو الدين القديم مرة بعد أخرى.

لقد أعلن الكهنة اللاويون «لن يكون هناك بغايا عابدات في بنات إسرائيل». ومع ذلك، وكما رأينا من قبل، استمرت العادات الجنسية القديمة، ويبدو أن الطبيعة الحقيقية للعادات الجنسية، كجزء موروث ومتكامل للدين الأنثوي، المتيحة لاستمرار الأعماط السلبية الأمومية والمشجعة لها، هي التي أثارت ردود فعل عنيفة بين الأبويين اللاويين.

وحالما ننتبه إلى الحضور الدائم لدين الربة، فإن قراءة دقيقة لسجلات العهد القديم (التي فيها عينت النساء العبريات في مركز ثانوي كمساعدات مطيعات) تكشف المقاطع الكثيرة التي حملت التهديد المستمر، أحياناً مقنعاً وأحياناً يخبثي خلف الرمز ضد عبادة الربة. إلا أن بعض التهديدات كان صريحاً جداً. إنها تقصد أولئك الذين تابعوا ممارسة الدين القديم الواضحة حتى داخل سجلات التاريخ التوراتي التي تتحدث عن قتل وذبح أولئك الذين تجرؤوا وصلوا لـ «الأرباب الأخرى».

وكما سوف نرى في الفصل التالي فإن الصورة الجنسية المتكررة تسمح لنا أن نلاحظ موقف اللاويين تجاه العادات الجنسية لدين الربة والاستقلالية الجنسية للنساء عموماً، الاستقلال الذي لآلاف السنين عمل على السماح للنساء أن يحتفظن باستقلالهن اقتصادياً واجتماعياً وحقوقياً. ولذلك في القوانين اللاوية كتب الدمار على عبادة الجدة المقدسة، ومعها الدمار على النظام الأمومي.

الفصل التاسع

ورجال المدينة بالحجارة يرحمونها

هكذا كان عداء الكهنة اللاويين تجاه دين الربة في كنعان (مع أن مصطلح «الأرباب الأخرى» استخدم استخداماً مراوفاً في كل مقطع) فكتبت القوانين التي تمنع عبادة تلك «الأرباب الأخرى». وكانت القوانين تشدد حتى أنها أمرت أعضاء الدين العبري أن يقتلوا أبناءهم إذا لم يعبدوا يهوه. وقد أمرت القوانين اللاوية للتوراة: «وإذا أغواك سراً أخوك ابن أهلك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب التي حولك القريين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلاً تقتله يدك تكون عليه أولاً لقتله ثم أيدي جميع الشعب أخيراً» (تثنية ١٣: ٦).

من الواضح أن هذا الأمر موجه للرجال فقط، فالقريب الوحيد الذي لا يشار إلى قتله هو الزوج. ولا يوضع تحت الرقابة الشديدة الأقرباء فقط إذ أن اللاويين كتبوا «فإن مال سكان مدينة كانت تخدم الرب إلهك إلى خدمة أرباب أخرى، فعليك أن تقتل جميع سكان تلك المدينة» (تثنية ١٣: ١٥).

فإذا انتبهنا إلى هوية ملكة السماء واتساع عبادتها كما كانت في كنعان حتى بين الدوائر الملكية اليهودية فإننا نكتسب بصيرة أعمق في الدوافع السياسية للاويين بحيث تنسجم مع صورة النساء في التوراة والقوانين النوعية المتعلقة بهن.

بكل صراحة وبكل احتقار كتب الأنبياء العبريون والكهنة اللاويون عن أي امرأة لم تكن عذراء ولم تكن متزوجة. لقد تشددوا أن كل النساء علانية يجب أن تحدد كملكية خاصة لرجل ما، أب أو زوج. وبهذا أسسوا وطوروا مفهوم الأخلاق الجنسية - للنساء.

في تمهيد كتبه المؤرخ التوراتي ابشتاين في عام ١٩٣٥ يقدم فيه نسخة من التلمود العبري، يرى أن هذا هو السبب الأكبر لكون العبريين مهنيين من الأديان المحيطة.

لقد أثبتت الخبرة كم كان قوياً الإغراء بتقليد الممارسات الدينية للأمم المحيطة، حتى في الزمن الذي سكن فيه الإسرائيليون أرضاً من أراضيهم الخاصة. وقد اشتدت حدة صعوبة مقاومة التأثير الأجنبي في مراحل التشتت عندما كان اليهود يعيشون في محيط وثني فكان على الرايين أن يولوا اهتماماً جدياً بقضية كيف يجابهون قوى التمثل التي هددت بإغراق المجتمعات اليهودية المستوطنة في بلدان حيث عبادة الأوثان هي ديانة الدولة.

ومن المهم أن نفهم أن المعارضة العنيفة للوثنية التي تميز تشريعية التوراة وبالتالي التلمود لم تكن مجرد عداء نظام ثيولوجي لنظام ثيولوجي آخر. إنه بالأساس صراع المقاييس الأخلاقية. فقد مارس الوثنيون الكراهيات التي حذر منها الكتاب إسرائيل. فالفسق كان متوحداً مع السلوك اللاأخلاقي أساساً كمفهوم لاوي للعادات الجنسية، التي وجدت في كل مراحل التاريخ التوراتي. ويبدو أن فقدان الاهتمام بأبوة الأبناء بين الشعب العبري الذي استمر يبجل ملكة السماء، مما سمح لأتماط السلالة الأمومية أن تستمر نتيجة العادات الجنسية هو مشكلة اضطهاد العقائد القديمة على يد كهنة القبائل العبرية. ولاشك أنه كان واضحاً للقادة اللاويين أنه إذا وجد دين إلى جانب دينهم، دين تحظى فيه النساء بملكيتهن الخاصة، ويتمتعن بهوية شرعية وبحرية الوصال الجنسي بمختلف الرجال، فإنه سيكون من الصعب للرجال العبريين إقناع نسايم أن عليهم قبول وضع كونهن ملكية الزوج. فيجب أن تتعلم النساء العبريات قبول فكرة أن نوم المرأة مع أكثر من رجل هو شر. ويجب أن يعلمن أن ذلك سوف يجلب الكارثة والغضب والعار من يهوه الجبار - بينما في الوقت نفسه يقبلن أن يمارس أزواجهن العلاقات الجنسية مع امرأتين، ثلاث، خمسين... وهكذا فعذرية ما قبل الزوج والإخلاص الزوجي اللذين يفرضهما القانون اللاوي شيء مقدس لكل النساء العبريات، أي تقيض المواقف تجاه الجنسية الأنثوية في ديانة الربة.

ومع ذلك برزت تأثيرات الدين القديم وسمعته. فكما رأينا هناك باستمرار تقارير توراتية عن «الوثنية» في كل عصر، لقد بدت قضية دائمة وصفت في كل العهد القديم. لقد كان الأنبياء الكهنة اللاويون معرضين للتهديد دائماً. لقد وبخوا. والكتاب اللاويون أعلنوا أن أي امرأة مستقلة جنسياً، بما في ذلك نساء المعبد هن فاسقات أو بغايا وطالبوا بدعم مواقفهم الأبوية المتعلقة بالملكية الجنسية للنساء. وحالما اخترعوا هذا المفهوم عن «الأخلاقية» وجهوا اتهامات «اللاأخلاقية» إلى النساء اللواتي سلوكهن وحياتهن، وفقاً لمعتقداتهن القديمة كانت أرفع وأعظم طبيعة تقديسية.

أما أنتِ فقد زنيّتِ بأصحاب كثيرين:

وكان أعظم ما تكشف هو التشابه الذي رسموه بين أي امرأة ترفض الانضواء تحت قوانين الأخلاق الجديدة - وهم دائماً يشيرون إليها على أنها مومس وزانية - والتمرد والارتداد للشعب العبري في نقص إخلاصه ليهوه. فاستخدم عدم الإخلاص الجنسي لخطيئة مطلقة - وهي خطيئة حتى أنها تعتبر مماثلة لخيانة يهوه - يخدمنا في تقديم الاستبصار في الموقف اللاوي تجاه النساء المستقلات جنسياً. طرماً التشابه يتداخلان جداً، وأحياناً بطريقة غامضة، ولكن بما أن أنبياء يهوه يشجبون العبريين الذين تجرأوا وعبدوا «آلهة أخرى» فإن الهجوم بهذا يتحول في الوقت نفسه وأوتوماتيكياً إلى المرأة التي ترفض أن تكون ملكية رجل معين. وكما رأينا، على الرغم من التهديدات المستمرة كان ولاء النساء العبريات، وكذلك الرجال أيضاً، استمراراً في الحقيقة لعبادة ملكة السماء. وبمعلهم هذا كان الكهان يرمزون إلى الفتاة «بنت صهيون» ويحكم على هذه البنت بأنها مومس غير مؤمنة.

أرميا وإشعيا وحزقيال وهوشع وناحوم استخدموا جميعاً المجاز الجنسي استخداماً موسعاً، ويضع أرميا، الكاهن اللاوي، المسألة على هذا النحو: «يقولون إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده صارت لرجل آخر فهل يرجع إليها بعد؟ ألا تنتجس تلك الأرض نجاسة؟ أما أنتِ فقد زنيّتِ بأصحاب كثيرين، لكن ارجعي إليّ يقول الرب» وفي مقطع آخر أيضاً يقرن ارتداد العبريين بالزوجة الخائنة قائلاً «حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها» وفي تقرير آخر يتهم العبريين «هل رأيت مافعلت العاصية إسرائيل. انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك».

بكل غضب يتكلم كأنه يهوه متسائلاً «كيف أصفح لك عن هذه. بنوك تركوني وحلفوا بما ليست آلهة. ولما أشبعتم زنوا. وفي بيت زانية تراحموا» (أرميا ٥: ٧). ومرة أخرى استخدم التشابه، فنحن نقرأ في أرميا ٣: ٦ - ١٠ وقال الرب لي في أيام يوشيا الملك. هل رأيت مافعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك. فقلت بعدما فعلت كل هذه ارجعي إليّ فلم ترجع، فرأت أختها الخائنة يهوذا، فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذ زنت العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيها كتاب طلاقها لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هي أيضاً. وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض وزنت مع الحجر والشجر (تحدث أرميا بهذه الكلمات بعد قرن تقريباً من سقوط

المملكة الشمالية على يد سرجون الثاني الآشوري عام ٧٢٢ قبل المسيح).

والكاهن النبي اللاوي حزقيال يخبر جماعته «وكان إليّ كلام الرب قائلاً يا ابن آدم كان امرأتان ابنتا أم واحدة. وزنتا بمصر. في صباهما زنتا. هناك دغدغت ثدييهما وهناك ترغزغت ترائب عنريتهما واسمهما أهولة الكبيرة وأهلوية أختها وكانتا لي وولدتا بنين وبنات. واسماهما السامرة أهولة وأورشليم أهلوية». وكل الإصحاح ٢٣ يصف السلوك الجنسي «الرذيل» لهاتين الأختين «وأبطل رذيلتك عنك وزناك من أرض مصر» وأخيراً يلخص مايريد «وهكذا أبطل الرذيلة من الأرض فتأدب جميع النساء ولا يفعلن مثل رذيلتكما ويردون عليكما رذيلتكما فتحملان خطايا أصنامكما وتعلمان أنني أنا السيد الرب». وفي مقطع آخر يحذر حزقيال: «ويحرقون بيوتك بالنار ويجرون عليك أحكاماً قدام عيون نساء كثيرة وأكفك من الزنى وأيضاً لاتعطين أجرة بعد».

ويتحدث ناحوم عن مدينة نينوى، وهي مركز ديني للربة البابلية عشتار، فيغضب على الربة وجنسياتها بهذه الطريقة «من أجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر الباتمة أماً بزناها وقبائل بسحرها هأنذا عليك يقول رب الجنود فاكشف أذالك إلى فوق وجهك وأري الأمم عورتك والممالك خزيك واطرح عليك أوساخاً وأهينك واجعلك عبدة ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثي لها. من أين أطلب لك معزين».

إلا أن الإصحاحات القليلة الأولى من سفر هوشع تصف وصفاً أوضح غضب الرجل العبري على الزوجة التي رفضت أن تكون من ملكيته الخاصة. أولاً نقرأ أن يهوه أخير هوشع «أذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب»؟ ثم يتحدث إلى ابنة «الزنى» و «الرذيلة» من أمها جومر، التي يبدو أنها كانت امرأة معبد مقدسة. فيما بعد أمرت جومر أن تترك زناها ورذيلتها فأجابت «سأسعى خلف عشاقى». ورداً على هذا التمرد هدّد الإله الذكر أنه سيحبط نشاطاتها إلى أن قالت أخيراً يئأس «سوف أذهب وأعود إلى زوجي الأول».

لا يتضح لنا فيما إذا كانت هذه الكلمات لهوشع أو ليهوه لأنها أصلاً كلمات هوشع لزوجته، ولكننا نقرأ «أبطل كل أفراحها وأعيادها ورؤوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها واضرب كرمها وتبينها للذين قالت هما أجرتي التي أعطانيها محبي واجعلهما وعراً فكلهما حيوان البرية وأعقابها على أيام بعليم التي فيها كانت تبخر لهم وتترين بخزائمه وحليها وتذهب وراء محبيها وتنساني أنا يقول الرب يهوه»

عندئذ يستمر هوشع ويقول لذلك تزني بناتكم وتفسق كناتكم، لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كناتكم لأنهن يفسقن، لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى».

ثم تقدموا وفي المدينة ذبحوا:

الإهانة لاتوجه إلى النساء وحسب، ولكن هناك تهديداً بالعنف أيضاً. ففي سفر أرميا، يهدد ذلك النبي غاضباً «بنت مصر وصور وصيدا وعسقلان» وهي إشارة رمزية إلى الربة عن طريق المدن التي أشار إليها. وفي مقطع آخر يحذر النساء اللواتي أفصحن صراحة عن نيتهم في متابعة عبادتهم ملكة السماء بأنهن سيواجهن المجاعة والقتل والدمار الشامل نتيجة عقائدهن الدينية.

وقد شحن النبي أشعيا بهذا الموقف فيصرخ «شعبي ظالموه أولاد ونساء يتسلطن عليه» ويتوجه بالاتهامات إلى «بنت بابل» إشارة إلى عشتار فيعيرها لكبرياتها وجنسياتها وكذلك لتعاويذها وقواها السحرية. وحول مايدو استقلالاً للنساء العبريات، اللواتي تأثرن كما هو واضح بحرية النساء اللواتي حولهن، يسرد أشعيا قائمة بزيتهن وأغوائهن بكل احتقار ثم يهدد «رجالك يسقطون بالسيف وابطالك في الحرب فتحن وتنوح أبوابها وهي فارغة تجلس على الأرض. فتمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا ليدع فقط اسمك علينا. انزع عارنا».

وهكذا انتظر النبي العبري متطلعاً إلى اليوم الذي ينتصر فيه الذكر عندما تختار كل النساء المستقلات أن يكن ملكاً لرجل، مثلما أجبروا هم على التيه في الصحراء، أو كما حرق مدنهم وقتلت عائلاتهم وسبت القبائل العبرية زوجاتهم الإسرائيليات القدامى. وفي النضال من أجل النسب الذكوري حلم أشعيا باليوم الذي تقول فيه النساء «ألا فلندع بأسمائنا وحسب».

وفي الإصحاح الثامن من سفر حزقيال نجد دين الربة أيضاً يتعرض للهجوم ويتذكر حزقيال هذا الحادث «ودخلت بوابة المعبد واخترقت الجدار فكان هناك باب». شكل غريب كان يقوده، ومن الواضح أنه رسول من عند الإله الذكر. قال الشكل «ادخل وانظر الرجاسات الشريفة التي هم عاملوها هنا. فدخلت ونظرت وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط على دائره». وحسب مفهوم حزقيال فإن الأشياء الرجسة التي يقوم بها عباد الربة داخل المعبد هي التوجه إلى الشرق والانحناء للشمس ورفع غصن إلى الأنف. وهذا الغصن هو من

الشجرة المقدسة المعروفة باسم عشيرة. ويتابع حزقيال «فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال إذا هناك نسوة جالسات يكيّن على تموز فقال لي أرايت هذا يا ابن آدم. بعد تعود تنظر رجاسات أعظم من هذه». وتكشف هذه الملاحظة أكثر من غيرها أنه كان يراقب دين عشتاروت/ عشتار - الذي ظل يمارس في المعبد الذي في أورشليم.

عندئذ يقول الشكل الغامض «يا ابن آدم هل ترى ذلك؟». وقد استخدم لقب «ابن آدم» هذا استخداماً متكرراً في سفر حزقيال، ربما ليذكر قراءه أن الكهنة اللاويين من أمثال حزقيال، لم يعودوا يعتبرون أنفسهم أبناء النساء. وفيما بعد، يلتفت إلى النساء اللواتي صلين بهذه الطريقة فيقول الشكل الغريب «وأنت يا ابن آدم فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتي يتبنأن من تلقاء ذواتهن «ولسن كأنياء يهوه اللاويين الذين يتصلون مباشرة مع المصدر الخاص) وتنبأ عليهن».

التهديدات والإهانات لسكان كنعان الأصليين وللعبريين الذين انضموا إليهم في عاداتهم ليست كل ما استخدم لتخويف وتوهين الشعب من اتباع دين ملكة السماء. إذ فيما بعد نقرأ وثائق عن مذابح وحشية وقتل لا يرحم لأولئك الذين ظلوا يرفضون قبول يهوه. والتوراة نفسها تسجل أن أي عبري يتجرأ أن يتعبد في الدين القديم لملكة السماء ويعلمها سيكون ضحية اضطهاد ديني عنيف.

كلمات حزقيال وتهديداته، وكذلك بقية الأنبياء ترجمت إلى قتل وتدمير، فسر على أنه أمر من يهوه. وبهذه الطريقة سجلت في صفحات العهد القديم:

«وقال له الرب. اعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسم سمة على جباه الرجال الذين يمتنون ويتعهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها. وقال لأولئك في سمعي اعبروا في المدينة ورائه واضربوا. لانتشق أعينكم ولا تعفوا الشيخ والشاب والعنراء والطفل والنساء. اقتلوا للهلاك ولا تقربوا من إنسان عليه السمة وابتدثوا من مقدسي. فابتدثوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت. وقال لهم نجسوا البيت واملأوا الدور قتلى. اخرجوا فخرجوا وقتلوا في المدينة» (حزقيال ٩: ٤ - ٧).

وهناك سجل أقدم لمجزرة ضخمة باسم يهوه استهدفت دين الربة وحصلت في حكم آحاب. وقد تبنى إيليا الموقف ذاته، فسمح بأكبر معجزة عرفها التاريخ باسم المبدأ، سواء كان سياسياً أو دينياً أو الاثنين معاً. والمقطع إذ يشير إلى الأربعمئة إنسان الذين تعبدوا في الدين القديم يقول «فقال لهم إيليا امسكوا أنبياء البعل ولا

يفلت منهم رجل فأمسكوكهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك».

هذا المقطع مأخوذ من النسخة المعتمدة المراجعة للعهد القديم. ولكن في التوراة الانجليزية الجديدة التي نشرت عام ١٩٧٠ من قبل جمعيات التوراة في اسكتلندا وانكلترا، والتي ترجم الكثير من النصوص من اللغتين العبرية واليونانية الأصلية، نقرأ القصة بطريقة مختلفة جداً. والحقيقة أنه في هذه النسخة من العهد القديم توجد إشارات كثيرة إلى عشيرة أو عشائروت باسم عشيريم تفسر الحادثة على نحو أوضح. ففي التوراة الانجليزية الجديدة نقرأ أن إيليا واجه الدين القديم باعتباره دين عشيرة. إنه يخبرنا في ملوك أول ١٨: ١٩ أن هؤلاء الأربعمئة كانوا «أربعمئة نبي للربة عشيرة، الذين كانت إيزابل تعيلهم».

والواضح في قصة إيزابل، التي طالما اضطهدت كرمز للمرأة الشريرة الخائنة، أن جريمتها الحقيقية هي رفضها قبول عبادة يهوه مفضلة على هذا الدين دين أبويها، أي دين ملكة السماء وبعلاها. وأبواها كملك وملكة على صيدا (ويقال عن صور أيضاً) أحرزاً مركزاً رفيعاً في الدين القديم باعتبارهما كاهناً وكاهنة رفيعي المكانة. ولم تتبع إيزابل نفسها الدين القديم فقط بل أيضاً طبقاً للتوراة تبنت، نتيجة تأثيرها في زوجها آحاب ملك إسرائيل الأساليب الوثنية أيضاً فنصبت العشيريم في المعبد. وجريمة إيزابل المفترضة التي تبدأ من شائعة أنها تسببت في موت رجل، تصبح موضع شك عندما نتحقق أن زوجها هو فعلاً الذي رغب في ملكية الرجل الميت، وبناء على رسائل موقعة باسم آحاب اتهمت هي.

قتلت إيزابل بأشنع طريقة على الإطلاق، وصفتها التوراة بتفصيل مرعب، والقصد لاشك هو تحذير كل النساء «الخائئات» الأخريات. وقد تم إعدامها على يد بطل عبري متقم اسمه ياهو. ولكن دوافع ياهو تصبح واضحة وضوحاً مخيفاً عندما دبر، بعد موت الملكة «الوثنية» مجزرة لأولئك الذين «طعموا على مائدتها» ثم زعم أخيراً أن عرش إسرائيل يخصه وحده.

وبعد قتل إيزابل بوقت قصير دعا ياهو إلى عقد اجتماع مهيب للناس الذين يقدمون التقدير لعشتاروت والبعل، فخدعهم بهذه الطريقة وجمعهم معاً في معبدهم الخاص في وقت معين. وصف المقام المقدس بأنه غصّ من جانب إلى جانب. وقد جاء في التوراة ذاتها «ودخلوا ليقربوا ذبائح ومحرقات. وأما ياهو فأقام خارجاً ثمانين رجلاً وقال الرجل الذي ينجو من الرجال الذين أتيت بهم إلى أيديكم تكون أنفسكم بدل

نفسه». ويخبرنا سفر الملوك الثاني أن ياهو ورجاله قتلوا كل الأعضاء المصلين ثم حول البناء نفسه إلى مرحاض. وعندما أتمَّ المجزرة سمع ياهو صوت يهوه يقول «إنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم في عيني» (انظر الملوك الثاني ١٠: ١٨ - ٣١).

ثم تركوه يحزّر كتاب طلاقها:

إن الأدلة وفيرة. فدين عشتاروت أو شعيرة، أو عنات وبعلا - وما يصاحبهم من الاستقلال الجنسي للأنتي - هم أعداؤهم. ولا توجد طريقة تعتبر عفيفة لتحقيق الأهداف المطلوبة. وحتى توضح الأهداف الخفية لللاوين، إلى جانب تلك المذابح، فلا بد من أن نواجه القواعد التي أعلنها اللاويون لكل النساء العبريات. ولدى قراءة القوانين اللاوية يصبح واضحاً أن الاستقلال الجنسي للنساء في دين الربة يشكل تهديداً مستمراً. إنه يقضي على الأهداف البعيدة للرجال الذين يقودهم الهندوأوروبيون أو الذين تأثروا بالهندوأوروبيين الذين رأوا في النساء ملكية ورموا إلى إقامة مجتمع يكون النسب الأبوي فيه هو القاعدة، كما كان في الأمم الهندوأوروبية منذ أمد طويل. وهذا يتطلب بدوره أن تبقى أي امرأة ملكية لرجل واحد، فلا تترك شكاً حول هوية والد الطفل الذي قد تحبل به، وعلى الأخص الأبناء الذكور. لكن سلاطات القرابة الذكورية ظلت مستحيلة ما دام يسمح للنساء أن يمارسن وظيفتهن كبشر مستقلين جنسياً، فيحبلن بأطفال لانعرف أبوتهم أو يعتبرون مخلوقات بلا أهمية.

لكن القوانين والخطابات وحتى الكلمة الإلهية لم تكن كافية مادامت الحرية هي الشائعة. لذلك فإن كل هذه العقوبات الشديدة صممت ونفذت لغرض السيطرة الجنسية الكاملة على النساء العبريات. أي انحراف كان خطيئة وفي حالات كثيرة تعاقب بالنبد وبالمرت العنيف. (ومع أن هذه القوانين تبدو في سفر اللاوين والثنية، وقيل إنها كتبت أيام موسى، فإن الدارسين التوراتيين يؤرخون الكتابات بين ١٠٠٠ و ٦٠٠ قبل المسيح) وطبقاً لقوانين اللاوين، تبقى جميع النساء عذراوات حتى الزواج. وحالما تتزوج المرأة زواجاً شرعياً فإنها لاتقوم بالعلاقة الجنسية إلا مع رجل واحد هو الذي تقرر أن يكون زوجها والأرجح أن يكون قد اختاره لها أبوها. هذا الزوج قد يملك، أو سوف يملك في المستقبل، أي عدد من الزوجات أو المحظيات الأخريات وهو حر أن يضيف زوجة جديدة في أي وقت.

في سفر اللاوين ٢٠: ١٠ نقرأ أنه إذا اقترفت امرأة فعل الزنى فإنها وعشيقها

يحكمان بالموت. وفي سفر التثنية كتب اللاويون عن العروس الإسرائيلية: «ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً ولم توجد عذرة للفتاة يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها فتنزع الشر من وسطك» (تثنية ٢٢: ٢٠ - ٢١). وهكذا يمكن للفتاة العبرية أن تخرج من البيت وترجم ظلماً حتى الموت - لأنها مارسات الحب أو حتى لأنها فقدت عذريتها بسبب عمل آخر أو بسبب حادث عرضي بينما معاصراتها الكنعانيات يعتبرن مقدسات لأنهن شاركن في العادات الجنسية المقدسة.

وبتقرير اللاويين هكذا تطور الاحترام المتعلق بأبوة الأطفال حتى صار الاغتصاب العنيف بينهم مساوياً للزواج كما كان بين الأشوريين الذين كانوا تحت سيطرة الهنودوأوروبيين. في القانون اللاوي كان اغتصاب العذراء يحظى بالاحترام كأنه إعلان عن ملكية وزواج قهري. وكضحية للاغتصاب تفقد المرأة أوتوماتيكياً حق استمرار حياتها كامرأة مفردة أو أن تصبح زوجة في زواج مدروس ومرغوب. وجاء في القانون «إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة واضطجع معها فوجداً، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة» (تثنية ٢٢: ٢٨ - ٢٩).

أما بالنسبة إلى الفتيات اللاويين فقد نص القانون «وإذا تدنس ابنة كاهن بالزنى فقد دنست أباهاً. بالنار تحرق» (لاويون ٢١: ٩). وبما أن الكهنة اللاويين هم الذين سنوا القوانين فإن هذه الرغبة في حرق بناتهم حتى الموت تفصح بوضوح عن الموقف اللاوي تجاه الاستقلال الجنسي للنساء.

ومما يدعو إلى الدهشة هو القانون الذي يخبرنا أنه إذا كانت ضحية الاغتصاب امرأة متزوجة أو مخطوبة فيجب أن تقتل - لأنها اغتصبت. وينص القانون أنه إذا اغتصبت عنفاً امرأة متزوجة أو مخطوبة فإنها ترجم مع الفاعل بالحجارة حتى الموت (تثنية ٢١: ٢٣ - ٢٥). فالمغتصبة تعتبر متحدية للذكر الذي يملكها. ولكن في البرية البعيدة يمكن أن «تقدر» المرأة إذا اغتصبت مادامت طلبت المساعدة فصرخت ولم يسمعها أحد.

ومع أن التوراة تعلن باستمرار أن المرأة التي تتجراً وتمارس الحب مع رجل آخر غير رجلها هي عار وانحطاط يدنس كل الإيمان، فإن الرجال العبريين يجمعون بكل اعتراض وكرامة كثيراً من النساء بمقدار مايسمح لهم وضعهم الاقتصادي. وتكشف سجلات

الملوك العبريين أنهم احتفظوا بعدد ضخم من الحرم ومعظم العبريين اتخذوا عدة زوجات، ومع ذلك يفرض على كل حرمة من أولئك الحرم الإخلاص الكامل لجزء من هذا الزوج الذي فرض عليها. ويبدو أن عدم الإخلاص من طرف الزوج هو شيء مسلم به، إلا إذا كانت المرأة الأخرى متزوجة من قبل أو مخطوبة. وقد اعتبر هذا خطيئة لأنه خرق شرعي للملكية رجل آخر. ومن الصعب أن يعتبر الإخلاص الرومانسي لكل من شريكي الزواج على أنه هام ومقدس، وإنما فقط بالنسبة للمرأة تعتبر عذريتها قبل الزواج وإخلاصها الجنسي موضوعات «أخلاقية» وهي مواقف مازال ظاهرة حتى اليوم.

ولكن وضع المرأة المتزوجة التي أخلصت لزوجها كان أيضاً وضعاً قلقاً. ففي الثانية ٢٤: ١ تبدو ورطة المرأة المتزوجة واضحة «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء كتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته». وكما قرأنا سابقاً فإن الزوج فقط في ظل القانون اللاوي يمكن أن يطلب الطلاق، والحقيقة أن كل ما عليه أن يفعله هو أن يكتب قصاصة صغيرة من الورق. هذا المجتمع نراه مختلفاً كل الاختلاف عن مجتمع اشنونا السومري، حيث إذا اتخذ رجل زوجة ثانية بعد أن تكون زوجته الأولى قد أنجبت له أولاداً، فإن عليه أن يغادر المنزل من دون أي ملكية.

هنا تتضح تماماً امتيازات النسب الذكوري والوراثة الذكورية ليس فقط تجاه المملوكية أو الكهانة بل أيضاً تجاه الذكر العادي. فالمرأة التي عاشت في المنزل مع زوجها أنجبت له الأطفال وقامت بالخدمات المنزلية وربما أضافت أو رفعت قيمة المنزل والأرض بجهودها، للاحقون شرعية لها في أي شيء من ذلك، بغض النظر عن سنّها وصحتها. كل ما في الأمر أنها تستلم هكذا وبكل بساطة قصاصة ورق فتغادر البيت وتذهب في حال سبيلها. بعدئذ يحوز الزوج على ملكية كل منتجات عمرها وجهودها، فإن لم يكن قد اقتنى من قبل زوجة أخرى أو اثنتين، فإنه يسرع ويحل محلها امرأة أو امرأتين. وبما أنها فقدت عذريتها فإنها تصبح مادة غير صالحة للزواج.

إنما أتيت لأدمر أعمال الأنثى:

استمرت عمليات القمع والاضطهاد للدين الربة الأنثى قروناً عديدة. في «العبودا زاراح» وهو سفر من التلمود العبري جمع قرابة القرن الخامس قبل المسيح توجيهات قدمت للعابد الورع تعلمه كيف يدمر قوى «الوثن». ويمكن أن يتحقق هذا بنزع قمة

أنفه أو أذنه (التي يمكن أن تحسب من جملة الأنوف المفقودة لكثير من التماثيل). والسفر كله مملوء بالقوانين والترتيبات الخاصة التي تصف العلاقة التي على العبريين أن يقيموها مع «عبدة الأوثان».

إن الحضارات التي كانت تعبد الربة التي ازدهرت لمدة أربعة آلاف سنة، وقد جلبت معها منذ العصور القديمة اختراعات في طرائق الزراعة والطب والعمارة والتعدين والعربات ذات العجلات والنسيج واللغة المكتوبة أخذت تزول تدريجياً. ومع أن الهنود وأوروبيين بدأوا بإحداث تغييرات كثيرة وعظيمة، فقد كان على كل يهودي فيما بعد، ومن ثم على كل مسيحي أن يضطهد ويدمر الربة الأنثى حيثما وجدت.

إذا اتبع العبريون أوامر سفر التثنية فإن المذابح التي وصفت في العهد القديم لن تكون سوى قسم رمزي للقتل والتدمير اللذين ارتكبا فعلاً. وبما أن الأدب ومعتقدات الدين العبري اللاوي تضافرت في الإيمان الجديد الذي تطور تدريجياً إلى المسيحية، فإن اضطهاد دين الربة ما يزال مستمراً. إن قوة وتأثير الكنيسة الجديدة تعاضلاً، والقانون اللاوي الآن يقف إلى جانب الصورة المنقحة عن الأسطورة المألوفة للأُم وابنها القتل ومعها وقع المزيد من قمع الدين الأنثوي.

في عام ١٩٧١ كتب ويت في مجلده «إيزيس والعالم اليونانروماني» وفيه يستنتج أن عبادة ربة مثل إيزيس وأرتيميس، الاسمين اللذين شاع استخدامهما زمن المسيح، كانت هدف الرسول بولس. ويفسر أنه:

«في كل من فلسطين وسوريا، كما في آسيا الصغرى التي تركزت فيها - حماسة بولس الرسولية، كانت عبادة الآلهات الأنثوية قديمة جداً ومتجذرة عميقاً... والوعظة التي هاجمت الوثنية التي أبدتها أهل أفسس تجاه الربة العظيمة أرتيميس لم تكن تفصيلية. ونحن لانشك في أن بولس أخذ بعين الاعتبار والحسبان الآلهات الأنثوية اللواتي كان تأثيرهن يمتد عميقاً وعلى الأخص أرتيميس وإيزيس... وبولس لا يستطيع أن يعلن أن هنا منافساً خطيراً... ومن الواضح أن نظرة بولس إلى الإيزيسية كانت ولاشك نظرة نقدية. كان عالم بولس أبوياً، وكان دينه مسيحياً وحدانياً، وكان الله على شكل رجل. إيزيس كانت امرأة... والعدو الواضح للكنيسة في بواكير نضالاتها المسكونية كان عبادة إيزيس وخدام معبدها. وقد كان هذا واضحاً حتى قبل الضربة المميتة التي تلقتها الوثنية على يد ثيودوسيوس».

كما أن ويت يقتبس أيضاً أعظم سطر فاضح في قصة تدمير دين الربة، فيخبرنا أن

كليمنت الاسكندري كان يكرر دائماً قولاً مأثوراً من «انجيل المصريين». إن كلمات المسيح هامة وهي في هذا السياق موجهة ولاشك ضد العبادة القائمة لإيزيس: «إنما جئت لأدمر أعمال الأنثى».

وقرابة عام ٣٠٠ بعد المسيح وضع الامبراطور قسطنطين حداً للمقام القديم لعشتاروت في أفاقا واضطهد عبادة عشتاروت في كل بلاد كنعان، زاعماً أنها عبادة «لا أخلاقية». قيل إن المسيح ظهر له في رؤيا أثناء معركة من معاركه وسمع منه هذه الكلمات «بهذه الشارة حارب». وهذه كلمات غريبة ولا تنسجم مع طبيعة أمير السلام.

في عام ٣٨٠ بعد المسيح أغلق الامبراطور ثيودوسيوس معبد ربة إلبوس ومعابد الربة في روما و«العجبية السابعة في العالم» معبد الربة الذي عرف باسم أرتميس أو ديانا في أفسس الواقعة في غرب الأناضول. قيل إنه احتقر دين النساء. هذا الامبراطور المسيحي العظيم يذكر ذكراً عظيماً لقيامه بذبح سبعة آلاف إنسان في سالونيك.

وفي أثينا حول بارثينون الاكروبول، المكان المقدس للربة منذ العصور الميكينية ١٣٠٠ قبل المسيح إلى كنيسة مسيحية عام ٤٥٠ بعد المسيح. وفي القرن الخامس حول الامبراطور جوستنيان بقية معابد إيزيس إلى كنائس.

وفي العربية في القرن السابع وضع محمد حداً للعبادة القومية لربة الشمس اللات والربة المشهورة باسم العزى التي قد يكون لاسمها علاقة بالربة القديمة وازيت. ويكتب البروفسور بتشارد أن اللات كانت في الأصل هي عشيرة في الديار العربية. وأدخل محمد عبادة الله باعتباره رباً أعلى. وكلمة الله ذاتها تعني الرب كما أن اللات تعني الربة. ومع أن ذلك لم يعرف دائماً في المجتمع الغربي فإن محمداً قد جمع ليجندات ومواقف العهدين القديم والجديد في القرآن، توراة الإسلام. ويخبرنا القرآن في السورة ٤: ٣١ «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله» (أخطأت المؤلف في تحديد الآية والصحيح أنها الآية الرابعة والثلاثون من السورة الرابعة - المترجم).

وفي أواخر القرن السادس عشر بعد المسيح جمع الباحثون العبريون نصاً عرف باسم القبالة. وكان اسم ليليث قد ورد وصفه في لوح سومري على أنه «يد إينانا» التي تجلب الرجال إلى المعبد، ويظهر هذا الاسم ثانية في الأدب العبري كزوجة آدم الأولى التي رفضت أن تضطجع تحته وأن تطيع أوامره. وقدمت ليليث في القبالة على أنها رمز

للشر، على أنها شيطانة أنثى. وكتب شوليم أنه جاء في الزوهار، وهو قسم من القبالة أن «ليليث ملكة الشياطين أو أن حاشيتها من الشياطين الذين يسعون جاهدين لتحرير الرجال على الأفعال الجنسية من دون معونة امرأة، وهدفهم جعل أنفسهم أجساداً من البذور الضائعة».

فالزوهار يحذر من أن ليليث تهيم على وجهها منتظرة العثور على حيوانات منوية تخلق منها الأبالسة والأطفال غير الشرعيين. وقد حذرت القبالة أن الأطفال غير الشرعيين إنما يولدون بمعونة ليليث. فهل هذه إشارة إلى القادشوت القديمة التي تجسدت صورتها الآن في الشيطانة الساحرة ليليث؟ والعامل الأكبر الذي يساعدنا على تجنب ليليث الخطيرة هو أيضاً قضية الوراثة. ويتضح هذان وصف أفعال الأطفال غير الشرعيين، الذين توفي والدهم.

إن شوليم يخبرنا:

يرغبون مثل بقية الأطفال ليشاركوا في الميت كأبيهم فيلطمون وينتفون شعورهم عليه، حتى يشعر بالألم والرب نفسه عندما يرى هذه الذرية المقيتة في الجنة يتذكر خطايا الإنسان الميت... وكل الأطفال غير الشرعيين مع الأبالسة الذين خلفهم أثناء حياته يظهرون بعد موته ويشاركون في النواح عليه في جنازته... فالأبالسة يطالبون بحقهم الوراثي في هذه المناسبة مثل بقية أبناء الميت ويحاولون إيذاء الأطفال الشرعيين.

خلاصة:

لقد رأينا أن أوامر تدمير دين الربة أنشئت ضمن قوانين الأديان الذكورية التي حلت محله. ومن الواضح أن الاحترام القديم للإلهة الأنثى لم يتوقف ببساطة وإنما حدث اضمحلاله تدريجياً، أولاً على يد الهنود وأوروبيين وفيما بعد على يد العبريين ثم على يد المسيحيين وأخيراً على يد المسلمين. وإلى جانب الموافقة المطلقة على الأديان الذكورية في قسم كبير من العالم، فإن معلمي «الأخلاق» الجنسية، أي العنصرية الأولية والإخلاص الزوجي للنساء اندمجوا في مواقف وقوانين المجتمعات التي تحيط بهم.

لا يوجد أي شيء حول العداء الذي عبر عنه الآباء اللاويون تجاه دين الإلهة الأنثى. إن السجلات التي ربما تنقلت على شكل شفهي، المأخوذة من الكتابات العبرية الأخرى أو بعض اللغات الأخرى، صارت جزءاً من النصوص التوراتية التي يفترض أنها كتبت كما نعرف قرابة عام ١٠٠٠ قبل المسيح. ويبدو أن اللاويين منذ زمن موسى وما بعد قد اتخذوا قراراً بتدمير هياكل ومذابح العبادة القديمة. ومنذ ذلك

الوقت وحتى سقوط الأمتين العبريتين في ٧٢٢ قبل المسيح و٥٨٦ قبل المسيح، نقرأ في التوراة عن المذابح والانتهاجات الحقيقية التي زعموا أنها تنفيذ لأمر الإله المذكور. ولا نستطيع تجاهل ملاحظة التأكيد الدائم على الجنسية الأنثوية التي لا تقبل إلا إذا كانت النساء من ضمن ملكيات ذكر ما، وكل انحراف عن هذه القاعدة كان يعتبر دعارة وزنى ويخضع لعقوبة الموت مما جعل العادات الجنسية للدين القديم من الصعب اتباعها.

وبالنتيجة فليس من باب التأمل أن نفترض أن أسطورة آدم وحواء، الأسطورة التي يخبرنا البروفسور شيرا عنها أنها تقدم الدليل أنها «انتجت في قلب دوائر التعليم» قد تكون كتبت عن عمد وأدخلت في قصة التكوين التوراتية كهجوم آخر على دين الربة.

داخل أسطورة الخلق نجد أن كل شيء موجود ويحيا بأمر من يهوه، ونعتقد أن القصة التي يفترض أن تحدث عما جرى في البدايات الأولى للزمن، فتقدم لنا صورة المرأة فتانة غاوية خطيرة، جلبت السقوط على كل البشرية، قد أدخلت في أسطورة الخلق إدخالاً. أما وقد عرفنا مما قدمنا عن العادات الجنسية المقدسة في دين الربة، والحضور الدائم لهذه العادات بين العبريين حتى في أورشليم، واستخدام أساطير التين أو الأفعوان والأغلب أن الهندوأوروبيين ربطوها بقصة الخلق وبقايا أسطورة اللويثان في العهد القديم، فقد نحصل على وضوح أكثر ونظرة مضيئة في الرمز والرسالة التي تشتمل عليها الأسطورة التوراتية عن آدم وحواء.

فاختبار الخيال الرمزي لدين الربة والخيال الرمزي لقصة سفر التكوين عن الخلق في الفصل التالي سوف يقدم بعض المعلومات المدهشة. فقد نبدأ نفهم ماذا تعني التوراة عندما تخبرنا أن حواء عصت الإله الذكر وبدلاً من طاعته تبعته كلمة الحية وارشادها. وقد نجد فعلاً أن أسطورة الفردوس التي تراءى في منتهى البراءة وكيف بدأ العالم إنما وضعت بعناية حريصة وراحت تدعو إلى «الاحتفاظ بالنساء في مكانهن» المكان الذي خصصته لهن القبيلة اللاوية في كتعان التوراتية.

الفصل العاشر

حل لغز أسطورة آدم وحواء

أول ما انكبت على دراستي لعبادة الإلهة الأنثى، كانت تحركني إلى حد بعيد صورة المرأة التي قدمتها اليهودية والمسيحية - المرأة التي اسمها حواء. وكلما اكتشفت مزيداً من الطقوس والرمزية عند أولئك الذين يجعلون الجدة المقدسة، صرت أكثر قناعة أن أسطورة آدم وحواء التي لاشك أنها قصة ذات وجهة نظر مع إعلان منحاز في نهايتها، إنما هي أسطورة صممت تصميماً متعمداً لتستخدم في المعركة اللاوية المستمرة لقمع الدين الأنثوي. ربما كانت هذه النسخة هي أكثر النسخ تحديثاً لأسطورة التين أو الأفعوان التي ماتزال بقاياها في التوراة في سفر المزامير وفي سفر أيوب.

كان الإيمان الأنثوي بنية ثيولوجية مركبة، يؤثر في كثير من أركان حياة أولئك الذين يقدمون لها الإجلال. وتطور عبر آلاف السنين وكانت رمزته غنية ومعقدة. فرموز من أمثال الأفاعي وأشجار الثمار المقدسة والنساء المغويات جنسياً اللواتي يتبعن النصيحة من الأفاعي قد تكون فهمت من قبل شعب أزمنة التوراة على أنها ترميز للحضور المألوف للإلهة الأنثى. في أسطورة الفردوس قد تكون هذه الصور فسرت مجازياً بأن الاستماع إلى النساء اللواتي يجلن الربة تسبب مرة في طرد كل البشرية من المنزل المبارك الأصلي في عدن.

الأفاعي المقدسة والرؤيا النبوية:

فلنبداً بالأفعي. يبدو أن الوجود بكامله يبدأ بأفعي في بعض البلدان. فعلى الرغم من التأكيد على فرضية أن الأفعي اعتبرت رمزاً للقضيب الذكري، يبدو أنها قدست في الأصل باعتبارها أنثى في الشرقيين الأدنى والأوسط وارتبطت تلريجياً بالحكمة والاستشارة النبوية أكثر مما اتصلت بالخصب والنماء كما يفترضون في أغلب الأحيان.

فالربة نيدابا، كاتبة السماء السومرية، المتعلمة في الهيئات المقدسة، التي عبدت أولاً

كإلهة زعيمة للكتابة، كانت أحياناً ترسم كأفعى. وفي مدينة دير السومرية كان يشار إلى الربة أحياناً باعتبارها الربة الأفعى المقدسة. والربة نليل التي قيل أحياناً أنها أدخلت الزراعة وبالتالي الحضارة إلى شعبها، قيل إن لها ذيل أفعى. وفي عدة ألواح سومرية كانت الربة تسمى الأفعى الأم الكبرى للسماء.

وقد أكد ستيفن لانغدون، الأركيولوجي الذي قاد الحفريات الأولى لسومر، وعلم فيما بعد في أكسفورد، أن إينانا التي كانت تعرف وقتها باسم إينيني كانت وثيقة الصلة بعبادة الأفعى. كما وصفها بأنها الأم المقدسة التي وضعت القوانين. وكتب أن الربة التي عرفت باسم نينا، التي ليست أكثر من شكل آخر لاسم إينانا، وربما كان الاسم الأقدم، كانت ربة أفعى في المراحل السومرية الأكثر قدماً. وشرح أنه بالنسبة لنينا فإنها احترمت كربة نبوية ومفسرة للأحلام وقد سجل هذه الصلاة عن لوح سومري: «يانينا الطقوس الكهنوتية، ياسيدة القوانين العظيمة إنك أنت نبية الآلهة». وعلق أن «الدليل يشير إلى ربة أفعى أصلاً كمفسرة لأحلام المستقبل المستور». واكتشفت عدة نقوش في سومر يرجع تاريخها إلى ٤٠٠٠ قبل المسيح، تصور شكلاً أنثوياً مع رأس أفعى.

ويكتب الدكتور ولتر هنز عن عيلام الواقعة شرقي سومر تماماً حيث كانت الربة في العصور القديمة تحكم حكماً مطلقاً فيخبرنا «... قسم من هذا التفرد (في عيلام) يتألف من التبجيل الخاص والاحترام للأتوتة الخالدة وعبادة الأفاعي التي تعود جذورها إلى السحر... حتى فخاريات الألف الثالث والرابع تكثر فيها رسوم الأفاعي...».

عشتار بابل، وهي خليفة إينانا كانت متوحدة مع كوكب اسمه فينوس (الزهرة - المترجم). وكان هذا الكوكب في بعض النصوص البابلية يدعى ماسات، وتعني حرفياً النبية. وترسم عشتار متربعة على العرش الملكي للسماء تحمل صولجاً وقد التف عليه أفعوانان. وأحد الأختام البابلية يظهر عشتار تمسك صولجاً بأفعوان ملتف ونقش فيه «ربة الرؤيا في كيسورو» و «نبية كوا». وتقدم الألواح البابلية سجلات عديدة للكاهنات اللواتي يقدمن الإرشاد النبوي في مقامات عشتار، وبعضها هام جداً في سجلات الأحداث السياسية.

وحتى في أسطورة كاسيت البابلية جاء أن تيامات كانت أول مخلوق مقدس. وطبقاً لهذه الليجندة كانت ألواح القدر بيد تيامات التي بعد قتلها زعم مردوخ أنها تخصه هو. وقد وصفت تيامات في هذه الأسطورة أنها تين أو أفعى. فالارتباط

الحقيقي للأفعى بالإلهة الأنثى كان السبب الواقعي لاستخدام هذا الرمز في الأساطير الهندوأوروبية.

وفي جزيرة كريت تظهر الأفعى في عبادة الإلهة الأنثى على نحو متكرر أكثر من أي مكان آخر في المنطقة المتوسطة. إن كل المتوجات الفنية التي نقب عنها في الجزيرة والتي ترسم الربة أو كاهنتها تحمل الأفاعي في يديها أو تلتف حول جسدها، تكشف أنها كانت جزءاً مكماً للطقوس الدينية. وإلى جانب تماثيل الكاهنات اللواتي تلتف الأفاعي عليهن هناك أشياء أسطوانية طينية أيضاً تلتف حولها الأفاعي، اكتشفت في كريت. ووصفها آرثر إيفانز الأركيولوجي الذي نقب عن القصر الكريتي في كنوسوس بأنها «أنابيب أفغوانية» ورأى أنها استخدمت لإطعام الأفاعي المقدسة التي كان يحتفظ بها في مذابح الربة الكريتيّة. وهناك أدلة وفيرة عن الطبيعة المقدسة للأفعى. إلى جانب الربة ظهرت في الحقيقة أكثر ما ظهرت في كريت حتى أن كثيراً من الأركيولوجيين يشير إلى الربة الأنثى باسم الربة الأفعى.

وبعد أن قدم إيفانز الدليل الداعم، أكد أن سيدة الأفاعي في كريت مشتقة أصلاً من عبادة الربة كوبرا في مصر قبل ظهور السلالات. ورأى أن عبادة الربة الأفعى قد تكون دخلت إلى كريت قرابة عام ٣٠٠٠ قبل المسيح. وهذا التاريخ هو ذاته التاريخ الذي تشكلت فيه السلالات الأولى في مصر، ثم يرى أيضاً أن هذا التاريخ هو أيضاً تاريخ فرار المصريين إلى كريت نتيجة الغزوات التي حصلت في ذلك الزمن.

كان استخدام الكوبرا في دين الربة في مصر منذ القدم بحيث أن أي اسم ربة كان يسبق بكلمة كوبرا (أي أن صورة الكوبرا كانت الشارة الهيروغليفية لكلمة الربة). كانت الربة في مصر ماقبل السلالات في مصر السفلى (الشمال) هي الربة الكوبرا المعروفة باسم وازيت. ولم يعرف الشيء الكثير عن هذه الربة الكبرى القديمة، لكننا نراها أخيراً على شكل كوبرا أوراوس (الأفعى المقدسة - المترجم) التي توضع على جبين الآلهات الأخريات وعلى الأسرة الملكية. وقد عرفت الكوبرا كعين، أي وازيت، رمزاً للحكمة والاستبصار السري. وأخيراً فإن ما اشتق من الربة الكوبرا يعرف بالعين من أمثال حاتور وماعت، وكتلها عرفت باسم العين. وهذا المصطلح في أي سياق استخدم كان يكتب دائماً بالشكل المؤنث. إن وضع العين وارتباطها بالآلهة الذكر مشروح في الفصل الرابع. فربة مثل حاتور كانت أيضاً مرتبطة مع الإله الذكر حورس. واسمها يعني فعلاً بيت حاتور. لكن أحد النصوص احتفظ بالقصة أن حاتور كانت الأفعى التي وجدت قبل وجود أي شيء آخر. عندئذ صنعت السماء فالأرض وعليها

خلقت كل ماهو حي. وفي هذه القصة كانت غاضبة مع أن النص لا يوضح السبب. فقد هددت بتدمير الخلق بأسره وتستعيد مرة أخرى شكلها كأفعى.

وهناك مقام نبؤي ينتصب في المدينة المصرية بونو، وهي إحدى أقدم مركز ديني للربة الكوبرا. وقد عرفت المدينة باسم يروتو في المصرية، ولكن الإغريق سموها بوتو، كما أطلقوا هذا الاسم على الربة الكوبرا ذاتها. هذا المذبح كان مكرماً في العصور الكلاسية اليونانية للربة المشهورة باسم لوتو، ولكن أيضاً كان الموقع نفسه ذات مرة مذبح الإرشاد النبؤي للربة وازيت نفسها. وقد اطلعنا هيرودوت أنه رأى عدداً ضخماً من الهياكل العظمية للأفاعي في تلك المدينة.

في اليونان تتاح لنا نظرة أقرب إلى مشتقات الربة الأفعى المصرية والكريتية. ومع أن طبيعة الدين خضعت لبعض التحولات الكبيرة بعد غزوات الآخين والدورين، الذين جلبوا معهم عبادة زيوس، فإن كثيراً من بقايا الصور والرموز القديمة مازال قائمة. وقد تجلّى هذا بنوع خاص في الشخصية البطولية لأثينا. إن أفعاءها دائماً تظهر في الليجندات والرسوم والنقوش. في بعض التماثيل تطل من تحت ترسها البرونزي العظيم أو تقف إلى جانبه. وهناك بناء معروف باسم الأركتيوم يقف في الأكروبول إلى جانب معبدها المشهور باسم البارثينون. ولكن أفعى ربة الحكمة اليونانية، التي قدست في الذرى العالية للأكروبول الأثيني لم تكن من خلق المرحلة اليونانية الكلاسية. وعلى الرغم من الليجنده الإغريقية الهندوأوروبية التي ترى أن أثينا ولدت من رأس زيوس، فإن عبادة الربة وصلت إلى الأكروبول قبل ذلك بزمان طويل - مع الربة الكريتية للمستوطنات الميكينية. فالمعابد الكلاسية للأكروبول المكرسة لأثينا اليونانية بنيت فعلاً على الأسس الميكينية.

بدأت الاتصالات تتخذ شكلاً. وكما قرأنا من قبل فإن الميكينيين كانوا الشعب الذي عاش في كريت في عصر كنوسوس قرابة عام ١٤٠٠ قبل المسيح. لقد ضموا الحضارة الكريتية المينوسية إلى حضارتهم الخاصة إلى درجة أن العبادة كانت توصف بالدين الميكيني المينوسي. فطرارز الثياب والخواتم الطابعة واللوحات الجدارية والأختام والمنتجات الفنية من كل الأنواع تكشف التشابه الكبير للعقائد الدينية الميكينية مع عقائد الكريتيين. وحالما نفهم هذه الارتباطات، نتأكد من أهمية واقع أنه تحت أنقاض معابد أثينا ودلفي اليونانية الكلاسية، وكذلك تحت مقامات الإغريق الأخرى حيث كانت الربة تبجل مع أفعاءها، تضطجع البقايا الميكينية الأقدم.

إن المقام الذي ربما يقدم أعمق نظرة لارتباط الإلهة الأنثى لليونان مع ربة الأفعى لكريت هو دلفي. ففتح المعبد والأبنية الكلاسية لدلفي هناك منتجات فنية ميكينية وخرائب من مقامات أقدم اكتشفتها الحفريات. وفي العصور الأقدم كانت ربة دلفي مقدسة تماماً مثل تلك التي تقدم الرؤيا المقدسة، الكاهنة التي تخدمها. فالمرأة التي تقدم نبؤات الحكمة المقدسة تسمى بيثا. وعلى الكرسي الثلاثي الأثافي الذي تجلس عليه التف أفعوان اسمه ييثون. ومع أن ييثون في الكتابات اليونانية المتأخرة كان ذكراً، فإن السجلات الأكثر قدماً كانت تجعله أنثى. وقد اشتهرت الأفعى ييثون وصارت من الأهمية حتى أن هذه المدينة عرفت باسم ييثو. وطبقاً لما يقوله بوسانيوس فإن المعبد الأقدم في هذا الموقع بنته النساء، بينما يسجل اسخيلوس أنه في هذه المقامات مجدت الربة باعتبارها النبية الأولية. وفي العهود المتأخرة استولى كهنة أبولو الذكر على هذا المقام تخبرنا الليجندة اليونانية عن قيام أبولو بقتل ييثون. إن هناك الكثير من المنحوتات والتماثيل الصغيرة للنساء اللواتي يوصفن عادة باسم الأمازونيّات المقاتلات ضد الرجال في هذا المقام تدل أنها صورت الانتزاع الأولي للمقام من يد النساء.

تقارير ييثون، وكذلك أسطورة كاسندرا الطروادية، تكشف أن الأفاعي كانت تسكن على نحو عادي في المقام النبوي في دلفي. فقد كانت الأفاعي المقدسة يحتفظ بها في معبد الربة المعروفة باسم هيرا التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجيا دلفي، النبية الأولى. والمواقع المقدسة في دلفي وأوليمبيا ودودونا كانت بالأصل متوحدة بالربة بيد أن كهنة زيوس وأبولو (وكلاهما وصفاً بأنهما قاتلاً أفعى الربة جيا) صادروها في أزمنة متأخرة. ومع ذلك فحتى تحت اسم الآلهة المذكورة، ظلت الكاهنات هن اللواتي يقدمن الاستشارة الإلهية.

وهكذا رأينا أن الإلهة الأنثى، كما عرفت في بابل ومصر وكريت واليونان كانت متوحدة مع الحية أو كحية وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحكمة والنبوءة. ولا يعني هذا أن الربة الأفعى قد اشتهرت في هذه البلدان فقط. أيضاً عندما ننظر إلى كنعان التي تمتد على البحر المتوسط (وكذلك مصر وكريت واليونان) نكتشف الدليل على الاحترام الذي تحظى به الربة كإلهة أفعى. إننا في الحقيقة نحفظ لها بسفر كامل وليس فقط بمقاطع خصصت لها. فمن العصور المينولثية وما بعد كان الشعب يتحرك باستمرار يتاجر ويحارب في مساحات تبعد عن وطنه أميالاً كثيرة. وقد أسست مستعمرات نائية واستوطنت حيث توجد الغابات والذهب والتوابل والمواد الثمينة الأخرى. لقد مخرت السفن الفينيقية ليس فقط البحر المتوسط والأنهار الداخلية بل شقت طريقها

حول شاطئ أسبانيا بعيداً حتى قادش، والأرجح أنها وصلت إلى الجزر البريطانية، قبل ولادة المسيح والغزوات الرومانية بقرون كثيرة. بل قبل الفينيقيين الذين كانوا كنعاني صور وصيدا هناك مجموعات من الناس مخروا في المياه المتوسطية وعرفوا باسم شعوب البحر. ويبدو أنهم كانوا كثيري الأسفار تاركين وراءهم آثاراً تدل على زيارتهم واستيطانهم.

ومن تلك الشعوب شعب عرف باسم الفلسطينيين. لقد صار هذا الاسم مألوفاً لدينا عن طريق التوراة، حيث وصفوا دائماً بأنهم شعب شرير خائن، والسبب الواضح أنهم العدو الأكبر للعبريين. ولكن كما كتب البروفسور هاريسون فإن «الحفريات الأركيولوجية في الديار الفلسطينية تبين بوضوح مدى الغلط في اعتبار الفلسطينيين كدريف للبربرية أو التخلف الثقافي كما ورد ذلك في الحديث الشائع».

إن الشعب الفلسطيني يقدم حلقة من أهم الحلقات بين عبادة الربة الأعلى في كريت والإلهة الأنثى كما كانت تعبد في كنعان. وقد جاء في العهد القديم أنهم جاؤوا من جزيرة كفتو - التي يعتقد أنها على الأرجح جزيرة كريت، فالمصريون يسمونها جزيرة كفتو. وقد ذهبت التوراة أنهم جاؤوا من كفتو ومن مصر. ومع أن هجراتهم الكبرى إلى كنعان برزت قرابة عام ١٢٠٠ قبل المسيح، إلا أنه أشير إلى الفلسطينيين في زمن إبراهيم. عدة كتاب زعموا أن الفلسطينيين كانوا فعلاً فرعاً للميكانيين الذين ظهرت فعاليتهم في كريت واليونان في الوقت ذاته. ولكن بعض الكتاب يربط اسمهم بالبلسجيين، السكان الذين عاشوا في اليونان قبل الغزوات الهندوأوروبية. وأثناء الهجرات الفلسطينية الكبرى إلى كنعان استوطنوا أساساً في الجنوب الغربي. وقد اشتهرت هذه المنطقة باسم فلسطين، وهي أصل كلمة فلسطين. ويرهن الدليل أن دين الربة الأعلى جاء مع مجيء الشعب الفلسطيني.

والأدلة الواضحة عن ارتباطات عبادة الربة الأعلى في كريت بالإلهة المؤنثة في كنعان، وأيضاً في الجزيرة القرية إليها قبرص هي أنه في المكانين اكتشفت «أنابيب الأفعى» - وهي تقريباً واحدة كذلك التي وجدت في كريت. والأهم من ذلك حقيقة أن أنبوب الأفعى اكتشف في معبد فلسطيني مكرس لعبادة عشتاروت.

وقد استنتج الأركيولوجي هتشنسون هذه الارتباطات:

«إن أنابيب أفاعي غورنيا (مدينة في كريت) ذات أهمية توازي أنابيب الأفاعي خارج كريت وقد جمع إيفانز سلسلة لأبأس بها من نماذج الأنابيب الطينية المتعلقة

بمستودع عبادة الأفاعي، بعضها صنع مع أفاع تزحف في داخله... والأمثلة الأكثر أهمية لأنابيب الأفاعي على أي حال لم تأت من كريت إطلاقاً بل من مواقع العصر البرونزي المتأخر في قبرص وفلسطينا. أحد الأنابيب الذي وجد في كيثيون في قبرص يبين أنبوب الأفعى وقد تحول إلى قفص حمامة... وأنبوب آخر وجد في بيت عشتاروت في الموقع الفلسطيني بات شان (كنعان) يعود تاريخه إلى حكم رمسيس الثاني في مصر (قرابة ١٢٩٢ - ١٢٢٥ قبل المسيح) يظهر أفعوانين زاحفين حول الأنبوب وفي داخله...».

وهناك قطعة أخرى وجدت في بيت شان وفيها صورة الربة تطل من نافذة مقام، بينما ظهرت أفعى من مستوى أدنى. وفي هذا الموقع نفسه وجدت بعض «بروشات عشتار» مع تمثال لامرأة الأرجح أنه تمثال كاهنة - مع أفعى التفت على عنقها. واكتشاف مهم آخر في هذا المعبد كان لأفعى من الآجر بأثداء أنثى. وطبقاً للتوراة فإن هذا المعبد كان «بيت عشتاروت» في بيت شان حيث علق الفلسطينيون درع الملك العبري المهزوم شاول رمزاً لنصرهم «صموئيل الأول: ١٣: ١٠».

وفي جزيرة قبرص القرية هناك معبد آخر لعشتاروت شيد في مدينة كيثيون، قرب لارنكا الحالية، لم يكتشف أنبوب أفعى قريب الشبه بالأنابيب التي وجدت في كريت فقط بل أيضاً اكتشف تمثال طيني صغير يحمل أفعى. واكتشفت التنقيبات الحديثة في كيثيون تمثالاً آخر لعشتاروت. ولن ندهش كثيراً إذا عرفنا أن معبد عشتاروت في كيثيون شيد على مانعتقد اليوم أنه أسس ميكينية أو كنعانية.

ومع أن وجود الفلسطينيين وحده قد يكون كافياً لتأكيد وتفسير ظهور الربة الأفعى في كنعان، فإن عبادتها دخلت «أبنس الميعاد» من خلال قنوات أخرى أيضاً. فالربة إيزيس - حاتور التي اهتمت عبادتها ماكان يقدم لوازيت، الربة الكوبرا لمصر، كانت أيضاً معروفة في قطاعات معينة نبي سيناء وكنعان. حتى لو عدنا إلى أوائل الأسرة الثانية فإن بعض شدة الأماكن يظن أنها كانت موانئ أو حتى مستعمرات لمصر.

بعض ارتباطات الربة في كنعان الإلهة الأنثى كما عرفت في مصر تفصح عن نفسها من خلال الأسماء. ففي مصر عرفت عشتاروت الكنعانية باسم أسيت، وهي أيضاً تشبه وازيت واوسيت. واسم أوم أثار، الأم أثار، المعروف في أجزاء من العربية مرتبط باسم حاتور ولكنه مرتبط بالاسم الكنعاني لعشتاروت - أتوريت.

عدة معابد قديمة تقدم الدليل على الارتباطات بين إيزيس حاتور والربة في كنعان.

وتظهر في البلدين ربة أفعى. ففي الأول، في سيراييت الخاديم، وهو مقام في شبه جزيرة سيناء بالقرب من مناجم الفيروز المصرية العظيمة، اكتشفت نقوش بلغة مزدوجة مصرية وسامية. وقد سمت هذه النقوش الإلهة التي عبدت ذات مرة في المقام باسم الربة حاتور. وفي هذه النقوش المزدوجة اللغة أشير أيضاً إلى حاتور باسم بعلات، ومعناها السيدة أو الربة، كما كانت الكلمة تعرف في كنعان آنذ. وقد كتب هاريس عن معبد في سيناء وناقش العلاقة بين اسمي الربة كما كانت مشهورة هناك. وشرح ذلك فقال «هنا كانت بعلات موحدة مع الربة المصرية حاتور التي في معبدها وجدت جميع النقوش». ولكن ربما الحقيقة الأهم أنه على جدران هذا المقام نقشت الصلاتان على الحجر. وفي كلتا الصلاتين كان التضرع يتوجه إلى الربة - كربة أفعى.

وكتب السير فلنדרز بتري عن النبوعات في حظائر المجمع سيراييت. وهذا المقام في شبه جزيرة سيناء، التي تقع بين مصر وكنعان يستحق الدراسة نظراً لأن كثيراً من الباحثين افترضوا أنه قد يكون على الطريق الذي اتخذته القبائل العبرية عقب خروجها من مصر. وتسجل التوراة أن موسى أثناء هذه الفترة في الصحراء حاز على «الأفعى النحاسية» التي ظهرت بعد سبعة سنة في المقام الموجود في أورشليم. وقد جرى تخطيمها على يد المصلح العبري حزقيال باعتبارها تجسيدا وثنياً ولكن لا يستبعد أبداً أنها قد تكون دخلت في ملكية العبريين في سيراييت حتى أن موسى قبل بها مؤقتاً استرضاء للشعب العبري.

ومع ذلك يبدو أن هذه الأفعى البرونزية توحدت بدين الربة، لأن التوراة تكشف أنها كانت محفوظة في المعبد ذاته في أورشليم حيث نجد في عام ٧٠٠ قبل المسيح أوعية لعشتاروت وبعل ولعشيرة ومنزل النساء المقدسات والنساء اللواتي يكيّن تموز.

ولقب بعلات كاسم آخر لحاتور يقود إلى معبد آخر للربة، وهو المقام في المرفأ الكنعاني بيلوس (جبيل - المترجم) وهو موقع أقيم منذ عام ٦٠٠ قبل المسيح. وحتى أواخر القرن الرابع قبل المسيح جاء في كتابات من بيروت (بيروت) أن البعلات كانت ماتزال الإلهة الأولى في بيلوس. ولو ألقينا نظرة على المياه المتوسطة، على الموقع الساحلي لما يسمى الآن لبنان، والذي كان يدعى في يوم ما كنعان، نجد أسس معبد يرجع تاريخه على الأقل ٢٨٠٠ قبل المسيح. وكثير من السجلات البيلوسية تخبرنا أنه خلال معظم المراحل كان متحالفاً مع مصر.

كانت الربة في هذا المعبد القائم في بيلوس تكرم كبعلات مثلما تكرم كلينزيس

وحاتور. وقد عثر على رموز كثيرة للربة وكوبراها وسط الخرائب. وإحدى عصابات الرأس المزينة بالكوبرا الناشبة أعيد بناؤها بحيث صارت الأفعى تظهر من جبين من يضعها على رأسه، مثل عين الحكمة. وفي هذا الموقع نفسه اثنتان من الكوبرا الذهبية ووعاء للتقدمة مزين بأفاع تم اكتشافها. وطبقاً لليجندة مصرية فإن هذه المدينة ييلوس ذاتها التي في كنعان هي التي سافرت إليها إيزيس لتعيد جسد أخيها/ زوجها الميت أوزيريس.

في كل مكان من كنعان دليل على الأفاعي يظهر مع عبادة الربة. ويبدو أن أغلب المنحوتات والمنتجات الفنية المترافقة مع الإلهة الأثني وأفاعها في كنعان قد تعرضت للتدمير في زمن قيادة اللاوين للعبريين، ومع ذلك ظلت بقايا مبعثرة تقدم شهادة صامته عن وجودها في يوم من الزمان حتى في مدن كنعان الجنوبية. وفي تنك اكتشف عدد من رؤوس الأفاعي وكذلك تمثال صغير يحمل أفعى. وهنا أيضاً اكتشف تمثال برونزي لعشاروت مع نقش للربة تعطي النبوءات بإشارة من إصبعها.

وكشفت حفريات بيت شمش أباريق بأفاع وتمثال للربة مع أفعى تتدلى على كتفها وفي ثنية ثوبها. وفي تل بيت مرسيم وهو حصن فلسطيني آخر وجد الكثير من «بروشات عشروت» ونقش يشير أولبرايت إلى أنه للربة، وأفعى ملتفة على النصف الأسفل للبدن. إن القطعة مشوهة جداً وإني أتردد في الجزم لمن هذا التمثال، مع أن الأفعى واضحة وضوحاً كافياً.

ويجعل هاتشيسون علاقة بين هذا التمثال الخاص والربة الأفعى لكريت المينوسية فيكتب «وربة أفعى مشابهة يبدو أنها عبدت أثناء العصر البرونزي في فلسطين حيث عثر على بلاطة في تل بيت مرسيم في طبقة رسوية يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠ قبل المسيح تقريباً، وقد رسم عليها شكل للربة مع أفاعها الملتفة حول جسدها. كانت هذه البلاطة معاصرة مع تمثال خزفي للربة الأفعى عثر عليه في مستودعات المعبد في كنوسوس».

في شوشان عثر على أفعى برونزية أخرى، بينما في شيشيم عثر الأركيولوجيون على تمثال مع أفعى ملتفة حول جسدها. وفي مدينة جازر وهي تبعد ثمانية عشر ميلاً شمال أورشليم، عثر على أفعى برونزية قرب كهف كان يستخدم حرماً دينياً. وكان هناك تمثال للربة مع كوبرا. ويبدو أن الأفاعي كانت ترسم أيضاً على هوامش التمثال. فقد لوحظ أنه على ذراعيها الممتدين رفعت أفعوانين، كما في كثير من التماثيل

الأخرى التي من هذه الشاكلة تجمع مظاهر كل من عشتاروت وحاتور وهنالك آثار طينية كتبت كلمة قادش - مقدسة. وهناك في هذا الموقع ذاته اكتشف تماثيل لعشتاروت.

ويعصف الأركيولوجي ماكليستر الحفريات في مدينة جازر بهذه الطريقة: وفي حظيرة ملاصقة للحجارة المنتصبة عثرنا على موديل برونزي لكوبرا قد يكون نذراً مقدماً. إنه يذكرنا بالأفعى النحاسية لموسى التي قضى حزقيال على عبادتها في سفر الملوك الثاني. وربما كان هذا الشيء مشابهاً في المظهر. وهنا أثر بارز آخر صنع داخل هوامش المكان المرتفع وهو تماثيل فريد لعشتار بقرنين.

ولجازر كهفان كبيران تحت الأرض، وقد وجدت الكوبرا قرب البناء الدائري. كما أن عدة كتاب رأوا أن القدسية النبوية قد تكون مورست في غرف تحت الأرض حيث اكتشفت أوعية خمر وعليها رسوم أفاع.

وفي أورشليم نفسها كانت هناك أفعى من البرونز قيل إن تاريخها يرجع إلى أيام موسى وقد اكتنزوها باعتبارها وثناً مقدساً في المعبد وظلت هناك حتى عام ٧٠٠ قبل المسيح تقريباً.

إن رمز الأفعى المتنفة حول ما يتعلق بالرؤيا النبوية يظهر في كل من الشرقيين الأدنى والأوسط. وباختصار نقول إن الروابط واضحة بين الربة الكوبرا في مصر والربة الأفعى في كريت، ويبدو أن الميكينيين أحضروا معهم الأفعى النبوية من كريت إلى المقامات المقدسة التي سبقت اليونان، يلاحظ بوضوح كبير في مواقع أثينا ودلفي. شعب آخر عرف باسم الفلسطينيين يرجح أنه من كريت جلب معه الربة الأفعى إلى قبرص وكنعان، بينما أحضر المصريون عبادة الربة الأفعى عبر البحر المتوسط إلى بيلوس، وعبر رمال سيناء إلى سيراييت. ونجد في كل من بابل وسومر ارتباط الربة بالأفاعي ونبوة المعابد. وقبلما وجدت منطقة في الشرقيين الأدنى والأوسط لانجد فيها سجلات عن الأفعى و/ أو مقامات الحكمة الإلهية كعنصرين منفصلين، ومع ذلك فإن كل هذا حدث معاً بما يكفي للدلالة أن العلاقة بين هذين العنصرين المنفصلين كانت بنية واضحة.

وفي التساؤل عن طبيعة وغرض المقامات النبوية والكاهنات اللواتي يقدمن المشورة فإن السجلات التاريخية وعلى الأخص في بابل واليونان توضح أنهم كن يستغلن لقضايا سياسية وحكومية وعسكرية. وليس فقط الإيمان أن الكاهنة تستطيع أن ترى

المستقبل بما يجعل النبوة المعبدية شعبية، بل الفكرة أن هؤلاء النسوة كن على اتصال مباشرة مع الإلهة التي تملك حكمة الكون. ويتضح من سجلات الشعب الذين آمنوا بالرؤيا النبوية أنهم لا ينظرون إلى المستقبل على أنه خاضع ومقرر من قبل أقدار لا يسيطرون عليها بل على أنه شيء يمكن صنعه إذا عرف الإنسان العمل المفيد الذي يجب أن يعمل. فكاهنات المعبد لم يكن يستشرن من أجل نبوءة ثابتة عن المستقبل بل من أجل أفضل استراتيجية مع مراعاة الوضع القائم. وهذا الإرشاد كان متاحاً في المقامات من اليونان وحتى بلاد ما بين النهرين.

ويتضح أن الربة في سومر، تحت أسماء من أمثال نينا أو أنيني أو إينانا تدل أن الرؤيا المقدسة كانت ركناً للدين منذ أقدم الأزمنة. وفي بابل الأخيرة أظهرت سجلات الملكين سبتو وناكيا أهمية وتأثير كاهنات المعبد في الشؤون السياسية في بابل ومدينة ماري. فقد عرفت الكاهنات البابليات باسم أيلتو أو موهتو. والمهم أن الكلمة العبرية زوناح تعرف أحياناً بـ «زانية» وأحياناً بـ «نية».

كتب هاستنغس أنه في مصر «في الملكية القديمة والوسطى كانت نساء العائلات الكريمة تحمل لقب «نية». وقد كانت الريتان حاتور ونيت هما اللتان تقوم النساء بخدמתهن في هذه القلعة».

وكتب الدكتور رسل عن النيبات اللواتي عرفن باسم سيبيل. لقد كانت السيبيلات متوحديات عادة مع نية الأناضول واسمها سيبلا، التي قد نشك بأن لها علاقة بالربة المعروفة هناك باسم سيبيل. لقد كانت سيبيلات روما هن المسؤولات عن عبادة سيبيل الأناضولية (سيبيل الربة هنا وليست الكاهنة - المترجم) التي أدخلت إلى روما. وطبقاً لرسل فإن:

«هذه النبوءات السيبيلية كانت تكتب خلال النصف الثاني قبل المسيح في الاسكندرية. لقد كن يقلدن السيبيلات اليونانيات اللواتي كان لهن تأثير بعيد في الفكر الوثني قبل هذا الزمن وبعده. كانت سيبيل الوثنية نية قادرة، بوحى من الرب، أن تقدم الحكمة للناس وأن تكشف لهم الإرادة المقدسة. وكثير من أنواع هذه النبوءات كانت موجودة في مختلف الأقطار وقد اتخذت في مصر بنوع خاص أهمية متزايدة».

في معبد أورشليم قرابة عام ٦٢٠ قبل المسيح تكلم حزقيال عن نساء يتجرأن على التنبؤ «من رؤوسهن». وحتى القوانين المتأخرة جداً للقديس باتريك، الذي يقال إنه

أدخل المسيحية إلى إيرلندا «الوثنية» حذر من «البيثيات». والبيثيا ماتزال تعرف في أهم المجتمعات الإنكليزية المعاصرة أنها نبيه أو ساحرة.

عقلي ذو طاقة خارقة:

هذا الظهور الدائم للأفعى مع الربة، المترافق مع النبوة والرؤيا المقدسة، يطرح سؤالاً عن قصد ومعنى الحضور المتكرر. فالطريقة التي كانت تستخدم بها الأفعى في النبوة المعبدية لم تقدم لنا تقدماً واضحاً، ولكن هناك بعض الإشارات تقدم تفسيراً مقبولاً. إحدى هذه الإشارات نتلقفها من قصة كاسندرا، القصة التي ظلت حية منذ مرحلة الآخين والحرب الطروادية. تروي الليجنده أن كاسندرا تركت طيلة الليل في مقام دلفي كطفلة مفردة في الصغر. وعندما وصلت أمها هيكوبي ملكة طروادة إلى هناك في الصباح. قالت إنها وجدت الطفلة محاطة بالأفاعي المقدسة التي كان يحتفظ بها في المقام. كانت الأفاعي يلحس أذني كاسندرا. وهذه التجربة تقدم لنا تفسيراً كيف اكتسبت كاسندرا موهبة النبوة.

وهناك نبي يوناني اسمه ميلامبوس زوي عنه أن الأفاعي أيضاً قامت بلحس أذنيه، مما أتاح له أن يفهم لغة الطير. وفي كتابات فيلوستراتوس زعم أن من الشائع تماماً عند العرب فهم الرؤى المقدسة وعلى الأخص أصوات الطيور، ويفسرون ذلك بأنهم يحصلون على هذه القدرة بالتهام قلب الأفعى أو كبدها. وأصوات الطيور كانت في الأغلب ترافق المقامات النبوية في اليونان، بينما في كريت وفي عسقلان في كنعان كانت التماثيل عادة تشتمل على حمامة أو أكثر تجثم على رأس الربة أو الكاهنة.

وفي كل من اللغتين العبرية والعربية فإن مايدل على السحر مشتق من كلمات كلها تعنى أفعى. وقيل في بريتاني إن قوى خارقة يمكن الحصول عليها بشرب حساء معد من الأفاعي. وبين هنود السيوكس في أميركا الشمالية تعني كلمة «واكان» كلاً من الساحر والأفعى. والهنود في جنوب غرب الولايات المتحدة يقومون بطقس يكون شجاعاً من اختير كمؤهل لشرف القيام برقصة يسمح فيها للأفعى أن تلدغه عدة مرات. ونتيجة هذه التجربة أنه إن لم يموت، يكتسب كما يقال حكمة عظيمة وبصيرة كبيرة في أعمال الكون ومعنى كل الأشياء.

بالإضافة إلى هذه الارتباطات بين الأفاعي والرؤيا المعبدية النبوية أثبت العلم الحديث البصيرة العميقة في العلاقة الممكنة بين العنصرين. فطبيعياً عندما يتلقى أي

شخص لدغة أفعى سامة وبالتالي يدخل السم في جهازه فإن هناك ردود فعل مختلفة بحسب أنواع الأفعى، تشتمل على الورم والنزف الداخلي وصعوبة التنفس والشلل. وهذه التأثيرات غالباً ما تكون مميتة. ولكن هناك سجلات حديثة عن أناس مُنْعَمين لا يمكن لسم الأفعى أن يسبب لهم الموت. وعندما يلدغون بعد المناعة بأفعى كوبرا أو كرايت أو أي أفعى سامة أخرى، فإن الموضوع يصبح عبارة عن حالة انفعالية وذهنية كذلك التي تنجم من تأثير الحبوب المهلوسة.

وصف وليم هاست، في سجل تحتفظ به زوجته، وهو من سربتاريوم فلوريدا (حيث يستخلص السم لمختلف الاستخدامات الطبية) ردة فعله على عضه أفعى الكرايت، تلقاها بعد أن منع نفسه عدة تمنيعات بسبب عمله. والسجل نجده في كتاب كورش «الكوبرات في الحديقة». يكتب كورش:

«فجأة بدأ يشعر بخفة عذبة وببهجة غريبة، تقريباً غبطة، ومع ذلك كان مسمماً تسميماً خفيفاً... لقد امتلك حساً حاداً في السمع، حاداً إلى درجة الألم. وكان الهواء حوله صاخباً وغابة حقيقية من الضجيج المختلط. كأنه كان تحت تأثير مخدر غريب... كان لديه احساس غامض. كانت ردة فعل انفعالية خاصة لم يستطع السيطرة عليها. وحالما استلقى وعيناه مغمضتان قسراً استطاع «أن يرى» الأشياء. كانت أمامه رؤى».

في تقرير آخر حول الحادثة ذاتها يقتبس مارشال سميث العامل في مجلة الحياة من هاست قوله «وجدت نفسي أنظم أعظم الأشعار الغريبة. كان عقلي ذا طاقات خارقة». قد يكون نظم أو لم ينظم شعراً لكن نبوءات المقامات في اليونان قيل إنها تُقدَّم شعراً.

إنه يشبه مهديء المسكاليين (ينتج من صتار البايوت الأميركي) أو العقار المهلوس سيلوسيبين (موجود في بعض أنواع الفطور) وكلاهما استخدمتا كسريرين من الأسرار الدينية في بعض أديان هنود أميركا الشمالية. والتصنيع الكيميائي لأنماط معينة من سم الأفاعي قد يسبب للشخص، على الأخص إذا كان رائق الذهن، شعوراً بأنه امتلك حقاً قوى الوجود واحساساً بإدراك الأحداث ومعنى الماضي والحاضر والمستقبل بوضوح عظيم واستيعاب كامل. هذا النمط من الإحساس يتحدث عنه عادة من يستخدمون المسكاليين والسيلوسيبين والليسيرجيل أسيد ديتيلاميد (ل. س. د). فالأفاعي المقدسة تحفظ وتطعم في المقامات المقدسة

للرية، ربما لأنها ليست فقط رموزاً وإنما هي بالفعل أدوات من خلالها يمكن التوصل إلى تجارب الرؤيا المقدسة. وهذا يفسر لقب الربة الكوبرا المصرية التي كانت تعرف أحياناً بسيدة التعاويذ.

طبقاً لتقليد تلمودي قديم فإن سم الأفعى الذي أفسد حواء وكل البشرية فقد قوته من خلال رؤيا جبل سيناء لكنه استعادها عندما بدأت إسرائيل تعبد العجل الذهبي.

جسد الربة وسائلها:

لكن الأفعى ليست فقط الحلقة بين قصة آدم وحواء وعبادة الربة. هناك رمز آخر أهم في القصة هو رمز الشجرة، شجرة معرفة الخير والشر، التي تتدلى منها الثمرة المحرمة. ثمة ليجندات معروفة من اليونان الكلاسية عن شجرة التفاح الذهبية للربة هيرا، التي عليها التف الأفعون لادون. وقيل إن الشجرة أعطيت لهيرا من قبل الربة جيا، النية الأولى للمقام في دلفي. ومع أنه عرفت ليجندات عن أشجار تفاح في اليونان الكلاسية فإنني أرى أن شجرة معرفة الخير والشر في العصور الأشد قدماً لم تكن شجرة تفاح بل شجرة تين.

أنواع خاصة من الشجر أشير إليها باستمرار على أنها مقدسة في شتى السجلات القديمة ولكن تحت ثلاثة أسماء مختلفة للتضليل، بحيث جرى تجاهل هويتها الخاصة. فأحياناً تدعى الجميزة وأحياناً التينة وأحياناً التوتة. هذه الشجرة هي فعلاً فيكوس سيكومورس (تين الجميز) في الشرق الأدنى، وأحياناً يشار إليها أنها التوتة السوداء. إنها تختلف عن شجرة التين العامة في أن ثمرها الأحمر اللون ينمو في الغابات الضخمة، وأحياناً مثل عنقود عنب.

والإشارة إلى هذه الشجرة المقدسة نجدها في الكتابات المصرية، بينما يظهر تشخيصها في اللوحات الجدارية المصرية. فالربة حاتور في مصر قدست لسبيين: لأنها عين الحكمة والسيدة الأفعى، لكنها كانت تعرف بلقب آخر - سيدة الجميز. وعرفت هذه الشجرة بأنها الجسد الحي لحاتور على الأرض. وأكل الثمرة كان يعني أكل جسد الربة وسائلها. بعض اللوحات الجدارية المصرية رسمت الربة داخل هذه الشجرة، فتقدم ثمرتها للميت باعتبارها طعام الأبدية والخلود والحياة الدائمة حتى بعد الموت.

إن نوع الشجرة المرسوم على الخواتم في كريت ربما كان هو نفسه، مع أنه رسم بشكل أكثر رمزية، إذ يظهر عناقيد الثمرة فقط. وقد رأى ليفانز أن التينة كانت مقدسة

عند الكريتين ووصف في مقطع على لوحة جدارية في كنوسوس حيث أن الشجرة القائمة قرب المذبح كانت تينة. وأشار أيضاً إلى مجموعة من الأشجار المقدسة داخل جدران المقام الكريتي، التي تدل أوراقها أنها أشجار تين. الأختام والخواتم الكريتيّة رسمت دائماً الربة أو وصفاتها إلى جانب أشجار مثمرة، فيعتين بهن ويلاطفنهن كما لو كانت حفلة تكريس مقدسة.

من أعظم الدلائل تفسيراً لمعنى رمز هذه الشجرة هي المعرفة التي حصلنا عليها من الطقوس التذكارية التي تجرى في «الموت السنوي» لأوزيريس الأخ/ الزوج لإيزيس، موت مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتضحية السنوية بالملك. وطبقاً للسجلات المصرية كان أوزيريس أول من دفن بنعش من توت. هذا النعش وضع فيما بعد داخل شجرة جميز حية رمزاً لإيزيس حاتور باعتبارها أمه/ زوجته. وبهذه الطريقة تقدم له طعام الأبدية. وهذه العادة كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بليجنده أن إيزيس ذهبت إلى كنعان لتتخذ الشجرة التي دفن فيها أوزيريس فتقطع نعش أوزيريس من تلك الشجرة وتترك الباقي منها كأثر تذكاري في معبدها في بيلوس فكان هذا المقام الكنعاني الذي صارت فيه إيزيس حاتور وبعلات مترادفتين.

الرمز المقدس لشجرة النعش الحاتورية يجعلها تشبه تلك الشجرة التي أشارت إليها التوراة باستمرار على أنها العشيرة. وقد تحدث حزقيال بقسوة عن «عبدة الأوثان» في معبد أورشليم الطائفتين حول الغصن المقدس للشجرة كما كان ذلك خطيئة كبرى. مقاطع من حزقيال تهدد «لن ينجسوا اسمي بعد اليوم بزناهم وأنصاب ملوكهم الجنائزية» و «لا ينجس بعد بيت إسرائيل اسمي القدوس لا هم ولا ملوكهم لا بزناهم ولا بجثث ملوكهم». وأشار أشعيا إلى زرع أشجار صغيرة لأدونيس فحذر أن «أغصان الآلهة الغريبة» سوف تأتي بحصاد الحزن والأسى اليائس.

وأشار إيفانز إلى أوراق التين الذهبية التي وجدت في القبور الميكينية وارتباطها بالعبادة الجنائزية هناك. فقد اعتبرت شجرة التين هبة منحتها الربة، كما عبدت أيضاً في المقام اليوناني الموجود في إليوس، وهو معبد بني على أسس ميكينية أيضاً. إنها نقيض الشجرة التي لقي أدونيس وأتيس مصيرهما الليجندي والشجرة التي يظهر عليها تمثال أتيس في روما. وديونسيوس، الشخصية المشابهة تماماً لأتيس وأدونيس، ترافق مع عبادة الربة في كل من دلفي وإليوس، وارتبط رمزياً بشجرة التين.

كما أشرت سابقاً فإن العشيرة أو العشيريم التوراتية كانت تزرع أو تنصب إلى

جانب المذبح في معابد الربة. كانت الأنصاب والأعمدة المكروهة التي كان العبريون يأمرهم دائماً بتحطيمها. ومع أنه لا دليل لدينا أن هذه كانت أشجار تين الجميز إلا أن الحقيقة تدل على ذلك. فثمار هذه الشجرة التي وصفت في النصوص المصرية أنها «جسد حاتور وسائلها» قد تكون تؤكل كنوع من «الاشترار» مع الربة، وقد تكون هذه التي مهدت للاشتراك بـ «جسد ودم» يسوع، إذ تؤخذ على شكل رقائق خبز وخمرة في كل يوم. إلا أن الأشد مكيدة هو ذلك السطر في التوراة الذي يقول إن آدم وحواء عندما عرفا أنهما عريان نتيجة أكلهما الثمرة المحرمة من الشجرة راحا يصنعان أغطية من أوراق التين لتغطية أعضائهما الجنسية.

الأفاعي والجميز والجنس:

وهذا يُدخل فهمنا لعادات الجنس المقدسة وأنماط النسب الأمومي بيت القصيد بتوضيح الثمرة المحرمة. ففي كل منطقة كانت الربة معروفة ومكرمة. لم تكن تمجد فقط كنيئة للحكمة الكبرى، بتوحيدها المتماهي مع الأفعى، بل كخالقة أصيلة وكزعيمة المتع الجنسية وتجديد النسل أيضاً. فالجدة المقدسة كانت تبرز باعتبارها هي التي تمنح الحياة وكذلك تقرر مصائر واتجاهات هذه الحيات، وهذا تجمع ليس غير طبيعي. فقد كانت حاتور تعلم الناس كيف يتناسلون. وكانت عشتار وعشتاروت وإينانا تكرم كل واحدة منهن باعتبارها إلهة الجنس والحياة الجديدة. والنساء المقدسات يحتفلن بمظهرها هذا وذلك عن طريق ممارسة الحب في المعابد.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار الحقد الذي يكنه العبريون للعشيريم، الرمز الأكبر للدين الأنثوي، فلن ندهش إذا كان رمز شجرة الثمرة المحرمة، التي قيل إنها تقدم معرفة الخير والشر، مع أنها في الأسطورة تبدو كمانحة للوعي الجنسي، مشمولاً في قصة الخلق للتحذير بأن أكل ثمرة هذه الشجرة سبب سقوط البشرية. فالأكل من شجرة الربة، التي تقوم في كل مذبح، كان وثنية خطيرة مثلما كانت عاداتها الجنسية وأفاعيها النبوية.

وهكذا ففي قصة كيف بدأ العالم، القصة التي قدّمها اللاويون لتفسير خلق كل ماهو موجود، أدخلوا الأفعى المرشدة والمرأة التي قبلت استشارتها، وهو الأكل من الشجرة التي تمنحها فهم «ماتعرفه الآلهة فقط» - أي سر الجنس - كيف تخلق الحياة. وكما حطم المدافعون عن يهوه مقامات الإلهة الأنثى بكل ما استطاعوا، بالقتل عندما يفشلون في الهداية، كتب الكهنوت اللاوي قصة الخلق. لقد أعلنوا أن سيادة

الذكر ليست فكرة جديدة، وإنما في الحقيقة هي مقدسة سنهإ إليه ذكر منذ فجر الوجود. فسيادة الذكر على الأنثى، إذ وجدت العبريات أنفسهن بلا حقوق، حقوق طالما كن يتمتعن بهن، كجاراتهن، ليس قانوناً يضاف مثل بقية القوانين العبرية، بل إنه مكتوب في التوراة كقانون من أوائل الأعمال العظيمة وبلاغات الخالق الذكر. وبكل إهمال وقع للتاريخ الحقيقي، أعلن القادة اللاويون أن الرجل يجب أن يحكم المرأة، معلنين أن هذا يتفق مع القانون الأصلي ليهوه، الذي طبقاً لهذه الليجندات الجديدة خلق العالم والبشر. وأسطورة آدم وحواء التي فيها فسرت وبررت سيادة الذكر، تعلم النساء والرجال معاً أن ملكية الذكر وسيطرته على النساء المطيعات الخاضعات تعتبران الحالة المقدسة والطبيعية للأجناس البشرية.

ولكن لتحقيق هذا الوضع اضطر كهان الإله الذكر إلى إقناع أنفسهم، ومحاولة إقناع أتباعهم أن الجنس، الوسيلة الحقيقية لإنتاج حياة جديدة، هو غير أخلاقي، إنه «الخطيئة الأصلية». وهكذا في محاولة تأسيس نظام القرابة الذكورية نحت اليهودية، وتبعتها المسيحية، منحى الأديان التي اعتبرت عملية الحبل عاراً وخطيئة. لقد استنبطوا قانوناً للأفكار الفلسفية واللاهوتية أن البشر بالزواج الموروث يعانون القلق أو الإثم فقط لكونهم كائنات بشرية - مع أنهم، في الوقت الحالي على الأقل، يقيمون حياة جديدة عن طريق الجماعة الجنسية - سواء اعتبر هذا الفعل أخلاقياً أو غير أخلاقي.

هذه هي المصيدة السيئة وغير الطبيعية والمزعجة التي صنعها الدين الأبوي يديه وسقط فيها. فحتى اليوم مازال نقرأ في كتاب الصلاة العام لدير وستمنستر تحت عنوان الاحتفاء بالزواج: «ومن ناحية أخرى فإن الزواج إنما هو من أجل العلاج ضد الخطيئة، وتجنباً للفسق، فالذين لا يملكون نعمة كبح النفس عن الشهوات الجنسية يمكن أن يتزوجوا، ويصونوا أنفسهم أعضاء غير منجسين في جسد المسيح».

الصورة تأخذ شكلاً آمناً، فكل قطعة صغيرة لها مكانها تسقط فيه. فبدون عذرية الأنثى غير المتزوجة وبدون القيود الجنسية الصارمة على المرأة المتزوجة فإن ملكية الذكر للاسم والأملاك والسيطرة الذكورية على الحق المقدس في العرش لا يمكنه أن يعيش في الوجود. وفي التجوال أكثر في جنة عدن، حيث الكوبرا النبؤة ملتفة حول تين الجميزة، نكتشف سريعاً أن الأحداث المتنوعة لأسطورة الفردوس، الواحد تلو الآخر، تفضح المقاصد السياسية لأولئك الذين كانوا أول من اختلق هذه الأسطورة.

السجل اللاوي للخلق - لاهوت أم سياسة؟

لنلق نظرة أقرب على قصة الخلق، وبالتالي على الفردوس المفقود التي رواها القادة العبريون، والتي تبناها وغذاها فيما بعد المدافعون عن المسيحية. فكما قارنا قصة الخلق اللاوية بسجلات دين الربة نلاحظ الآن كيف أنه في كل منعطف، في كل جملة من الأسطورة التوراتية تجري مهاجمة عقائد دين الربة.

كتب ستيفن لانغدون «وهكذا بعيداً عن أي شك اعتبرت المدرسة النيوبرية للثيولوجيا السومرية أن الإنسان خلق بالأصل من طين على يد الربة الأم العظمى» ويخبرنا البروفيسور كرامر «في لوح يقدم لنا قائمة بالآلهة السومريين وصفت الربة نامو التي كتب اسمها على شكل صورة تمثل البحر، بأنها الأم التي خلقت السماء والأرض». وتقول إحدى الصلوات السومرية مايلي: «اسمعي أيتها الأقاليم مديح الملكة نانا، مجدي الخالقة، كرمي وبجلي، كرمي صاحبة المجد الأولى، واقتريني من الربة القوية». وكتب المصريون «في البدء كانت إيزيس أقدم الأقدمين. كانت الربة التي منها كان كل شيء». وحتى في المراحل البابلية كانت هناك صلوات ترفع إلى مامي أو أورو كخالقة للحياة الإنسانية. ومع ذلك فإن عبدة يهوه، ربما بعد ألف سنة، أصروا أن الذكر هو أول من خلق العالم. وهو أول ادعاء بالقرابة الذكورية - فالذكورية كانت بدائية.

وطبقاً لليجندات سومر وبابل نجد أن النساء والرجال خلقوا في آن معاً، زوجين على يد الربة. ولكن في الدين الذكوري كان من الأهمية جداً أن يخلق الرجل أولاً، وعلى صورة خالقه - والادعاء الثاني والثالث يتعلقان بحقوق النسب الذكوري. بعد ذلك نخبرنا القصة أن المرأة خلقت من جزء صغير تافه في الإنسان، من ضلعه. وعلى الرغم من كل مانعرفه عن حقائق الولادة البيولوجية، وهي حقائق يعرفها اللاويون جيداً من دون شك، علينا أن نؤمن أن الذكر لا يأتي من الأنثى بل تأتي الأنثى من الذكر. وهذا قد يذكرنا بالقصة اليونانية الهندوأوروبية عن أن أثينا ولدت من رأس زيوس.

إن كل من يتذكر أنه ولد من امرأة عليه أن يرفض ويغير رأيه. وكما في أسطورة الخلق عن طريق فعل الاستنماء الذي قام به بتاح المصري، فبذلك يحكم على الجدة المقدسة أن تبعد عن ساحة الواقع. عندئذ يخبرنا أن النساء اللواتي ولدن بهذه الطريقة إنما هن هبة للرجل، يعلن ويحدد وضعهن - بين أولئك الذين يقبلون الأسطورة -

باعتبارهن ملكية للذكر. وتخبرنا القصة أنها منحت له لتبعد عنه الوحدة، وكمعية. وهكذا يجب علينا أن نفهم أن الغرض الوحيد والمقدس لوجود النساء هو مساعدة أو خدمة الرجال بطريقة ما.

والزوجان اللذان خلقا أسكنا في جنة عدن - الفردوس - حيث حذرهما الإله الذكر من أكل أي ثمرة من ثمار شجرة معرفة الخير والشر. وبالنسبة إلى العبريين القدامى فإن هذه الشجرة فهمت على أنها تمثل تين الجميزة التي للربة، والعشيرة المعروفة التي تقوم إلى جانب مذابح معابد الربة وبعلمها. إن الغصن المقدس الذي يلتف في المعبد كما وصفه حزقيال، قد يكون الطريقة التي بها أخذت الثمرة كـ «مشاركة». وطبقاً للنصوص المصرية فإن أكل هذه الثمرة يعني أكل جسد وسائل الربة، سيدة المتعة الجنسية وتجديد النسل. وطبقاً لقصة التوراة فإن الثمرة المحرمة جعلت الزوجين يفهمان معنى الجنس. فبعد أكل الثمرة انتبه آدم وحواء لطبيعة جسدهما الجنسية. «وعرفا أنهما عاريان». وهكذا لما وجدتهما الإله الذكر خجلاً وغطيا أعضاءهما الجنسية بستر من أوراق التين.

ولكن من المهم جداً في بناء الأسطورة اللاوية أنهم لم يجعلوا الزوجين يقرران أكل الثمرة المحرمة معاً، إذ كان الأفضل منطقياً لو أكلاها معاً، مادامت هذه الثمرة رمزاً للعوي الجنسي. إلا إن الكهنة الكتاب جعلوا واضحاً إقدام حواء على أكل الثمرة أولاً - بناء على إرشاد ونصيحة الأفعى.

يصعب علينا أن نصدق أنه من باب الصدفة أو التطابق أن تكون الأفعى هي التي قدمت لحواء النصيحة. إن أناس تلك الأيام كانوا يعرفون أن الأفعى كانت رمزاً، وربما تكون أداة، للاستشارة المقدسة في دين الربة. فقد كانت ولاشك متعمدة ومقصودة في أسطورة الفردوس، كما في أساطير الأفعى والتنين الهندوأوروبية، بأن الأفعى، عشتارة، مألوفة للنساء، تبدو كأنها مصدر الشر فدفعت إلى هذا الدور الخطير والأثم بحيث يكون الاستماع لنبيه الإلهة الأنثى خرقاً لدين الإله الذكوري بطريقة خطيرة جداً.

فالعلاقة بين المرأة والأفعى تبدو عاملاً هاماً، لأن العهد القديم يروي أن الإله الذكر تكلم مباشرة مع الأفعى قائلاً «واضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها». وبهذه الطريقة فإن كاهنات المعبد والنبيات اللواتي كانت مشهوراتهن وإرشاداتهن متوحدة مع رمز الأفعى واستخدامها لعدة آلاف من السنين، قد اعتبرن الآن ساقطات

من كل الأجناس البشرية. والمرأة، كمرشدة حكيمة أو كمستشارة عاقلة، كمفسرة بشرية للإرادة المقدسة للربة لم تعد تحترم، بل صارت مكروهة يخشى منها أو حتى يشك فيها ويتجاهلونها. وأمر لزوم الصمت من قبل المرأة، وعلى الأخص في الكنائس، انعكس فيما بعد في مقاطع لبولس في العهد الجديد. وطبقاً للثيولوجيا اليهودية والمسيحية فإن إدانة المرأة قد أدت إلى كارثة حلت بكل الأجناس البشرية.

ويخبرونا أيضاً أن المرأة بأكلها التفاحة أولاً امتلكت وعياً جنسياً قبل الرجل وأغوت بدورها الرجل فشاركها الثمرة المحرمة، أي شاركها خطيئتها في المتع الجنسية. صورة حواء هذه المغوية جنسياً ولكنها مغوية تتحدى الرب كان المقصود بها ولاشك تحذير جميع الرجال العبريين حتى يبقوا بعيدين عن نساء المعابد المقدسات، لأنهم إذا انجرفوا وراء إغواءات أولئك النسوة، فإنهم في الوقت نفسه يقبلون الإلهة الأثني - ثمرتها وجنسانيتها وربما وهو الأهم ما ينتج عن هويتها الأمومية في كل الأطفال الذين يحبل بهم بهذه الطريقة. ولا بد أيضاً، ربما بصورة أبرز، من أن يخاطبوا النساء العبريات، ويحذروهن بالأشياء المشتركة في الدين القديم، على الرغم من التحذيرات والعقوبات التي أصدرها الكهنة اللاويون.

فأسطورة الخلق العبرية التي تلوم الأثني من كل الأنواع على استباقها إلى الوعي الجنسي بغرض قمع عبادة ملكة السماء، ونسائها المقدسات والعادات الأمومية، منذ ذلك الوقت فما بعد منوطين بالنساء دور الإغواء الجنسي. فعليها تقع تبعة الاستشارة الخبيثة المحتالة لرغائب الرجال الجسدية. فهي التي تقدم الثمرة العذبة ولكنها الخطرة. ففي الأديان الذكورية لم يكن ينظر إلى الدافع الجنسي على أنه الرغائب البيولوجية الطبيعية للنساء والرجال تشجيعاً للنوع حتى ينتج نفسه، وإنما كان ينظر إليه على أنه خطيئة المرأة فقط.

لكن اللوم لم يكن فقط لأن أكل الثمرة الجنسية وإغواء آدم في أن يفعل الشيء ذاته، يقع كله على عاتق النساء، بل إثبات أو قبول أن خطيئتها الواضحة في آلام الولادة التي تتأكد منها النساء، هي عفتهم الأبدية بسبب تعليم الرجال هذه العادات السيئة. فحواء عوقبت عقاباً أليماً حسبما نص قانون الإله الذكر «تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك».

لقد استغل الكاتب اللاوي الحدوث الطبيعي للآلام من الضغط الذي يقوم به الجنين البشري وهو يمر من الرحم عبر قناة ضيقة إلى العالم الخارجي، وسعى إلى

إثبات القوة الجبارة لإلهه. ليس فقط أن المرأة تتحمل خطيئة وغيها الجنسي، بل طبقاً للإله الذكر يعتبر الأثم في الحمل عقوبة بحيث أن كل النساء يلدن لابد من التوحد بحواء.

ولكن ربما الأهم من ذلك كان حقيقة أن القصة روت أيضاً أنه كانت لإرادة الإله الذكر أن حواء لذلك لاترغب إلا في زوجها وتروج لإثبات الإقرار «الإلهي» بسيادة الذكر وبالنظام الأسروي الذكري وبالمعرفة المؤكدة بالأبوة.

ربما كنا نألف السطر الأخير من القانون الذي يعلن أنه من الآن وصاعداً وبسبب خطيئتها ودفعها الأبدى ثمن جريمة التحدي التي اقترفتها ضد الإله الذكر، يكافأ زوجها بالحق الإلهي في السيطرة عليها وأن «يسود» عليها، تأكيداً لسلطته. وفي جريمة ما يفترض أنها اقترفته في البداية الأولى للزمن، كما لو كان اعترافاً بإدانتها، عليها أن تطيع وتخضع. ويمكن أن يلاحظ هنا الواقع العملي أنه حالما تمّ الإجهاز على الضمان الاقتصادي للنساء على يد مؤسسة النسب الذكري اضطرت النساء إلى الإذعان لوضع قبول هذا المانح الذكري على أنه الوحيد الذي «يحكم المأوى».

وحالما صدرت هذه المراسيم طرد الزوجان من جنة عدن، وهي الفردوس الأصلي حيث كانت الحياة هانئة، منذ ذلك الزمن وما بعد كان عليهما أن يكدحا من أجل أن يعيشا، كتحذير أليم لأي امرأة ماتزال تفكر في تحدّي يهوه اللاوي. إذ أليس مثل هذه المرأة التي استمعت إلى نصيحة الأفعى وأكلت الثمرة المحرمة وأغوت الرجال أن يفعلوا ذلك وينضموا إليها في الوعي الجنسي، هي التي سببت سقوط البشرية كلها وجلبت عليها بؤسها؟

الفصل الحادي عشر

بنات حواء

حتى هذا اليوم يعلمون الذكور العبريين أن يرفعوا الصلاة اليومية التالية «مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك الكون، الذي لم يخلقني امرأة». وقال محمد «عندما خلقت حواء ابتهج الشيطان».

بما أن الأسطورة العبرية عن الخلق دخلت أخيراً في الأدب المقدس للمسيحية، مع كل الكتابات الأخرى من العهد القديم، تبنى الكتاب والقادة الدينيون الذين اتبعوا المسيح الموقف ذاته من الاحتقار للأنثى، متابعين استخدام الدين لمزيد من حصر النساء في دور الكائنات السلبية والناقصة فنجم عن ذلك المزيد من سيطرة الرجال على الملكية. وبتوالي السنين وباستمرار فقدان وضع النساء أساسه، عمدت الكنيسة بسرعة إلى تحقيق أهدافها في خلق وصيانة المجتمع الذي يسيطر عليه الذكر. إذ أليس هذا قانوناً من أوائل القوانين التي فرضها الرب الذي خلق العالم وكل ماهو حي؟ فالنساء يعتبرن بلا عقل، ومخلوقات شهوانية، وكلا الأمرين بررتهما و«أثبتتهما» أسطورة الفردوس.

نقرأ في رسالة بولس إلى أهل أفسس «أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد. ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن في كل شيء» (أفسس ٥: ٢٢ - ٢٤).

إن هذا يعيد إلى الذاكرة اقتباساً من هوشع يقول فيه إن الزوج يوحد نفسه كلياً بالإله الذكر بحيث تغدو كلماته هي كلمات يهوه. وفي الدين الجديد ليس الكهنة فقط، بل جميع الرجال يعتبرون رسلاً مباشرين للرب ليس فقط في الكنيسة بل في خصوصية مطبخ المرأة أو حتى في سريرها.

يستخدم بولس أسطورة عدن المألوفة في هذه الأيام فيؤكد أنها كانت السبب في أن على النساء أن يكن مطيعات، وينكرن نفوسهن حتى قدرة حبالهن الصوتية ناهيك

عن الإشارة إلى عقولهن. نقرأ في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس (٢: ١١ - ١٤) «لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكني لست أذن للمرأة أن تعلم ولا تسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأن آدم مجبل أولاً ثم حواء. وادم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي».

وأهل كورنثوس أدخلت إليهم كلمة ليجندة الخلق مرة ثانية. «ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله. فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده. أما المرأة فهي مجد الرجل. لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل» (كورنثوس الأولى ١١: ٣ - ٧ - ٩).

تقارير صممت بدقة لقمع البنية الاجتماعية القديمة فقدمت أسطورة آدم وحواء كبرهان إلهي أن على الرجل أن تكون بين يديه السيطرة المطلقة. فحالة الإله الذكر كانت حالة الإنسان الذكر ولاشك أنه ليس من باب الصدفة أن كهنة يهوه اللاويين كافحت بعنف من أجل تعزيز مركزه. وهذا ماقصده بولس في إعلانه أن تكون الذكورة هي في المقام الأول ذلك أنه أغمض عينيه عمداً عن حقيقة الولادة البيولوجية «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل». فالتساء يكابدن الألم لكن الرجل يستلم الحساب.

وعندما كان الرسول بطرس في الأناضول، حيث كانت الربة ماتزال تكرم أذان الوثنيين لانغماسهم في العاطفة النجسة، تماماً مثل أنبياء العهد القديم، فهو يسخر غاضباً من أولئك الذين «يقصفون في النهار» وهو يشكو من أن هؤلاء الوثنيين الذين ظلوا يتبعون البعليم. ويحاضر بطرس جاداً «كذلك أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن إذ باتباع هذه الطريقة في الزمن القديم فإن النساء المقدسات أيضاً اللواتي يؤمن بالله زين أنفسهن لكونهن خاضعات لأزواجهن» (رسالة بطرس الأولى ٣: ١ هذا مانقلناه عن المؤلف أما ما جاء في الترجمات العربية فهو: كذلك أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لايطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة - المترجم).

إن القديس كليمنت، أحد آباء الكنيسة الرومانية، أنكر على النساء - باسم الله - المتعة والصحة ومؤثرات تقوية البدن من أمثال الرياضيات الجسدية كالمصارعة والجري زاعماً أنه جاء في التوراة أن نشاطات التساء يجب أن تنحصر بالغزل والنسج والطبخ.

والقديس جون كريسوستوم، وهو معلم مسيحي من القرن الخامس قال محدّراً «حالما تتعلم المرأة يصبح كل شيء خراباً. وكذلك فلتترك بلا تعليم».

وزعم القديس أوغسطين من الفترة ذاتها أن الرجل وليس المرأة هو الذي خلق على صورة الله ولذلك فإن المرأة ليست كاملة بدون رجل بينما هو كامل بحد ذاته.

وقد أكد مارتن لوثر معتمداً في كلمته على الأفكار التوراتية ذاتها فكتب أنه من الطبيعي تماماً أن تكون النساء من طبقة ثانوية بالنسبة إلى الرجال. وفي كلمته «دفاع عن الحياة الزوجية» كتب أن الرجال يجب عليهم الاحتفاظ بسيطرتهم على النساء مادام الرجل أرفع وأفضل منها «فالترتيب والسلطة يرجعان إلى الرجل باعتباره رأس البيت وسيده».

وفي القرن السادس عشر تحدث المصلح السويسري جون كالفن معارضاً المساواة السياسية للنساء ويرى أن هذا «انحراف عن النظام الأصلي للطبيعة». حتى أنه يتعاطف صراحة مع تعدد الزوجات لأنه يساعد في حماية النساء من العنوسة وعدم إنجاب الأطفال.

وفي عام ١٥٢٧ وفي أطروحة عن حرية الإرادة كتب اللاهوتي المسيحي هوبماير: «السبب أن سقوط النفس يمكن ترميمه جزئياً، فهو ليس سقوطاً ممتاً، حتى هنا على الأرض، بيد أن سقوط الجسد إلى حد ما لا يمكن ترميمه وهو سقوط ممت، يرجع إلى أن آدم كنموذج للنفس (كما أن حواء نموذج للجسد) فضل ألا يأكل من الشجرة المحرمة. كما أن الحية لم تخدعه بل خدعت حواء (تيموثاوس الأولى ٢: ١٤) ويعرف آدم جيداً أن كلمات الحية كانت مخالفة لكلمات الله. ومع ذلك أراد أن يأكل الثمرة مخالفاً وجدانه الخاص حتى لا يغيظ أو يغضب ضلعه، جسده، حواء. لقد تمنى لو لم يفعل ذلك».

وترى الدكتورة مرغريت موراي في العديد من كتبها أن ملاحقة السحرة في العالم الغربي ما هي إلا استمرار لقمع الأديان «الوثنية» القديمة. والشيء المؤكد أن النساء كن الهدف الأول والضحايا الأولى لتلك المذابح الظالمة وكثير من الاتهامات كانت مرتبطة بالجنس على نحو ما. فالربة دانو، الجدة المقدسة لتوتادي دانان في إيرلندا ربما ارتبطت بالربة ديانا عند الرومان وديوني عند الإغريق وحتى دانوا في الهند، قد يكن أساس العبادة التي سموها عبادة السحر. إننا نعرف أن عبادة إيزيس في معبد إيزيس في لندن ومذبح إيزيس في لندن

ومذبح إيزيس في شمبر كان كلاهما يدلان على وجود دينها في الجزر البريطانية في ذلك الوقت.

وقد أقتبست موراي تقريراً من القرن التاسع يتعلق بالسحرة أشير فيه إلى أن ديانا كانت زعيمتهم. «بعض النساء الشريرات يقدرن الشيطان وتستحوذ عليهن أوهاهم وأطياف الشياطين يؤمن ويعلن أنهم يركبن ليلاً مع ديانا على وحوش معينة، مع حشد غفير من النسوة فيقطعن مسافات شاسعة يطعن أمرها كسيدة لهن فتوجهن في ليال معينة».

في كتاب «مرجل السحرة» يرى كليفورد إلدرمان أن قصة حواء وضعت قيد الاستخدام مرة أخرى، لكن هذه المرة لتبرير قتل النساء الكثيرات اللواتي تمردن على الكنيسة. وفي تقرير كنسي في القرن السادس عشر نقراً «المرأة أكثر شهوانية من الرجل: هناك خلل في تركيب أول امرأة، إذ شكلت من ضلع منح. لأنها ناقصة ولذلك فهي دائماً مفسدة. وحرفة السحر تأتي من المتعة الشهوانية: فعلى النساء أن يكن عفيفات وتابعة للرجل».

ومن خلال الفرض العنيف والمواقفة بالإكراه على الأديان الذكورية حصرت النساء أخيراً في دور بعيد جداً عن الحالة التي كن فيها في البلاد التي كانت تسودها ملكة السماء. وأعظم إخطار كان الصفة الإطلاقية في القوانين التي أصدرها الإله الذكر الكلي القدرة. وبمرور الوقت وصلت الذراع القوية للكنيسة إلى كل مكان ومعها جاءت المواقف «الأخلاقية» التي لاجدال فيها فأُسند إلى النساء دور التبعية.

في البنية الفعلية للأديان الذكورية المعاصرة رسمت قوانين ومواقف لسحق الأديان الأنثوية والاستقلال الجنسي الأنثوي والنسب الأمومي. هذه هي المفاهيم التي قبلها كثير من أجدادنا وآبائنا باعتبارها كلمة الله المبجلة والقدسية، فجعلوها جزءاً صميمياً من حياة العائلة حتى أنها الآن تؤثر حتى في أولئك الذين عاشوا منا بعيداً عن صلوات وأسرار الأديان المنظمة. ولاشك أنه آن الأوان للاختبار والتساؤل عن العمق الذي وصلته هذه المواقف حتى في أشد المجالات الدنيوية في مجتمع اليوم، وإلى أي مدى هي مصانة كبقايا قمعية لثقافة تخللتها وسيطرت عليها كلمة الكنيسة.

قد نجد أنفسنا مندهشين إلى أي درجة كان قمع طقوس النساء بالفعل قمعاً لحقوق النساء.

التحدي الشجاع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:

تغلغل أسطورة حواء وصورتها بعيداً في ذلك القسم من النساء حيث اخترنت مشاعرها العميقة وأفكارها وراحت قصة المرأة الأولى في أسطورة الخلق العبرية تتفاعل في أفئدة وعقول ونفوس النساء اللواتي امتعشن لكون الرجال يسيطرون عليهن، على الرغم من الكلمة المقدسة للإله الذكر الكلي القدرة.

كثير من النساء اللواتي تجربن وتكلمن عن الأساليب التي بها قمعت النساء والتفاوت الأثيم لوضعهن في المجتمع مازلن يقبلن قبولاً مباشراً قصة التوراة عن المرأة التي أعطت أذن لها لكلمة الأفعى فسببت بذلك إعلان حكم الذكر. في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت سلطة وتأثير الكنيسة أكبر عقبة تقف في وجه استقلال المرأة أكثر مما هي عليه الآن بكثير. ومع ذلك فإن رواد النضال من أجل مساواة المرأة وانصافها تحدّثوا بجرأة وشجاعة ضد تلك السلطة متحدّين الكنيسة وتعاليمها. والدفاع عن حقوق النساء كان بمعنى ما دفاعاً عن المرأة حواء.

أفكار وذكريات من العقاب الجائر لحواء ما يزال رمزياً يحوم فوق النساء اللواتي تجربن وطالبن بحقوق متساوية. وفيما كتبه ماري ولستونيغرافت عام ١٧٩٢ غدت معالم جنة عدن مرة ثانية موضوع النقاش. وفي إحدى المحاولات المبكرة لفضح المعاملة المخزية لنصف البشر في العالم كتبت ماري في كتابها «دفاع عن حقوق المرأة»:

«إن الرأي السائد أن المرأة خلقت من أجل الرجل برز من قصة موسى الشعرية التي لخصت تلخيصاً شديداً، فلم يول أي اهتمام جدي بالموضوع فافترض أن حواء، وهو يحدثنا حديثاً جاداً، كانت ضلعاً من ضلوع آدم، وهو استنتاج سمح بسقوطها حتى الحضيض أو أنه جرى التسليم بأنه يثبت أن الرجل منذ أقدم الأزمنة، رأى أن من الأنسب أن يمارس قوته لإخضاع شريكه وابتكاره لإظهار أنها مجبرة أن تخنى عنقها تحت النير، لأنها في قصة الخلق الظالملة إنما خلقت لتؤمن له متعته...».

وبكل شجاعة واجهت احتمال توجيه اتهامات الإلحاد أو حتى أنها تحت تأثير «الشیطان» وهي اتهامات خطيرة في عام ١٧٩٢ فتابعت تصريحاتها العلنية «... ومع أن صرخة اللادين أو حتى صرخة الإلحاد ارتفعت في وجهي فسوف أعلن بكل بساطة أنه حتى لو هبط ملاك من السماء وأخبرني أن قصة موسى الشعرية الجميلة عن نشأة الكون وروايته عن سقوط الإنسان وقعت حرفياً، فإنني لن أصدق أن ما يخبرني به عقلي

كان ناقصاً أمام شخصية الكائن الأعلى: وبما أنني لا أخاف من الشيطان أمام عيني، فإنني أجزؤ على القول بأن هذا ماهو إلا افتراض نبع من العقل....».

كما ضمنت كتابها تحليلها النقدي لكتاب جان جاك روسو «إميل» الذي يدعو عام ١٧٦١ إلى تربية الأطفال في «مجتمع حر». فهذه الأطروحة إلى جانب أطروحة روسو الأخرى «العقد الاجتماعي» مارستا دوراً مؤثراً جداً في كل من الثورتين الأميركية والفرنسية. وقد اقتبست كثيراً من المقاطع الأخرى ذات الاتجاه الذكوري في كتابات روسو وخاصة وصفه لقواعد التربية الدينية للإناث في تلك اليوتوبيا المتحررة التي حلم بها. كتب روسو:

«بما أن سلوك المرأة تابع للرأي العام فإن إيمانها بالأمور الدينية، لهذا السبب بالذات، يجب أن يكون خاضعاً للسلطة. فيجب أن تكون كل ابنة على دين أمها، وكل زوجة يجب أن تكون من دين زوجها: فحتى لو كان الدين زائفاً فإن ذلك الانقياد الذي يدفع الأم والابنة إلى الخضوع لنظام الطبيعة يبعد عنهما، في نظر الله، إجرامية خطيئتهما... فهما ليستا في مستوى القدرة على المحاكمة اعتماداً على نفسيهما، فلا بد من اللجوء إلى قرار أبيهما أو زوجهما بثقة مثل ثقة الكنيسة».

تعلق ماري «فعلى هذا تكون حقوق الانسانية محصورة بالنسب الذكوري منذ آدم وما بعده».

ومع أنه في زمن كتابة روسو كانت الثورتان الفرنسية والأميركية تكافحان، فإن هذا الإنسان الذي دافع بحرارة عن الحرية والاستقلال والذي أثرت أفكاره تأثيراً عميقاً في الثوار في كل من البلدين يقترح (بوعي واضح) أن النساء حتى في «مجتمع حر» يجب أن تبقى «خاضعات للسلطة» وأن يقمن باللجوء إلى قرارات أيهن وزوجهن وعلى الأخص في القضايا الدينية. فعلى الابنة أن تتبع دين أمها، لكن معتقدات أمها الدينية إنما يقررها زوج أمها. أما غير ذلك أي في أسرة ليس في أعضائها آباء فإن ما يحدث هو غير ذلك، فالنساء اللواتي يفترض أنهن غير قادرات على المحاكمة اعتماداً على أنفسهن، لا بد من أن يعكسن المبادئ الثيولوجية للرجال. أن السطر الدراماتيكي الأول في كتاب روسو «العقد الاجتماعي»: «يولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان يرصف في القيود» صرخة للاستقلال والحرية مازال ترن في آذاننا، وعلى الأخص في عام ١٩٧٦. وفي ذلك، طبقاً لهذا المؤلف نفسه فإن المؤسسات والعقائد الدينية التي تلح أن السيطرة الذكورية على المرأة أقرت

إلهياً (كان الدين مسيحياً في فرنسا ومستعمرات شمال أميركا) ظلت النساء توافق عليها من دون أي تساؤل.

في ١٨٣٨، أي بعد الثورة الأميركية بائنين وستين عاماً، برزت مقاتلة باسلة أخرى تطالب بحقوق متساوية للنساء وكتبت أيضاً عن الأم الميثولوجية للنساء اليهوديات والمسيحيات، باعتبار أن خطيئة حواء وعقابها استمرا عالمياً يدعمان حق الرجال في اضطهاد النساء واخضاعهن، قدمت سارة غريمكي وكأنها في محكمة قانون عالمي، المرافعة بأنه حتى لو كانت القصة الأصلية حقيقية ألم يخدم النساء عصرهن؟

«المرأة، وأنا أعني ماقول، اتهمت حتى اليوم الحالي بأنها جلبت الخطيئة إلى هذا العالم. أنا لن أرد التهم بتأكيدات مضادة ولكن كما ألححت فإن قبول آدم المسبق لاقتراح زوجته لايرر ذلك التفوق في قوة العقل التي يتبجح بها الرجل. وحتى لو وافقنا أن خطيئة حواء كانت الأعظم، فإنه يبدو لي أن الرجل ارتاح للسيطرة التي ادعاهها ومارسها ستة آلاف سنة تقريباً، وأنه يكون من النبالة الحقيقية لو أنه أفصح عن محاولة إنهاض الساقط وتقوية الضعيف، وليس بإبقاء النساء خاضعات. أنا لأسأل تعاطفاً من بنات جنسي. ولن أتخلى عن مطالبتنا بالمساواة. كل مأسأل لإخوتنا هو أن يرفعوا أقدامهم عن أعناقنا».

لوسي كوميسار النائبة السابقة لرئيسة منظمة النساء العالمية في أميركا، وصفت في دراستها الاعلامية النسوية الجديدة تلك المرحلة المبكرة من نضال النساء من أجل الحرية والمعارضة. وتشرح بأن النساء صرن واعيات لقضايا اضطهادهن عندما حاولن أن يتكلمن عن إلغاء العبودية السوداء، وروت أن محاولة النساء الاشتراك في السياسة أثارت حفيظة الكنيسة والممثلين الرسميين لكلمة الإله الذكر:

«عندما زارت سارة وأنجلينا غريمكي نيوانجلاند لتتحدثا ضد العبودية في عام ١٨٣٦ أصدر مجلس كهنة المصلين في ماساشوسيتس بياناً يهاجمهما ويشير إلى أن قوة المرأة في تبعيتها التابعة من وعي ذلك الضعف الذي وهبه الله لها لحمايتها... فعندما تبرز وتخطب بلهجة الرجل المصلح فإنها تتخلى عن السلطة التي وهبها الله لها لحمايتها وتغدو شخصيتها غير طبيعية».

لكن سارة غريمكي لم تكن تخاف الاندحار حتى في الزمن الذي لم يكن قد مضى فيه أمد طويل على تخلي الكنيسة عن ممارسة حرق النساء على الحطب لأقل من

هذا الذنب. وفي رد غاضب شرحت فيه امتيازات الأديان الذكورية للرجال وعدم امتيازاتها للنساء بقولها «وبما أنهم قرروا أن يهوه وضع النساء في مرتبة أدنى من الرجال، فإنهم طبعاً يرغبون في الاحتفاظ بها هناك، ولذلك فإن القدرات النبيلة لعقولنا سحقت والقوى العقلية النبيلة لم تعد مثقفة».

عدة نساء اهتممن بإلغاء العبودية فصممن الانضمام إلى المؤتمر العالمي في لندن الذي نظم لمناقشة القضية، فما كان من فئة من رجال الدين الأميركيين إلا أن يشدوا الرحال ويسبقوهن إلى لندن لتحذير رجال الدين الإنكليز من أنهن قادمات وفي نيتهن إلقاء الخطب. فآثار هذا جدلاً طويلاً بين الرجال حول السماح للنساء، ونتج عن ذلك قرار يقضي أن النساء اللواتي سوف يسمح لهن بالحضور هن مَنْ يجلسن صامتات خلف مقصورات عليها ستارة.

وكان الرد على هذا القرار أن انعقد المؤتمر الأول لحقوق المرأة في سينكافولز في نيويورك وصيغ في هذا اللقاء عام ١٨٤٨ بيان النساء عن الاستقلال، وتحدثت النساء ثانية ضد الوضع المتدني الذي رسمته الكنيسة لهن. وفي ذلك البيان، بعد خمسة عشر قرناً من القضاء على عبادة ربة السماء وkahاتها جاء: «إنه (أي الرجل) يسمح لها في الكنيسة كما في الدولة، ولكن في وضع التبعية، مدعياً سلطة رسولية بطردها من الرهينة ومع بعض الاستثناءات من أي مشاركة عامة في شؤون الكنيسة... لقد اغتصب امتياز يهوه نفسه زاعماً لنفسه حق تحديد مجال عملها في حين أن هذا يتعلق بوعياها وبربها».

وكما تحدث هوشع مرة وكأنه يهوه بذاته فإن كثيراً من الرجال في عام ١٨٤٨ مستخدمين سلطة تلك الأفكار نفسها، ظلوا يوحّدون أنفسهم بالإله المذكور، ومن خلال هذه السلطة قرروا وأعلنوا وأصدروا قرارات ضد النساء، معلّنين لهن مايجب وما لايجب أن يفعلنه. وبرزت التوراة المرة بعد المرة لتثبت أن وضعهن لامجال للمناقشة فيه.

في عام ١٨٤٨ أخبرت العضوة النسائية املي كولتز عن رجل اعتاد أن يجلد زوجته، الأم الكادحة لسبعة أولاد. ولاتقوم هذه المرأة فقط بالاعتناء بكل الأولاد ويزوجها أيضاً بل بحلب البقرات وغزل الصوف ونسج الثياب لإلباس الأسرة بكاملها وإصلاح هذه الثياب لكل الأسرة. وجريمتها في نظر الزوج أنها «تتق» أي تشكو، بكلمة أخرى إنها تفصح وتقول مافي فكرها. وكان هذا سبباً كافياً لرجل مسيحي أن

يضرب زوجته. وسألت املي كولنز بسخرية مريرة وغاضبة بالله عليكن لماذا لا يؤدبها؟
فالقوانين جعلت تأديبها من امتيازها - والتوراة حسبما فسرت جعلت ذلك واجباً عليه.
والحقيقة أن النساء يتذمرن من حظهن العاثر، ولكن جاء في القانون المقدس «أن الرجل
يسيطر عليك» و «أيتها الزوجات اخضعن لرجالكن خضوعكن للرب» مما جعلهن
يعتبرن ذلك قدرهن المحتوم الذي لا مفر منه.

إن السيادة والسيطرة الذكريتين بررتا أيضاً بتلك الكلمات القديمة. فعضوات
الحركة النسوية قمن بعمل كبير فقد جمعن كتاباتهن في كتاب وسمينه «توراة المرأة»
وفيه كتبت اليزابيث كادي ستانتون «من الملاحظ أن العبريين الشبان يتلقون أن عليهم
أن يكرموا أمهاتهم بينما كل معنى التعاليم الدينية تعلم الاحتقار للجنس كله. فبأي
طريقة يظهر الإكرام لأمهاتهم؟ إن كل القوانين والعادات تحظر ذلك».

فالدين، كما عرف في العالم الغربي في القرن التاسع عشر، كان دين ذكر،
فاليهودية والمسيحية والإسلام، وإن كانت قد تختلف حول مواضيع واحد - وضع النساء. فالنساء يعتبرن
مخلوقات ناقصة فرأت العناية الإلهية أن يكن مطيعات وأوعية صمّت لإنتاج الأطفال
ومتعة الرجال وإرضائهم. وهذه المواقف لم تزدهر فقط في الكنيسة بل شقت طريقها
عابرة البوابات المقنطرة لتتغلغل بأسلوب شخصي في أفكار ومشاعر وقيم كل أسرة
يهودية أو مسيحية أو محمدية.

في كتاب «المرأة الفكتورية» يصف دونكان كرو بعض قوانين ذلك العصر
وتأثيرها في النساء. فيقول إنه حتى عام ١٨٥٧ كانت المرأة لاتستطيع أن تطلب
الطلاق (ما عدا بمرسوم من البرلمان الذي كان عادة يحتفظ بذلك للطبقة
الارستقراطية) ذلك أنه حتى عام ١٨٨١ لم يكن قد طرح للمناقشة الحق الشرعي
للزواج في استخدام القوة الجسدية لمنع زوجته من ترك المنزل، وحتى عام ١٨٨٤
يمكن أن تسجن زوجة لرفضها حقوق زوجها «الزوجية». ويكتب أنه طبقاً لهذه
القوانين فإن الدين المسيحي أيضاً كان قوة كاسحة في إعلان الوضع المتخلف
للنساء والتمسك به. وبما ورثه من اليهودية أقام أسطورة أن مكان النساء التابع هو
عقوبة لخطيئة حواء الأصلية. إنه يتمسك بكلمات بولس أن «الرجل ليس من المرأة
بل المرأة من الرجل». ويلاحظ كرو أنه خلال العصر الفكتوري لا يكفي أن يحضر
النساء والرجال القداس في الكنيسة كل يوم أحد فقط، بل أيضاً قراءة التوراة في
المنزل، وتنظيم لقاءات الصلاة، والاستماع وقراءة المواعظ والمراعاة الصارمة للسبت

إنما كانت أموراً نموذجية في كثير من البيوت، ويضيف أن «... وطأة الدين كانت كبيرة جداً».

في عام ١٨٧٦ عندما دافعت آني ييسان في كراس عن استخدام طريقة منع الحمل هبت في وجهها المقاومة من الحكومة والكنيسة. ويشرح آرثر نيتركوت مؤرخ سيرتها الوضع في ذلك العصر فيكتب «الموانع الجسدية في أي وقت كانت تعتبر ضد إرادة الله، وقلة من الناس كانوا يرون أنه لا يوجد أي مخالفة في التدخل بالدورة الطبيعية بالمنع أو تجنباً لمرض أو لإنشاء بيت بقصر العناصر، ومع ذلك يرفضون التدخل في عملية الإنجاب». أيضاً كتبت آني ييسان الشجاعة عن القوانين المتعلقة بالعناية بالأطفال، فرأت أن الكثير من المواقف في ذلك العصر كانت تضرب بعيداً حتى تصل إلى المواقف العبرية «عندما كانت المرأة تعتبر ملكية منقولة». وتشن هجوماً ضد سلطة الكنيسة المسيحية من وجهة النظر الدنيوية والنسائية فتلقي كثيراً من الخطابات العظيمة عبر انكلترا وتكتب الكثير من المقالات والكراسات من بينها كراس بعنوان «وضع المرأة كما ورد في التوراة» فعرض نفسها لعداء واستياء كبيرين جداً وكانت أحياناً تتلقى تهديداً بالعنف الجسدي.

في مجموعة المقالات والمقتبسات «أصوات حرية النساء» الكثير من المقتطفات من خطابات وكتابات الحركة النسائية المبكرة، ونجد كثيراً من هذه المختارات في كتاب صغير شهير بعنوان «تاريخ اقتراع النساء» نشر في عام ١٨٨١. ومقتطف من خطاب ألقته عام ١٨٥٣ امرأة اسمها آبي فوستر جاء فيه أن التربية وصياغة العقول الصغيرة في ذلك العصر متأثران جداً بالكنيسة. وذهبت إلى أن الكثير من هذا كان يتم من خلال السلطة التي تمارسها الكنيسة على الأم، إذ أن الطفل على المدى الطويل إنما يتلقى تعاليم ومواقف الكنيسة. واستنتجت: «قد تقولون لي أن المرأة هي التي تصوغ عقل الطفل ولكنني أرد هذه التهمة رداً قوياً وأقول إن الكاهن هو الذي يصوغ عقل المرأة. إنه هو الذي يجعل الأم على ماهي عليه، لذلك فإن تعاليمها للطفل تقتصر فقط على حمل تعليمات منبر الوعظ لتستخدمها ثانية».

على الرغم من الاتهامات فإن رجال الكنيسة المنظمة لانية لديهم في إعادة فحص أو مراجعة الوضع المتدني الذي جعلوه من نصيب النساء. لقد تابع رجال الكهنوت التمسك بأن الرجال، طبقاً للخطة المقدسة القديمة، قوامون على النساء اللواتي هن بحكم طبيعتهم ضعيفات روحياً وناقصات عقل. وهكذا كان أنه في عام ١٨٦٠ بعد

زهة سبعين سنة من الاتهامات المستمرة ضد موقف الكنيسة من النساء كانت سوزان انطوني جريئة في تعليقها: «بالقانون والعاطفة العامة والدين، منذ أيام موسى وحتى أيامنا الحالية لم يفكروا بالمرأة أكثر من أنها قطعة من الملكية، ولا تنصرف إلا حسب إرادة الرجل وهواه».

النظر خلفاً من أجل النظر أماماً - الفردوس في المنظور العام:

كلما تعاظمت قوة النضال من أجل الحقوق المتساوية للنساء استمرت الكنيسة في ممارسة سلطتها وتأثيرها بحماسة عظيمة، متمسكة جداً بالمفهوم العزيز المقدس لتفوق الذكر. وعلى الرغم من غطرسة التعليقات الذكورية التي كانت في الأغلب لا تتعدى التسليم الواضح بانزعاج الطبقة الحاكمة خوفاً من إزاحتها، ويحاولون إلباسها نوعاً من المرح أو المزاح لتمريرها، فإن العداء أحياناً ينفجر على شكل عنف جسدي شرير عندما يفشل المزاح في عمله. وتوضح كوميسار أن «سلوك الكهنوت كان دائماً في مقدمة الكفاح ضد الاقتراع، فيأتي بمقبوسات من التوراة لإثبات أن النظام الطبيعي للأشياء هو طاعة الأنثى للرجل».

ومع أن النساء حصلن على حق التصويت، وهذا في الحقيقة جزء من أهدافهن الكبرى، فإنهن وجدن أنفسهن مع هذا التصويت الذي اكتسبته بصعوبة مازلن يعشن في مجتمع يسيطر عليه الرجل سيطرة عامة، فرض فيه على النساء أن يؤمن أن الخالق الذكر خلق الإنسان أعقل من المرأة: فالنساء الآن حرائر أن يصوتن - ولكن للرجال.

إن هؤلاء الذين يسيطرون سياسياً يتحدثون باستمرار عن الدولة والله بنفس واحد. فكلمة الكنيسة مازال قوية وقرون من العنف باسم الدين ومن الحروب المرعبة المخيفة ومن محاكم التفتيش ومطاردة السحرة تطوف مهددة الذاكرة كل من تسول له نفسه تحدي سلطة الكنيسة.

الخوف والعنف دعما لمبادئ الأديان الذكورية في كل مجالات المجتمع. والمؤسسة التي سحقته بعنف عبادة ملكة السماء قدمت الآن بدلاً منها الجريمة والخطيئة ودور حواء في الطاعة. ويلاحظ بات وايتنغ في «سياسة الجسد» وهو مجموعة حديثة من الكتابات عن حركة تحرير النساء في بريطانيا أن «ثقافتنا محصنة بميثولوجيا قداس العبريين. خطيئة حواء الأصلية مازال معنا». وتشير برباره كارتلاند في دراستها عن النساء في المجتمع الحديث إلى النساء باعتبارهن «حواء الخالدة». وقد اختير اسم لمجلة

إنجليزية تهتم بوضع النساء في المجتمع المعاصر بتهكم مضحك وهو عنوان «الضلع الاحتياطي».

آلاف السنين والتفوق الذكوري يشار إليه ويعلن ويثبت ويصرح به ويستعرض ويؤكد ويوطد ويعاد تأكيده من قبل التوراة وأولئك الذين يؤمنون بالتوراة على أنها حكمة الخالق المقدسة.

وحديثاً عام ١٩٦٥ علقت كارتلاند على البناء الأناني والتأثيرات الكبيرة لقصة الفردوس - للذكر:

«في السجل الدقيق في سفر التكوين يستطيع الرجل أن يحصل على قناعة أنه فعلاً كما كان دائماً يعتقد، أروع مخلوقات الله... وهذا ما يريحه أيضاً، إذ يترك الرجل من دون أي شك في الوضع الحصري المتفرد للكمال الرفيع الذي يملكه في العالم... أكثر من تسعة أعشار العالم تجد قصة التكوين التي تدن شر المرأة صدى في قلوب الرجال».

وتشير سيمون دي بوفوار في دراستها الكلاسية لاضطهاد النساء في كتابها «الجنس الآخر» بتهكم ذكي إلى ملازمة دين الذكر - للذكور. وطبقاً لبوفوار «يتمتع الرجل بامتياز كبير وهو أنه يملك رباً يصدق على القانون الذي يكتبه، وبما أن الرجل يمارس سلطة حاكمية على النساء، فمن صالحه أن تكون هذه السلطة موهوبة له من قبل الكائن الأعلى. فالرجل بالنسبة لليهود والمحمديين والمسيحيين إلى جانب آخرين، هو سيد بموجب حق إلهي، ولذلك فإن الخوف من الله يقمع أي نزوة تمرد لدى الأنثى المسحوقة».

وتسجل إيفا فيجز في كتابها «المواقف الأبوية» ردة الفعل غير المدهشة كثيراً لمطران إنكليزي في عام ١٩٦٨ لاحظ بتواضع بليد، لدى تعليقه على سياسة النساء في إكليريوس الكنيسة الإنكليزية «إذا أعطيت الكنيسة صراحة للنساء فستكون بطاقة نعي لكنيسة الرجال».

عندما واجه رئيس أساقفة في سان فرانسيسكو سؤالاً عن مياسة النساء في الكنيسة عام ١٩٧١. قدم جواباً جعلناه في بداية هذا الكتاب: «جنس المسيح ليس مصادفة وذكره ليس عارضة. إن هذا اختيار إلهي».

وتضع كوميسار قائمة بالأحداث التي جرت منذ أن حققت الحركة النسائية زخماً في العصور الحديثة، أحداث تبرز تساؤلاً عن مواقف الكنيسة تجاه النساء. وتشتمل

على سجلات عن أخوات كاثوليكيات اتهمن الكنيسة صراحة بكونها كنيسة مذكرة فأظهروا أنها تضع النساء في المرتبة ذاتها التي تضع فيها الأطفال، وهي التي تضع الأطفال في المرتبة ذاتها التي تضع فيها البلهاء.

ربما تكون تأثيرات الكنيسة ضعيفة على الافراد والمجتمعات، وعلى الأخص بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون في المدن الكبرى، حيث تقل الحياة الاجتماعية أو الضغط الاجتماعي. ومع ذلك يستمر التأكيد على تفوق الذكر داخل الكنيسة. إن ذلك مكتوب في القوانين الأساسية والأدب المقدس، التي عليها أنشئ الدين الذكوري. وكما تعلق إيفا بنجس بحق «قد تموت الكنيسة على قدميها، ولكنها تظل متمسكة حتى النهاية بحصر السلطة بالذكر وهذا ما كان سبب وجودها في الدرجة الأولى».

ومع ذلك فإن ذاكرة الدين الأنثوي القديم - ملكة السماء والكاهنات والعادات الجنسية المقدسة - مازال تطوف في ذاكرة بعض الرجال الذين يسيطرون على الكنيسة حتى اليوم. فقد ظهرت في مجلة التايمز اللندنية ٢٤ مايس ١٩٧٣ مقالة بعنوان «الكاهنات انتقل إلى القوانين الوثنية». فمرة ثانية أحدثت سياسة النساء في كنيسة يسيطر عليها الذكر ردة فعل. وطبقاً لمراسل الشؤون الدينية في التايمز:

تحذير هو أن قبول النساء بالكهنوت في كنيسة انكلترا سيكون تغيراً ذكياً نحو الأديان الوثنية، وجهه رئيس أساقفة اكسيترا الدكتور مورتيمر، إلى اجتماع كانتربري البارحة.

أعلن أن الكاهنات في أديان الطبيعة القديمة شائعات «وكلنا نعرف أنواع الأديان التي كانت وتكون». فكثيراً ما تكيفت الكنيسة مع الشروط المتغيرة في الماضي، وعليها أن تضاعف حرصها في «جنس الثقافة الهاجسة».

مهما كان ظرف الكنيسة في هذه المرحلة من التاريخ، فإننا لانستطيع أن نحذف أو نتجاهل التأثيرات البعيدة التي استمرت سلطة الكنيسة قروناً تمارسها على كل منا اليوم، ولا أهمية لمدى ما ابتعدنا عن النير أو المذبح الحقيقي. إنها لأسرة نادرة تلك التي تنظر خلفاً لجيلين أو ثلاثة أجيال ولا تجد أسلافها غارقين في مواقف وقيم دين من الأديان ذات الاتجاه الذكوري. ولهذا السبب فإن الضغوطات الدينية ليست بعيدة عنا كما يحلو لنا أن نفكر.

هناك داخل البنية الحقيقية لحياة العائلة، في العائلات التي اعتنقت أو تعتق

الأديان الذكورية، ثمة عادات اجتماعية مقبولة قبولاً غير مرئي تعكس الالتزام الدقيق بالأسفار التوراتية. مواقف تجاه المقياس المزدوج للإخلاص الزوجي والاستقلال الجنسي للنساء واللاشرعية والإجهاض ومنع الحمل والإغتصاب والولادة وأهمية الزواج والأطفال بالنسبة إلى النساء ومسؤوليات النساء ودورهن في الزواج والنساء كاشياء جنسية والتوحيد الجنسي للسلبية والعذوانية ودور الرجال والنساء في العمل أو المواقف الاجتماعية والنساء اللواتي يعبرن عن أفكارهن والقيادة الأنثوية والنشاطات العقلية للنساء، والأنشطة الاقتصادية والاحتياجات إلى النساء والاقتراض الأوتوماتيكي للذكر كمعيل وحام كلها أصبحت متأصلة عميقاً بحيث أن المشاعر والقيم المتعلقة بهذه الموضوعات تعتبر، من قبل النساء والرجال معاً: ميولاً طبيعية أو حتى غريزة إنسانية.

ربما لم تعد المواقف التوراتية مبررة في نظر كثير من النساء أو الرجال المعاصرين ولا معتبرة حيوية ومطلقة بسبب أن الرب قرر أنها هكذا، ولكن قروناً من اتباع هذه العقائد المؤسسة دينياً قد أثبتت البرهان التالي - الناس دائماً وافقوا عليها باعتبارها صحيحة لذلك لا بد أن تكون طبيعية، لا بد أن تكون طريقة عادية للكينونة.

إن معرفة الأديان الأنثوية الأولى التي تكشف السلوك والمواقف البشرية التي كانت معاكسة تماماً لما نسميه اليوم الميول الإنسانية الطبيعية والتي كما رأينا كانت حقاً السبب الخفي لكثير من ردود الفعل والمواقف الدينية التالية، قد نسيت بكاملها تقريباً أو أنها أسيء فهمها. فالرقابة العفوية أو المقصودة في الثقافة العامة والأدب الشعبي ترفض الواقع الفعلي لأهمية هذه الأديان بل ترفض حق وجودها.

حديثاً في عام ١٩٧١ باشرت امرأة مثقفة واسعة المعرفة في تأليف كتاب عن الصراع السياسي للنساء اليوم فتحدثت عن الدين الأنثوي القديم بثلاثة أسطر فقط. لقد كتبت أن الأديان الوثنية عادت أصلاً للنساء، بيد أن ذلك كان في عصر لا نعرف عنه إلا القليل، وحلت الأبواب محل الرباط وتوطدت في الدين سيادة الذكر.

وكتاب حديث آخر حول وضع النساء في التاريخ يبدأ باليونان وتشير المقدمة إشارات غامضة إلى أن ثقافة كريت كانت المجتمع الأكبر الوحيد الذي سبق اليونان، وأنه لا يعرف شيء تقريباً عن كريت أو أي ثقافة من الثقافات الأخرى القديمة.

وامرأة تعمل أستاذة الأنثروبولوجيا في جامعة مشهورة في الولايات المتحدة أكدت

لجماعة من النسوة في مؤتمر الدراسات النسائية في عام ١٩٧١ أن كل الريات كانت تماثيل خصب عارية سمينة تطورت وعندها الرجال.

لقد آن الأوان لإظهار الحقائق عن الأديان الأنثوية القديمة إلى النور. لقد ظلت مخبأة زمناً طويلاً جداً. وبهذه الحقائق ستكون قادرين على فهم التطور المبكر لليهودية والمسيحية والإسلام وردود فعلها على الأديان والعادات الأنثوية التي سبقتها. وبذلك الحقائق سوف نكون قادرين على فهم كيف أدت ردود الفعل هذه إلى مواقف سياسية وأحداث تاريخية وقعت إبان تشكل هذه الأديان ذات الاتجاه الذكري - مواقف وأحداث لعبت دوراً كبيراً في صياغة صورة النساء منذ تلك العصور وأثنائها. وبهذه الحقائق سوف نكون قادرين على توضيح قرون الاضطراب، وسوءاً لفهم وكم المعلومات، بحيث نستطيع الحصول على الفرصة المناسبة الضرورية لاختبار الصورة والوضع والأدوار التي ماتزال تناط بالنساء في هذه الأيام. وبهذه الحقائق يمكننا أن نحصل على المنظور التاريخي والسياسي الذي يمكننا من رفض أفكار «الأدوار المرسومة طبيعياً أو إلهياً» وأخيراً فإنها تفتح الطريق لمزيد من الاعتراف الواقعي بقدرات الأطفال والبالغين، سواء أكانوا إناثاً أم ذكوراً، باعتبارهم كائنات بشرية فردية. وعندما تفهم المصادر القديمة للجنس المتضخمة في هذه الأيام فهماً جيداً فإن أسطورة جنة عدن لن تعود قادرة على الاستحواذ علينا.

إن قتل الزوجة الخائنة ليس رداً ما دام يوجد صمت وتوهين للنساء اقتصادياً. ربما عندما يأكل الرجال والنساء معاً تلك التفاحة - أو التينة - في الوقت ذاته يتعلمون أن ينظر كل واحد إلى أفكار الآخر وآرائه باحترام، ويعتبر العالم بغناه مكاناً يخص كل كائن حي فيه، فعندها نستطيع القول إننا أصبحنا فعلاً جنسين متمدينين.

المؤلفة:

مارلين ستون: تخصصت في دراستها بالفن وتاريخ الفن وعملت في النحت زهاء عشر سنوات ١٩٥٩ - ١٩٦٧. لكن جذبتها الأركيولوجيا فانجذبت إلى دراسة الدين القديم لمدة تزيد على عشر سنوات، زارت خلالها مواطن الحضارات الأولى وكانت ثمرتها هذا الكتاب الذي ظهرت طبعته الأولى في إنكلترا بعنوان «أوراق الفردوس» إلا أنها جعلت عنوانه في بقية الطبعات «يوم كان الرب أثنى».

المترجم:

حنا عبود ناقد أدبي له مؤلفات منها: المدرسة الواقعية في النقد العربي الحديث. النحل البري والعسل المر. مسرح اللوثر المقلقة. الحداثة عبر التاريخ. فصول من الاقتصاد الأدبي. من حديث الفاجعة... وغيرها. وترجم كثيراً من المؤلفات منها: المجلد الرابع للمؤلفات الفلسفية لبلخانوف. معجم الأساطير. موسوعة الأساطير. البنيوية في الأدب. الأساطير. الأسلوب اليوناني. الأسلوب الروماني. المسرح: ثلاثة آلاف سنة من الدراما والتمثيل والحرفة السحرية... وغيرها.

المحتويات

٥	يعقوب والجسر وأحلام العذارى
١٥	مقدمة
١٧	تمهيد
٢٩	الفصل الأول: حكايات مع وجهة نظر
٣٧	الفصل الثاني: من كانت؟
٥٥	الفصل الثالث: النساء حيث قدمت المرأة
٨١	الفصل الرابع: غزاة الشمال
١١٥	الفصل الخامس: واحد من عرقهم
١٣٧	الفصل السادس: لو لم ييك الملك
١٥٧	الفصل السابع: العادات الجنسية المقدمة
١٦٥	الفصل الثامن: قدموا البخور للملكة السماء
١٧٩	الفصل التاسع: ورجال المدينة بالحجارة يرمونها
١٩٣	الفصل العاشر: حل لغز أسطورة آدم وحواء
٢١٥	الفصل الحادي عشر: بنات حواء

يوم كان الرب أنثى

كيف حصل هذا؟ كيف اكتسب الرجال السيطرة التي تسمح لهم الآن بتنظيم العالم على ضخامة تنوعه وتقرير أي الحروب التي يجب أن يشنوا عندما يحين وقت وجبة الغداء؟

هذا الكتاب هو نتيجة إجاباتي عن ذينك السؤالين والأسئلة المشابهة التي يطرحها كثير منا عن وضع النساء في مجتمعنا فنسأل وتساءل واحداثنا الأخرى. وحتى لو أجبنا عن هذه الأسئلة يبرز سؤال آخر. ماذا نتوقع من مجتمع يعلم أولاداً، ذكوراً وإناثاً، لعدة قرون، أن الإله الذكر خلق الكون وكل ما فيه، وجعل الرجل على صورته المقدسة - ومن ثم، وكتفكير تالي خلق المرأة لتساعد الرجل مناصفة له في كل مساعيه؟ صورة حواء التي خلقت من أجل زوجها، ومن زوجها، إنها المرأة التي أنتجت لسقوط البشرية، صارت بطرق كثيرة صورة لكل النساء. كيف ظهرت هذه الفكرة إلى الوجود؟

في مراحل ما قبل التاريخ وفي المراحل التاريخية المبكرة من التطور البشري وجدت أديان قدس فيها الناس خالقهم، باعتباره أنثى. فالربة العظمى - الجدة المقدسة - عُبِّدت منذ بدايات العصر النيوليثي ٧٠٠٠ سنة قبل المسيح حتى إغلاق آخر معبد للربة عام ٥٠٠ بعد المسيح. بعض الباحثين المؤثوقين يمدون عبادة الربة بعيداً في الماضي حتى العصر الباليوليثي الأعلى الذي يمتد إلى ٢٥٠٠٠ سنة قبل المسيح.

مارلين ستون